جامعة الجزائر

كليـــة العلـــوم الإسلاميـــة

قسم العقائد والأديان

المصالحة السياسية والإصلاح الاجتماعي
في خلافـــة
عمـــر بن عبـــد العزيـــز

مذكرة لنيل درجة الماجستير في العلوم الإسلامية

- تخصص أصول الدين-

إعداد الطالب :

علي عدلاوي

إشراف الدكتور:

لخضر حداد

السنة الجامعية : 1425-1426هـ / 2005-2006 م

جامعة الجزائر

كليـــة العلـــوم الإسلاميـــة

قسم العقائد والأديان

المصالحة السياسية والإصلاح الاجتماعي في خلافـــة عمـــر بن عبـــد العزيـــز

مذكرة لنيل درجة الماجستير في العلوم الإسلامية

- تخصص أصول الدين-

إعداد الطالب :

علي عدلاوي

إشراف الدكتور:

لخضر حداد

<u>اللجنة المناقشة :</u>

* الدكتور : عبد المجيد بيرم رئيسا

* الدكتور : لخضر حداد مقررا

* الدكتور : محمد يعيش عضوا

* الدكتور : محمود مغراوي عضوا

السنة الجامعية : 1425-1426هـ / 2005-2006 م

الإهـــــــــــــــــــداء

إلى والديّ الكريمين ، اللذين كرسا حياتهما من أجل تربيتي وتعليمي ، فرحم الله الوالد وأسكنه فسيح جنانه ، وحفظ الله الوالدة وأطال بقاءها.

إلى زوجتي الكريمة "سميرة" ، التي وفرت جزءا من وقتها ، من أجل إنجاز هذا العمل المتواضع.

إلى فلذات الكبد ، أولادي الأحبة : "هدى ، محمد إبراهيم ، عبد الله ياسين".

إلى كل من علمني حرفا ، وأحاطني برعايته وتوجيهاته ، وأخص بالذكر المعلمين والمربين الأجلاء : "سي الحاج بريهمات ، أحمد قرش ، سعيّد عثماني ، عبد القادر علوط" .

وإلى كل طالب للحقيقة ، محب للخير ، ناشر للسلم والفضيلة .

شكر و تقدير

أشكر كل من ساعدني في إنجاز هذا البحث ، وأخص بالذكر :

أستاذي الكريم : "لخضر حداد"،الذي أشرف على هذه المذكرة ، وأفادني بتوجيهاته .

الأساتذة والزملاء : "بشير هزرشي ، رضا جغبوب ، عز الدين محجوبي ، مصطفى شريقن ، مليك بودينار ، عبد القادر خليل ، بولنوار قديري" ، الذين ساعدوني في طباعة هذا البحث .

ثم كل الشكر والتقدير للقائمين على كلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر ، لتبقى منارة للعلم والمعرفة .

المقدمـــــــة :

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وصلى الله وسلم على الرحمة المهداة والنعمة المسداة ، خير خلق الله محمد وآله وبعد:

إن البشرية اليوم تعيش على حافة الهاوية،على جميع الصّعد،وفي كل الميادين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية... ،وذلك راجع بطبيعة الحال إلى بعدهاعن مصدر السعادة والخير:الإسلام الذي أعتقد جازما أنه الحل الوحيد لمشكلات الحضارة الحالية، بما في ذلك الأمة الإسلامية،التي – وللأسف الشديد– اختارت في أغلبها نمط الحياة الغربية المادية، فتطبّعت بطباعها وتلوّنت بألوانها المزخرفة الجذّابة،تصديقا لقول المولى عزّ و جلّ:(ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس)[1]،وتصديقا لما ورد في الحديث الشريف :<< لتتبّعنّ سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع،حتى لوسلكوا جحر ضبّ لسلكتموه.قلنا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال: فمن>>[2].

ويزول العجب إذا علمنا أنّ ربّان سفينة الحضارة اليوم هم اليهود الحاقدون، ومن اعتقد معتقدهم وسار في فلكهم ،ممّن تبنّوا النّزعة:"المسيحية الصهيونية"،التي لا شغل لزعمائها إلاّ الإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل ، من خلال ما تنشره وسائل إعلامهم من فكر شاذّ ، وخلق فاسد ، وأمر بالمنكر ونهي عن المعروف،وسفك لدماء الأبرياء، واستغلال ونهب لثروات الشعوب ،وما خبر فلسطين والعراق وغيرهما من بلاد الإسلام عنّا ببعيد .الأمر الذي جعل سفينة الحضارة تنحرف عن مسارها الطبيعي ، بل وتكاد تغرق ، إن لم يدركها لطف الله ورحمته ، بأن يهيئ لها رجالا أكفاء مخلصين وصادقين في نواياهم وسلوكهم ، وما نرى ذلك إلاّ في أمة الإسلام ، التي أكرمها الله عز وجل بالوحي الصادق والنور الهادي إلى سعادة الدنيا والآخرة.

ولقد مرّ بالبشرية –عموما– والأمّة الإسلاميّة –خصوصا– زمان شبيه إلى حدّ بعيد بزماننا، حيث ساد فيه الاقتتال والظلم ، واستشرى فيه الفساد في جميع مجالات الحياة ، ذلك الزمان هو:عصر الحكّام الأمويين،الذين انحرفوا بالخلافة الإسلامية الراشدة المهتدية بهدي النبّوة إلى الملك العضوض ، فسالت بسببه دماء غزيرة بريئة ، وولّد اختلالا في الموازين الدينية والدنيوية ، وكادت الأمّة أن تعود به إلى جاهليتها الأولى ، لولا أن قيّض الله عز و جل –برحمته –رجلا من بني أميّة ، ترعرع في عزّهم ، وتقلّب في نعيمهم ، ولكنّه حين ولي الملك أعاده إلى سيرة الراشدين. ذلكم الرجل هو سيدنا عمر بن عبد العزيز:خامس الخلفاء الراشدين المهديّين،الذي وفّقه

---

[1] سورة الروم/41.

[2] رواه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري،تحقيق مصطفى ديب البغا،دار ابن كثير،اليمامة،بيروت،ط3، 1407ه–1987م، ج3،ص1274،(كتاب الأنبياء–باب ما ذكرعن بني إسرائيل)، رقم3269.

الله تعالى للقضاء على الفساد المستشري في أوصال الدولة الإسلامية وإحلال العدل والأمن ، بعد أن عاش الإخوة في الدين والنسب دهرا طويلا في الاقتتال والعداوة،وتمّ كلّ ذلك في مدّة لم تتجاوز السنتين وبضعة أشهر .

1/ الإشكالية :

إنّه بتحوّل الحكم الإسلامي الراشد من الخلافة إلى الملك العضوض ، على يد الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، بدأ المجتمع الإسلامي – قيادة ورعيّة – ينحرف عن طريق الحق والعدل والصواب ، وظهر بذلك الفساد الأخلاقي والسياسي ، الذي انجرّ عنه البغض والاقتتال ، وظلّ الأمر هكذا على مدى ثلث القرن من الزمان ، حتى هيّأ الله الفرج للأمة ، بأن بعث لها رجلا ، يجدّد أمرها ويصلح شأنها ، ويزرع فيها الأخوّة والوئام والمصالحة ، فيفيض خيرها على الآخرين بردا وسلاما وأمانا ، وهو عمر بن عبد العزيز ،الذي أكرمه الله بعلم غزير وقلب صادق وهمّة عالية ، وعزم عنيد على انتشال عباد الله من الوهم والظلام .

ولكن السؤال الملحّ والذي يطرح نفسه هاهنا هو: ماذا فعل ذلك الرجل حتى استطاع في مدة وجيزة أن يحقّق ما يصبو إليه ؟ و ما هي الوسائل التي اعتمدها في إصلاح الرّاعي والرّعية ؟ وأيّ خطّة اعتمدها لإحلال السّلام والمصالحة بعد الاقتتال والشقاق ؟ وأخيرا هل بالإمكان تبنّي تلك الخطة في عالمنا اليوم لننعم بما نعم به الناس حينذاك ؟ هذه هي مجمل التساؤلات التي أريد من خلال الإجابة عنها في الصفحات التالية إزالة الإشكال المطروح بعون الله وتوفيقه.

2/ **أسباب اختيار الموضوع :**

إن ما حداني إلى اختيار هذا الموضوع بالذّات، هو ما يشهده العالم-اليوم- عموما ، وأمة الإسلام خصوصا ، وشعبنا الجزائري على وجه أخصّ ، من فساد واقتتال ، أتى على كل جميل وخيّر ، وزرع ثقافة شاذّة ،هي ثقافة التّحاقد والشّقاق والعنف ، وبموجبها انعدمت الثقة وعمّ الخوف ، الأمر الذي انجرّ عنه عدة اجتهادات للخروج من الأزمة ، كان منها الخاطئ – في تصوّري- كالمواجهة المسلحة وتكميم الأفواه ،والمصيب – في اعتقادي – كمشروع الإصلاح والمصالحة ، الذي يطرح الآن نفسه اليوم بقوّة على المستويين العالمي والمحليّ.

ثم ما دفعني إلى اعتماد هذا المشروع هو تلك المقاربة بين حالنا اليوم وحال الأمة قبل ولاية الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ، وعلى وجه الخصوص في المجال السياسي:

" الاقتتال والظلم "،والاجتماعي : "الفساد الأخلاقي والإداري" .

3/ أهميّة الموضوع :

أردت بذلك أن أسلّط الأضواء على الحالة السياسية والاجتماعية على وجه الإجمال،والتي أدركها سيدنا عمر بن عبد العزيز من الولادة إلى الوفاة ، ثم بيان خطّة الإصلاح والمصالحة التي اعتمدها للخروج من الأزمة الشاملة .

وكأنّني أقول: هاهي الأمة عاشت في زمن مّا في مكان مّا من أرض الله تعالى ، وأصابها مثل الذي أصابنا اليوم ،ومع ذلك جاء من يصلح ما فسد ويصالح بين من تقاتل،والغرض هو استثمار تلك التجربة الفريدة لعلّها تنقذ البشرية المعذّبة وترسم الطريق لحياة أفضـــل ، لحمتها السّلام وسداها الخير والصّلاح بالمعنى الشامل .

4/الدراسات السابقة : إن أهم دراسة أكاديمية اطّلعت عليها بخصوص مبحث المصالحة هي أطروحة الدكتوراة التالية: "العفو ومدى سلطان الدولة في تطبيقه، في جرائم الإرهاب ــ الجزائر نموذجا ــ دراسة فكرية، شرعية، قانونية"، للطالب محمد يعيش،التي نوقشت بكلية العلوم الإسلامية،يوم الأحد 12 صفر 1427هـ الموافق لــ 12 مارس 2006م.

كما أنني عثرت في مبحثي على عدة دراسات، تناولت حياة عمر بن عبد العزيز وأهم مآثره وأعماله، وقد قسمتها حسب نوع الدراسة إلى مايلي:

1) ما اعتمد فيها أصحابها على السرد التاريخي للوقائع والأحداث ،مثل كتاب "تاريخ الإسلام" لحسن إبراهيم حسن، و" التاريخ الإسلامي" لمحمود شاكر، و" عمر بن عبد العزيز:الحاكم العادل" لأحمد الشرباصي، وقد جمع فيها أصحابها جميع المعلومات المتعلقة بأعماله وأقواله وخطبه وصفاته وآثاره.

2) ما ورد في سياق التعبير الأدبي: مثل كتاب" خلفاء الرسول" لخالد محمد خالد، وكتاب " ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز" للدكتور عماد الدين خليل، فقد حاول كل منهما سرد الأحداث المتعلّقة بحياته وأعماله على شكل أسلوب أدبي يمتاز بالتشويق والتنميق البلاغي.

3) ما ركز على الإصلاحات الاقتصادية والمالية: مثل كتاب "عمر بن عبد العزيز" للدكتور مصطفى الوكيل، وكتاب" عمر بن عبد العزيز" لأحمد زكي صفوت، ومن الكتب الأجنبية "تاريخ مسلمي إسبانيا" الجزء الأول لدوزي، وقد نقله إلى العربية حسن حبشي، وكذا كتاب: "تاريخ حضارة المشرق":"culturgeschichte des orient" لفون.

4) ما تطرّق إلى علاقة عمر بن عبد العزيز بالموالي وأهل الذمة: مثل كتاب "السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات" لفان فلوتن، ترجمة حسن إبراهيم حسن، وكتاب "تاريخ الدولة العربية"

لوان فلهاوزن، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة. وقد أضفى هؤلاء على الخليفة كلمات الورع والتقديس، لما بذله من جهود جبّارة في التعايش السلمي مع أهل الذمة وما عامل به الموالي والبربر من العدل والمساواة مع سائر العرب.

5) ما جاء ذكره ضمن إطار التأريخ للدولة الأموية، باعتبار أنه واحد من حكّامها: مثل كتاب" الخلافة الأموية" لعبد المنعم الهاشمي، وكتاب "تاريخ الأمم الإسلامية:الدولة الأموية" لمحمد الخضري بك، وقد ذكر أصحابها ما قام به عمر بن عبد العزيز من إصلاحات سياسية واجتماعية على وجه الإجمال،ومقارنته بمن سبقه ولحق به من الحكام الأمويين.

وقد أفدت كثيرا من هذه الأنماط من الدراسات، ولكنّني حاولت العثور على دراسة مركّزة، وخاصّة حول موضوع بحثي فلم أعثر عليها ، ولذلك جمعت العزم على أن أستدرك في هذه الدراسة على الدراسات السّابقة وذلك من خلال:

1- تتبّع المسار التاريخي لحياة الخليفة عمر بن عبد العزيز وبيان أهم المنعطفات التي أثرت في شخصيته.
2- بيان آثار الخلاف حول الإمامة على المجتمع الإسلامي حينذاك.
3- بيان وكشف الدّواعي التي أفضت إلى الاقتتال والتنازع.
4-الإشارة إلى مشروعية المصالحة بين المتنازعين، وإصلاح الفساد من خلال إيراد بعض النصوص والآثار الشرعية.
5-إبراز أثر المصالحة والإصلاح في الشّيوع الأمني والانتعاش الاقتصادي والانضباط الشرعي لجمهور الأمة، وتعايشها السلمي مع غير المسلمين داخل وخارج بلاد الإسلام .

5/ منهجية البحث : تبنيت في هذه المذكرة المنهج الوصفي الاستقرائي الذي يعتمد على جمع الروايات والآثار والأخبار، والمنهج التحليلي الذي سأستعمله في استنباط وتحليل الأقوال والأحداث،كما ألتزم قواعد المنهج العلمي من حيث:

أ- عزو الآيات القرآنية إلى سورها.

ب- تخريج الأحاديث النبوية والآثار من المصادر الأصلية،مع الإشارة إلى أنني أذكر الراوي أولا ثم المصدر.

ت- التعريف بالمصطلحات والألفاظ من كتب المعاجم والقواميس والتفاسير.

ث- أترجم لكل علم غير مشهور وارد في المذكرة، أو ذكر خارج مقول القول،مع الإشارة إلى أنّني ركّزت على الشخصيات الشّيعية والخارجيّة والأموية،باعتبارها المؤثّر الأهمّ والأبرز في المشهدين:السياسي والاجتماعي حينذاك.

ج- ذكر معلومات المصادر والمراجع التي اعتمدتها على النحو التالي:(عنوان الكتاب ، واسم المؤلف والمحقق،دار النشر،بلد النشر،الطبعة أو عدد الدورية وأخيرا رقم الجزء والصفحة).

ح- أذيّل المذكرة بفهارس.

خ- عنونة المصادر والمراجع، الآيات القرآنية، الأحاديث النبوية، الأعلام، البلدان، ثمّ المحتويات وفق حروف المعجم.

6/ خطّة البحث :

إن محاولتي حل الإشكال السابق ، تلزمني تحديد ورسم خطة منهجية كالآتي:

***المقدمة.**

***الفصل الأوّل :** حياة عمر بن عبد العزيز وعصره ، ويتفرّع إلى مبحثين :

المبحث الأول : حياة عمر بن عبد العزيز ، ويتفرع إلى مطلبين :

المطلب الأول : حياته من المولد إلى الخلافة ، وأبيّن فيها شخصيته، من خلال الوقوف على أهمّ المحطّات التي ساهمت في إعداده نفسيا وفكريا لتولّي أعباء الخلافة.

المطلب الثاني : حياته من الخلافة إلى الوفاة ،والتي أركّز فيها على ما يتعلّق بالجوانب الشخصية له،أما ما تعلق بإصلاحاته السياسية والاجتماعية فسيكون موضوع بحثي في الفصل الثاني.

المبحث الثاني:عصر عمر بن عبد العزيز،وينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول : الحياة السياسية التي شهدها عصر الخليفة الراشد ، وأركّز فيها خصوصا على مجمل الأحداث السياسية بعد عهد معاوية رضي الله عنه وبداية عهد ولده يزيد ، وعلى رأسها مسألة الإمامة وبدعة توريث الحكم في الإسلام ،ثم أتطرّق إلى ما انجرّ عن ذلك من بروز أهمّ وأكبر الأحزاب والجماعات التي اتخذت التّطرّف والسلاح لغة للحوار والمواجهة ، وتمثل ذلك في: الشيعة والخوارج والزبيريين،ثم أتعرّض بشكل موجز إلى إرهاصات الدولة العباسية ، التي تمثّلت في نشوء أوّل نواة لها من خلال الدعوة للرّضيّ من آل البيت، وأخيرا وصف حدود الفتح الإسلامي إلى غاية استخلاف عمر بن عبد العزيز.

المطلب الثاني : فسوف أحاول فيه: الكشف عن طبيعة الحياة الاجتماعية في عهد عمر، التي اتّسمت بكثير من الثقافات والسلوكات التي شذّ بها كثير من أفراد المجتمع عن منهج السلف الصالح، فظهر نمط جديد من العيش في مجال الفكر والعمران والسّلوك الاجتماعي.

***الفصل الثاني :**وقد عنونته بـــ:"المصالحة السياسية والإصلاح الاجتماعي في خلافة عمر بن عبد العزيز"، وقد قسمته إلى ثلاثة مباحث وهي:

المبحث الأول: مدخل عام، ويتضمن:مفهوم ومشروعية كل من المصالحة والإصلاح، وقسّمته إلى مطلبين هما:

المطلب الأول:مفهوم المصالحة والإصلاح.

المطلب الثاني:مشروعية المصالحة والإصلاح ، وقد بسطت الكلام في المصالحة أكثر لضرورته.

المبحث الثاني: المصالحة السياسية في خلافة عمر بن عبد العزيز، وقسمته إلى مطلبين:

المطلب الأول :حوار الخصوم، وهم: بنو أميّة وحلفاؤهم، الخوارج، الشيعة، آل الزبير، الموالي والبربر وأخيرا القدريّة.

المطلب الثاني:التّعايش السّلمي مع أهل الذّمّة والمستأمنين والحربيّين.

المبحث الثالث: الإصلاح الاجتماعي في خلافة عمر بن عبد العزيز، وقسمته إلى مطالب أربعة وهي:

المطلب الأول: عمر بن عبد العزيز والتغيير الذّاتي.

المطلب الثاني: الإصلاح الإداري والتشريعي.

المطلب الثالث: الإصلاح المالي والاقتصادي.

المطلب الرابع: الإصلاح الثقافي والتربوي.

7/الخاتـــــــمة.

- **فهرس المصادر والمراجع**
- **فهرس الآيات القرآنية**
- **فهرس الأحاديث النبوية**
- **فهرس الأعلام**
- **فهرس الأماكن والبلدان**
- **فهرس الموضوعات**
- **ملخص باللغة العربية**
- **ملخص باللغة الإنجليزية**

الفصل الأول : حياة عمر وعصره.

المبحث الأول: حياة عمر بن عبد العزيز.

تكفل الله بحفظ دينه ، فقيض له رجالا أمناء – في كل عصر ومصر – يحفظونه من تحريف الغالين وتشدد المتنطعين ، وجهل الجاهلين ، وكان أولئك الرجال من جميع الطبقات :من الفقهاء والزّهاد و قادة الجهاد , ومن الحكّام الصّادقين المخلصين , الذين أعطوا بعلمهم و سلوكهم النموذج الحسن لتطبيق الإسلام على أرض الواقع , بلا إفراط ولا تفريط , مقتدين في ذلك بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم , وهدي السّلف الصّالح.

وإن الخليفة عمر بن عبد العزيز واحد من أولئك الأعلام , الذين جدّد الله بهم الدّين [3], وزكّى بهم النفوس , وأصلح بهم العباد والبلاد. إنه الرجل الصالح , والخليفة الزاهد:عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه,حفيد الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب , الذي ورث عنه كل صفات و خلال الحكم الراشد , فلقب بحق خامس الخلفاء الراشدين[4] .

و قد قسمت هذا المبحث إلى مطلبين :

المطلب الأوّل : من المولد إلى الخلافة.

الفرع الأوّل : المولد و النشأة .

1 –نسبه و مولده :

(هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية, وكنيته أبو حفص [5]، ولد بالمدينة – وقيل بحلوان[6],من أعمال مصر– وهو الأصحّ سنة 60ه/ 668م)[7],وهو العام الذي توفي

---

[3] قال أحمد بن حنبل:"يروى في الحديث أن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يصحّح لهذه الأمّة دينها، فنظرنا في المائة الأولى فإذا هو عمر بن عبد العزيز،ونظرنا في المائة الثانية فنراه الشافعي"، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز،الخليفة الزاهد،الإمام عبد الرحمن بن الجوزي ،دراسة–تحقيق وتعليق الدكتور السيد الجميلي،دار مكتبة الهلال ،بيروت، 2003م،ص92، 93 .والحديث ورد بلفظ:<< إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها>>، رواه أبو داود في سننه عن أبي هريرة ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،دار الفكر،بيروت،ط3،ج4،ص109،(كتاب الملاحم–باب ما يذكر في قرن المائة)،رقم4291.

[4] قال السيوطي:"عن ابن عمر قال:"كنّا نتحدث أن الدنيا لا تنقضي حتى يلي رجل من آل عمر يعمل بمثل عمل عمر"، وقال سفيان الثوري :"الخلفاء خمسة:أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز"تاريخ الخلفاء، دار الكتب العلمية،بيروت،ط1،ص183.

[5] والحفص:الشّبل:ولد الأسد،لسان العرب،ابن منظور، دار إحياء التراث العربي،بيروت،ج7،ص17.

[6] قرية من أعمال مصر وبينها وبين الفسطاط فرسخين من جهة الصعيد،مشرفة على النيل،وبها دير،أوّل من اختطّها عبد العزيز بن مروان لمّا ولي مصر،وضرب بها الدنانير،معجم البلدان،ياقوت الحموي، دار صادر،بيروت،ط1، 1986م،ج2،ص293.

[7] الخلافة الأموية،الهاشمي، دار ابن حزم،بيروت،ط1، 1423هـ–2002م،ص279،وأمّا ترجيح سنة ميلاده عام60ه فقد أوردها الهاشمي عن العصامي في كتابه" سمط النجوم".

فيه معاوية،وقيل بل ولد سنة 62ه،وقيل بل ولدعام 61ه،أي العام الذي قتل فيه الحسين بن علي رضي الله عنهما،وجاء في مناقب ابن الجوزي ،أنه ولد في سنة 63ه،وهي السنة التي ماتت فيها ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم. وأمه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما , وأما كنيته بأبي حفص فنسبة إلى جده لأمه عمر بن خطاب رضي الله عنه .

ولمّا أراد أبوه عبد العزيز الزواج , قال لخادمه: " اجمع لي أربعة مائة دينار من طيب مالي , فإني أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح , فتزوج أم عمر بن عبد العزيز)[8].

و لنسبه الشريف قصة أوردها ابن الجوزي في مناقبه خلاصتها أن عمر بن الخطاب , بينما هو في جولة بالمدينة ليلا يعسّ , إذ سمع حوارا بين جارية وأمها , حول خلط الماء باللبن، بغرض زكاته و بيعه بأغلى ثمن , وكان ذلك بطلب الأم , فرفضت الجارية متعللة برقابة الله عز وجل, فوقعت من قلب عمر, فزوجها ابنه عاصم, فأنجب عاصم ليلى أم عمر بن عبد العزيز[9].

2- **نشأته و صفاته :**

كان أبوه يسكن المدينة المنورة مع بني أمية , فلما وقعت موقعة الحرّة و طردوا منها , رحل مع أبيه إلى الشام , ثم إلى مصر حيث ولي أبوه عليها , و لكن عمر لم يحل له المقام – على صغر سنه– في مصر, بل رغب إلى أبيه في أن يوفده إلى المدينة المنورة,ليتعلم على فقهائها , و يتأدب بآدابهم , فسيره إليها , و طلب من صالح بن كيسان[10] أحد أعلامها أن يتعهده بالرعاية والتعليم.

ولمّا عاد لزيارة أبيه بحلوان بمصر, وفي أحد الأيام خرج متنزها فمر على مكان الخيل, فرمحته[11] بغلة على جبينه فشجته,فجعل أبوه يمسح الدم ويقول:"سعدت إن كنت أشج بني أمية",وفي ذلك إشارة إلى الرؤيا التي رآها عمر بن الخطاب , حين استيقظ ذات ليلة وهو يقول:

[8] البداية و النهاية، ابن كثير، خرج أحاديثه أحمد بن شعبان بن أحمد ومحمد بن عيادي بن عبد الحليم،مكتبة الصفاء،القاهرة،ط 1، 1423هـ–2003م، ج9، ص158 ، التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، المكتب الإسلامي،دمشق،ط 7، 1411هـ– 1991م، ج4، ص242.

[9] سيرة و مناقب عمر بن عبد العزيز ، ص 21 وما بعدها.وفي طلب والد عمر من غلامه أن يزوده بالمال الطيب للزواج إشارة إلى أن ماله كان مختلطا بأموال المظالم،وهذا شأن أموال حكام بني أمية.

[10] هو صالح بن كيسان المدني،مؤدب أولاد عمر بن عبد العزيز،كان من فقهاء المدينة،الجامعين بين الحديث والفقه،عاش أكثر من مئة سنة،مات عام140ه،ا الأعلام" قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء،من العرب والمستعربين والمستشرقين"،خير الدين الزركلي،دار العلم للملايين،بيروت،ط7، 1986م، ،ج3،ص195.

[11] رمح يرمح رمحا ، ضرب برجله ، لسان العرب، ابن منظور، ج2،ص454.

" ليت شعري من ذو الشين[12] من ولدي الذي يملؤها عدلا كما ملئت جورا "،وكان عبد الله بن عمر كثيرا ما يقول:"ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر, في وجهه علامة, يملأ الأرض عدلا"[13].

ودأب الناس يرددون هذه المقالة و يتناقلونها , حتى تولى عمر الخلافة , وصدقت الرؤيا الصَّالحة.

وكان عمر أبيض جميلا , حسن اللون, دقيق الوجه،أصلع الرأس، ممتلئ الجسم ,غائر العينين[14]،كما كان شديد العناية بمظهره , فكان يرخي شعره ويرجّله , ويلبس خاتما له فص ثمين, و كان شديد السرف في ارتداء الأزر والأردية , فربما اشترى الإزار الواحد بمائة دينار,ويبلى عنده الثوب بمجرد أن يخلعه ويراه الناس عليه ,وتمادى به الأمر وغالى في ذلك غلوا كبيرا حتى أوشك أن لا يعجبه ثوب , و كاد أن يجعل ماله كله في زينة الأثواب ثم لا يقنع ,حتى قال ذات مرة:"لقد خفت أن يعجز ماقسم الله لي عن كسوتي, و ما لبست ثوبا قط , فرآه الناس عليّ إلا خيل لي أنه قد بلي"[15].

وكان في المدينة كثير التطيب , حتى ليشم ريحه عن بعد, وينتظر الناس ثيابه بباب الغسّال فإذا أرسلها , تسابق الناس يعطونه دراهم كثيرة حتى يغسل ثيابهم إثر ثيابه,من كثرة ما حملت وما تترك في الماء من عنبر وطيب .

وإذا مشى راح متبخترا,متكبرا, يتصنع له مشية , هي له وحده, يخترعها بين الكبر والتبختر, كأنها مشية الجارية إذا كعبت [16], وقد أعجبت مشيته تلك جواري المدينة المنورة وكواعبها فأخذن يقلدن المشية العمرية المتميزة .

وكان لا يمشي إلا في جماعة من عبيده وغلمانه , حتى رماه بالتكبر والخيلاء كثير من الناس .

---

[12] ذو العيب، لسان العرب، ابن منظور،ج13، ص244.

[13] الخلافة الأموية،عبد المنعم الهاشمي،ص108/ ص284، 285، الطبقات الكبرى،محمد بن سعد،مراجعة وتعليق سهيل كيالي،دار الفكر،بيروت،ط3، 1413هـ–1992م، ج4، ص15 ،البداية والنهاية، ابن كثير، ج9، ص161.

[14] التاريخ الإسلامي، محمود شاكر ج4، ص242. وزعم اليعقوبي وابن كثير أنه كان أ سمرا، أنظر تاريخ أحمد بن أبي يعقوب،دار صادر بيروت ج2،ص308، والبداية والنهاية،ابن كثير،ج9،ص174، ولعلّ ذلك راجع لهموم الخلافة وكثرة البكاء،والله أعلم،وفي كونه أصلع قال السيوطي:"قال الثعالبي في لطائف المعارف: كان عمر بن الخطاب أصلع وعثمان وعلي ومروان بن الحكم وعمر بن عبد العزيز ثمّ انقطع الصّلع عن الخلفاء"، تاريخ الخلفاء،ص196.

[15] الخلافة الأموية،عبد المنعم الهاشمي،ص284، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ابن الجوزي،ص191.

[16] نهد ثديها، لسان العرب، ابن منظور ، ج1 ، 719.

وكان أبوه عبد العزيز – برغم بعد المسافة بينهما – حريصا على تنشئته التنشئة الصّالحة,فذات يوم تأخر عمر عن الصلاة مع الجماعة , بسبب تسكين الخادمة شعره, فبعث مؤدبه صالح بن كيسان إلي أبيه يخبره الخبر,فأرسل رسولا إلى المدينة فلم يكلمه حتى حلّق رأسه[17] .

وكان من صفاته الحدة وسرعة الغضب, ورثها عن جده عمر بن الخطاب،فكان غلمانه يخافونه لذلك أشد المخافة،حتى أولوه طاعة عمياء , ومع ذلك كان عادلا رجاعا إلى الحق متى تبين له, فقد بطّح في أحد الأيام عبدا له وهمّ ليضربه، فقال له :"فهل جنيت أنت جناية قط ,غضب بها عليك مولاك ؟ فقال عمر: نعم , قال : فهل عجّل عليك العقوبة؟ قال: اللهمّ لا. قال العبد:فلم تعجل عليّ ولم يعجل عليك, فقال له:قم فأنت حر لوجه الله "[18].

3-طلبه العلم :

بعد أن شجّ عمر بن عبد العزيز في حلوان بمصر,عاد إلى المدينة وأقبل على حفظ القرآن ودراسة الحديث , حتى إذا تم له الحفظ أخذ يحدّث عن بعض الصحابة وأعلام التابعين ويروي عنهم , فحدّث عن عبد الله بن جعفر وأنس بن مالك وأبي بكر بن عبد الرحمان , وكان أكثر ما أخذ العلم والأدب عن شيخه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة [19], الذي تعلّق به عمر كثيرا وأحبّه أشدّ الحبّ , فكان يقول عنه لزوجته: " فو الله يا فاطمة [20] ما أكاد أغضب إلا كأني أنظر إلى عبيد الله يخاطبني", وكان كثيرا ما يثني عليه بعد موته فيقول : "لو كان عبيد الله حيّا ما صدرت إلا عن رأيه, و لوددت أن لي بيوم واحد من عبيد الله كذا وكذا" ، وكان عمر لا يطلب من العلم إلا معاليه ولا يصاحب إلا الأكابر, فلما ولي الخلافة, واضطر إلى مخالطة الناس و معرفة قضاياهم , احتاج إلى تعلم سفاسف العلم وغرائبه.

---

[17] التاريخ الإسلامي ، محمود شاكر، ج4 ، ص242. البداية و النهاية ، ابن كثير، ج9، ص158.

[18] مروج الذهب ومعادن الجوهر،أبو الحسين بن علي المسعودي،دار موفم للنشر،الجزائر،1989م، المسعودي، ج3، ص231.

[19] هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي:مفتي المدينة،وأحد الفقهاء السبعة فيها،له شعر جيد،وقد ذهب بصره،مات بالمدينة عام98ه،الأعلام،الزركلي،ج4،ص195.

[20] قال ابن كثير : "وهي التي قال فيها الشاعر : بنت الخليفة والخليفة جدّها أخت الخلائف والخليفة زوجها "، ثم قال: "ولا نعرف امرأة بهذه الصفة إلى يومنا هذا سواها "، البداية والنهاية ، ج9، ص159.

قال: "كنت أصحب من الناس سراتهم [21] , وأطلب من العلم شريفه , فلمّا وليت أمر الناس احتجت إلى أن أعلم سفاسف العلم فتعلموا من العلم جيّده ورديئه وسفاسفه"[22] .

وكانت همته في طلب العلم عالية ,فهذا مولاه مزاحم [23] يقول:"قال لي عمر بن عبد العزيز: لقد رأيتني و أنا بالمدينة , غلام مع الغلمان , ثم تاقت نفسي إلى العلم , إلى العربية فالشعر فأصبت منه حاجتي", و بلغ به حرصه على طلب العلم أنه كان يسأل امرأة تدعى (عمرة) [24]، عن فقه السيدة عائشة وأحاديثها،فقد كانت عمرة هذه أعلم النساء بعلم عائشة[25].

وأسند عمر الحديث [26] ورواه عن جماعة من الصحابة و جماعة من التابعين , ثم لم يلبث أن اشتغل عن الرواية فقلّ حديثه, و لكنه قد بلغ مبلغا كبيرا من العلم بـــالسنن,وصار ثبتا حجة حافظا, يرى و يستنبط بالغا مرتبة الاجتهاد، و أقبل عليه كثير من الفقهاء يأخذون عنه ، حتى قال ميمون بن مهران أحد أصحابه: "كان العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة "[27] .

***نماذج ممّا رواه عن غيره[28]:**

أ- روى عمر بن عبد العزيز كثيرا من الأحاديث عن الصحابة والتابعين. فكان مما رواه عن أنس بن مالك قوله: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أوجز الناس صلاة في تمام"[29] .

---

[21] أشرافهم، لسان العرب، ابن منظور، ج14، ص378.

[22] الخلافة الأموية ، الهاشمي ، ص 289، سيرة و مناقب عمر بن عبد العزيز، ابن الجوزي ، ص25.

[23] هو مزاحم بن أبي مزاحم المكي ، أصله من سبي البربر، سقط فمات ، تهذيب الكمال ، المزّي ، تحقيق بشار عواد معروف،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط1، 1400هـ-1980م، ج27 ، ص420.

[24] هي عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة بن عدس،من بني النجار،ولدت سنة 21ه، سيدة نساء التابعين،فقيهة،عالمة بالحديث ثقة،من أهل المدينة،صحبت عائشة أم المؤمنين وأخذت الحديث عنها،ماتت سنة98ه،الأعلام،الزركلي،ج5،ص72.

[25] سيرة ومناقب عمر ،ابن الجوزي، ص 26.

[26] الحديث المسند هو ما اتّصل سنده إلى منتهاه وأكثر ما يستعمل فيما جاء عن النبي صلى الله عليه و سلم دون غيره متّصلا كان أو منقطعا،وقيل لا يستعمل إلاّ في الموضوع المتصل ، تدريب الراوي ، السيوطي ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف،مكتبة الرياض الحديثة،الرياض،ج 1 ، ص 182.

[27] الخلافة الأموية ، الهاشمي ، ص 289،البداية و النهاية ، ابن كثير ، ج9، ص 160.

[28] أنظر سيرة و مناقب عمر بن عبد العزيز ، ابن الجوزي ، ص31 و ما بعدها .

[29] رواه مسلم في صحيحه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي،دار إحياء التراث العربي،بيروت،ط3،ج1،ص344،(كتاب الصلاة-باب اعتدال أركان الصلاة و تخفيفها في تمام)،رقم473. وقد كان عمر بن عبد العزيز يأتمّ بالرسول صلى الله عليه وسلم في صفة صلاته.قال أنس بن مالك:"ما صلّيت خلف إمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أ شبه بصلاة رسول الله من إمامكم- يعني عمر بن عبد العزيز-"،وقال زيد بن أ سلم : "وكان عمر يتم الركوع والسجود،ويخفف القيام والقعود"،أنظر:سيرة ومناقب عمر،ابن الجوزي، ص49.

ب–وروى عن عبد الله بن عمر،عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله:<<إن الله يحب الشاب الذي يفني شبابه في طاعة الله>>[30].

ت–وروى عن شيخه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس: "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أجود بالخير من الريح المرسلة إذا نزل عليه جبريل عليه السلام يدارسه القرآن"[31].

4- إحسان عمه إليه[32]:

لمّا مات أبوه عبد العزيز , استدعاه عمه عبد الملك إلى دمشق , فرحل إليها من المدينة المنورة وكان عمره آنذاك خمسا وعشرين سنة , فقرّبه على كثير من أولاده و زوّجه ابنته فاطمة , فشكر له ذلك قائلا:"وصلك الله يا أمير المؤمنين فقد أجزلت وكفيت"[33].

وكان عبد الملك بن مروان رجلا بعيد النظر , ينظر إلى فتيان بني أمية نظرة اهتمام وجدية, فلما جاوز عمر العشرين، ورآه قد بلغ من المكانة في العلم والاجتهاد والجاه ورفعة الشأن ما يجعله جديرا بإمرة الناس, رأى أن ينصبه واليا على إقليم صغير ليتعلّم , ويجرّب ويزداد خبرة ودراية،فعهد له بولاية خناصرة[34] عام 85 ه، فبقي أميرا عليها حتى مات عبد الملك عام 86ه.

وبزواج عمر بفاطمة صار له ماله الخاص،فقد وهبه بنو أمية غير ما ورث من أبيه وأهل بيته هبات كثيرة، وضياعا منتشرة غنية في أماكن شتى ،فكانت له أراض في الحجاز والشام واليمن والبحرين ومصر، تأتيه غلالها في كل حين، وكانت تقارب أربعين ألف دينار سنويا.

---

[30] جاء بلفظ :<<إن الله ليعجب من الشاب ليست له صبوة>>،وقد رواه أحمد في مسنده، عن عقبة بن عامر ، مؤسسة قرطبة،مصر،ط2، ج4 ، ص151، (مسند عقبة بن عامر).

[31] رواه البخاري في صحيحه،عن أبي هريرة،ج2،ص672، (كتاب الصوم–باب أجود ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يكون في رمضان) ، رقم1803.

[32] أنظر الخلافة الأموية ، الهاشمي ، ص 290 و ما بعدها .

[33] دخل عمر بن عبد العزيز على عبد الملك بن مروان – في مرض موته – فلما رآه قال :"... وقد علمت يا عمر مكان فاطمة منّي،ومحلّها من قلبي،إنّي آثرتك بها على جميع آل مروان لفضلك وورعك، فكن عند ظنّي بك من قلبي،وقد علمت أنك غير مقصّر ولا مضيّع حقها،ولكن الله قد قضى أن الذكرى تنفع المؤمنين،قوموا عصمكم الله وكفاكم"،ثم خرجوا من عنده، الإمامة والسياسة،ابن قتيبة الدينوري،تعليق خليل المنصور،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1، 1418هـ–1997م، ص 225.

[34] بليدة من أعمال حلب ، تحاذي قنسرين نحو البادية ، معجم البلدان ، ياقوت ، ج2 ، ص 390.

5- أولاده:

ولد لعمر عدة أولاد من أمهات شتى[35]،وهم:

-إسحاق ويعقوب وموسى،وأمّهم:فاطمة بنت عبد الملك.

-الوليد وعاصم ويزيد وعبد الله وزيان وعبد العزيز وعبد الملك وأمينة وأم عبد الله وأمهم: أم ولد[36].

-عبد الله وبكر وأم عمار وأمهم :لميس بنت علي بن الحارث.

- إبراهيم وأمه:أم عثمان بنت شعيب بن زيان .

الفرع الثاني: إمارة المدينة المنورة.

ظهرت على عمر علامات ومقومات الحاكم الأمين والقوي ,أهلته لأن يتبوأ منصب الإمارة والوزارة والخلافة فيما بعد، وكانت أنظار بني أمية خاصة والمسلمين عامة مصوبة تجاهه , ترى فيه القائد المنتظر الذي سيصلح شؤون الأمة والدولة ,اللتين نخر فيهما الفساد ,ويصالح بين أبناء المجتمع الإسلامي الذين أكلتهم الحروب ,وباعدت الأحقاد بينهم .

ولما ولي الوليد الخلافة عام 86 ه ,كتب إلى عمر كتابا يوليه فيه إمرة المدينة المنورة , غير أن عمرا أبطأ في الخروج إلى عمله , لعلمه بما أصاب أهلها من ظلم عاملها السابق هشام بن إسماعيل , فأرسل إليه الوليد يستفسره عن عدم الخروج إلى عمله ,فأجابه بأنه يقبل الإمارة بشرط أن لا يحاسبه عمّا فعل أهل الظلم قبله, وأن يعمل بمقتضى الحق,لا بهوى السلطان,فقال الوليد لعمر: "اعمل بالحق وإن لم ترفع إلينا إلا درهما واحدا". وكان الوليد شديد الحرص على إرضاء أهل المدينة المنورة[37].

وهكذا عزم عمر على المسير إليها،(ولكأنما أراد القدر أن يجعل من إمارته هذه تجربة للمهمة الجليلة والعظيمة التي يدخرها له في غد ,يوم تنتهي إليه خلافة المسلمين ,وحكم الدولة المسلمة

---

[35] سيرة و مناقب عمر بن عبد العزيز ، ابن الجوزي ، ص 344.وقد زعم محمد الخضري أنه لم يتزوج غير فاطمة، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية"الدولة الأموية"،محمد الخضري بك،دار المعرفة،بيروت، ج2، ص 185.

[36] الجارية إذا ملكها ووطئها سيدها ، فولدت منه صارت أم ولد ، باعتبار أنها ليست امرأة- من التسرّي-، لسان العرب، ابن منظور ، ج 11، ص 59.

[37] سيرة ومناقب عمر ،ابن الجوزي،ص58.

من أقصاها إلى أقصاها ,وسنرى كيف ستبلغ التجربة مداها البعيد من النجاح والتوفيق)[38].

قدم عمر المدينة في شهر ربيع الأول من سنة 87ه,وهو ابن خمس وعشرين سنة [39]،ودخلها في موكب عظيم , يتألف من ثلاثين بعيرا, فدخل دار الإمارة : دار مروان جده , ثم أقبل الناس فسلموا عليه بالإمارة و رحبوا به ترحيبا عظيما.

وبقي عمر على أخلاقه السالفة , من الزهوّ بالنفس والخيلاء والاعتناء المفرط بهيئته , لكنه سار بأهل المدينة سيرة العدل والرحمة،وظل على حبه العلم و تقديره للعلماء , فكان كثيرا ما يتردد على شيخه عبيد الله بن عتبة لطلب العلم,فربما أذن له وربما حجبه. وكانت المدينة – آنذاك – آهلة بأهل العلم والفقه والوعظ من الصحابة و أبنائهم وتلامذتهم من التابعين, وأشهرهم الفقهاء السبعة , فاصطفى منهم ستة – سوى سعيد بن المسيب,الذي كان شديد التندر بآل سفيان وآل مروان– [40]، وأضاف إليهم أربعة من خيرة العلماء ,فصاروا عشرة[41], فجعلهم مجلس شوراه, الذين لا يفصل في أي قضية مهما صغر شأنها ,إلا بمشورتهم و رضاهم .

دعاهم يوما فلما حضروا قال لهم: "إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه , وتكونون فيه أعوانا على الحق , ما أريد أن أقطع أمرا إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم , فإن رأيتم أحدا يتعدى أو بلغكم عن عامل لي ظلامة , فأحرّج الله على من بلغه ذلك إلا بلّغني", فخرجوا يجزونه خيرا[42].

وكان العلماء ينصحونه في خاصة نفسه, وفي أمر الرعيَّة ,ومن ذلك أن محمد بن كعب القرظي رأى عمرا يمشي مختالا كعادته,جارّا ثوبه ,فناداه قائلا:"ياعمر,إن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

[38] خلفاء الرسول ، خالد محمد خالد ، دار الكتب العلمية،بيروت،ط2، 1394هــ–1974م،ص655.

[39] الطبقات الكبرى،ابن سعد،ج4،ص16.

[40] وذلك بسبب رفضه البيعة لولدي عبد الملك في حياته،فجلد لذلك ستون جلدة،وكان يقول:"فعل الله بمعاوية وفعل،فإنه أوّل من أعاد هذا الأمر ملكا"، تاريخ اليعقوبي،ج2،ص232،وكان سعيد بن المسيّب يرفض الدخول على حكام بني أمية،سوى عمر بن عبد العزيز،كما أخبر بذلك مالك بن أنس،أنظر: التشريع والفقه في الإسلام"تاريخا ومنهجا"،مناع القطان،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط 6، 1406هــ–1985م ،ص262.

[41] وهم:سليمان بن يسار وعبيد الله بن عتبة وأبو بكر بن عبد الرحمان وخارجة بن زيد والقاسم بن محمد و سالم بن عبد الله وعروة بن الزبير وأبو بكر بن سليمان وعبد الله بن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عامر،أنظر البداية والنهاية، ابن كثير،ج9،ص159.

[42]تاريخ الأمم والملوك،محمد بن جرير الطبري،دار الكتب العلمية،بيروت،1417هــ–1997م ،ج3،ص672.

قال:<< ما جاوز الكعبين فهو في النار>>" [43], فغضب عمر لذلك وأغلظ له في الردّ ثم قال: "اتق الله يا ابن كعب ! لا تكن ذبالة[44] تضيء للناس وتحرق نفسها",ثم افترقا[45].

وقال له يوما: "فانظر أن تنزل عباد الله عندك ثلاث منازل , أمّا من هو أكبر منك فأنزله كأنه أب لك , و أمّا من كان بسنك فأنزله كأنه أخ لك , و أمّا من كان أصغر منك فأنزله كأنه ابن لك , فأيّ هؤلاء تحب أن تسيء إليه , أو يرى منك بعض ما يكره ؟"، قال عمر:" ولا إلى أحد منهم يا عبد الله "[46].

وكان أول من أدخل في قلبه الخشية من الله عز و جل , و الخوف من عقابه مولاه مزاحم العالم الورع , ففي يوم حبس عمر رجلا فجاوز الحد المشروع في حبسه , فنصحه مزاحم بإطلاق سراحه ,فرفض عمر طلبه , متعللا بضرورة الاحتياط في الحبس, حتى يردعه فغضب مزاحم وقال:" يا عمر بن عبد العزيز إني أحذرك ليلة تمخض بالقيامة وفي صبيحتها تقوم الساعة "، فكان عمر يقول بعدها: "إن أوّل من أيقظني لهذا الشأن مزاحم ، فوالله ما هو إلاّ أن قال ذلك ، فكأنّما كشف عن وجهي غطاء "[47].

1-عمارة المدينة المنورة :

عمل عمر بن عبد العزيز – بأمر الوليد – على تسهيل الطرق وإصلاحها وحفر الآبار، وصنع فوارة يستقي منها أهل المدينة ، وأمر لها بخدم يقومون عليها وبنى الفنادق وأماكن الضيافة للحجاج والزوّار[48] . وكان عبد الملك قد همّ بتوسعة المسجد النبوي ، وذلك بإدخـال حجـرات

---

[43] رواه البخاري في صحيحه ،عن أبي هريرة بلفظ:<<ما أسفل من الكعبين فهو في النار>>،ج 5،ص2182،(كتاب اللباس–باب ما أسفل من الكعبين فهو في النار)، رقم5450. وقد قيّد العلماء هذا الحديث بما إذا كان الإسبال بدافع الخيلاء والكبر،كما كان شأن عمر بن عبد العزيز هنا ، وهذا لحديث:<<من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة >>، الذي رواه البخاري في صحيحه، عن عبد الله بن عمر،ج3،ص1340،(كتاب فضائل الصحابة–باب قول النبي صلى الله عليه وسلم:لو كنت متخذا خليلا)،رقم3465. ولمّا ولي عمر الخلافة بعث إليه يقول:"يا محمد، استغفر لي من سوء مردودي عليك حين وعظتني بالمدينة، وبكى حتى اخضلت لحيته.فقال محمد:غفر الله لك يا أمير المؤمنين وأقالك عثرتك"، الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز"خامس الخلفاء الراشدين"،أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم،دار الهدى،عين مليلة،الجزائر،1996م ،ص144.

[44] الفتيلة التي يصبح بها السراج، لسان العرب،ابن منظور،ج11،ص256.

[45] الخلافة الأموية،الهاشمي،ص296، 297.

[46] الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ج 4 ، ص68 .

[47] الخلافة الأموية ، الهاشمي، ص 297 .

[48] محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية،الخضري بك،ج2،ص168،الخلافة الأموية،الهاشمي، ص299.

زوجات النبي صلى الله عليه وسلم فيه وبشراء المساكن المجاورة له وضمها إليه، ولكن الناس حينها فزعوا وضجوا ، فترك ما عزم عليه ، ولمّا ولي الوليد ، استغل عاطفة أهل المدينة نحو واليهم الجديد عمر بن عبد العزيز ونسبه من جده عمر بن الخطاب ، فترجّاه في توسعة المسجد وإقناع الناس بهذا المشروع فتمّ له ما أراد[49].

وكان ممّا عمله أنه انتصف لأهل المدينة من حاكمهم السابق هشام بن إسماعيل وكان ظلوما غشوما، فقد أوقفه للناس،عند دار مروان،ليقتصّوا منه.وردّ أموال المظالم إلى أصحابها ، وفتح أبواب المدينة لكل هارب من ظلم الولاة في كل الأقطار، موفرا لهم الطمأنينة والأمن. وهكذا بالمصالحة والإصلاح اللتين دأب عمر بن عبد العزيز على ترسيخهما في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، حسنت سيرته في الناس ، وعلا ذكره بينهم، فضم إليه الوليد إمارة مكة والطائف فصارت الحجاز كلها تحت إمرته[50].

2- عزله عن الإمارة[51] :

كان الحجاج بن يوسف من أشد ولاة بني أمية ظلما وسفكا للدماء ، وكان أهل العراق يستجيرون بالحرمين فرارا من بطشه ، وكانوا يجدون عند عمر بن عبد العزيز الأمان والعطف. ولما ترأس الحجاج وفد الحجيج، كره عمر أن يمرّ عليه، فكتب بذلك إلى الوليد، فبعث إليه:"إن عمر بن عبد العزيز كتب إليّ يستعفيني من ممرّك عليه،فلا عليك أن لا تمرّ بمن كرهك" ، فأغاظه ذلك فكتب إلى الوليد يشكوه إليه ويقول :"إن عمر ضعيف عن إمرة المدينة ومكة، وهذا وهن وضعف في الولاية، فاجعل على الحرمين من يضبط أمرهما"، وكان عمر بدوره ينصح الوليد بعزل الحجاج[52] .

[49] (من أوّليات عمر بن الخطاب أنه أول من هدم المسجد النبوي،وزاد فيه،ووسّعه وفرشه بالحصباء)، تاريخ الخلفاء،السيوطي،ص109.قال الهاشمي: "زخرفه وقدّم القبلة وجوّف المحراب،ورفع المنارة فكان عمر أوّل من أحدث تجويف المحراب بالمسجد،وحين بنى المئذنة ازدادت المآذن انتشارا من بعده في بلاد المسلمين"،الخلافة الأموية،ص298، 299.

[50] البداية والنهاية،ابن كثير،ج9،ص60، وذكر أن سعيد بن المسيّب وعليّ بن الحسين لم يتعرّضا لهشام بن اسماعيل، تاركين ذلك لله وللرّحم،خلفاء الرسول،خالد محمد خالد،ص659.

[51] أنظر البداية والنهاية، ابن كثير،ج9،ص74/ص160.

[52] الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص36،وذكر محمود شاكر أنّ أهل العراق كانوا إذا جاءهم الوالي الرحيم استضعفوه وقاموا بالحركات ، وإذا جاءهم القوي ا ستهابوه وخافوا منه،وسمعوا منه وأطاعوه ، وا ستقرّ الوضع وهدأت الأمور،التاريخ الإسلامي،ج4،ص15.

وازن الوليد بين مصلحته في عزل أحدهما فترجّح لديه عزل عمر بن عبد العزيز فعزله[53]، وعيّن مكانه – بإيعاز من الحجاج – خالد بن عبد الله القسري [54] على مكة ، وعثمان بن حيان المري [55] على المدينة ، فأخذا سكّان الحرمين بشدّة وبطشا بهم أشدّ البطش.

خرج عمر من المدينة مستخفيا في شعبان سنة 93 ه ومعه مولاه مزاحم ، وبينما هما في الطريق، مال عمر إليه يسأله: " أتراني ممّن نفت المدينة خبثها؟" ، متذكرا بذلك قوله صلى الله عليه وسلم: << والّذي نفس محمد بيده ، ما خرج أحد من المدينة رغبة عنها إلا أبدلها الله خيرا منه أومثله>>[56] . وقوله صلى الله عليه وسلم:<< المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها>>[57] . فلم يحزنه العزل عن الإمارة بقدر ما أحزنته هذه النصوص الشريفة ، وهذا يدلّ على كمال إيمانه رضي الله عنه .

الفرع الثالث: استقراره بالشام ونصحه الخلفاء.

أقام عمر بعد رجوعه من المدينة بالسويداء[58] بالشام ، ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها، فاتّخذه الوليد مشيرا ومفتيا له ، لما امتاز به من العلم والاجتهاد والتقوى .

وهناك حادثتان جرتا لعمر غيّرتا من نفسيته المختالة ، المتعلّقة بزينة الدنيا ، وجعلتاه يزهد في متاعها ويرغب إلى الله و الدار الآخرة:

– أولهما : ما ذكرته سابقا حين وعظه مولاه مزاحم موعظة بليغة ، دخلت على قلبه كالتيار الكهربائي المزلزل .

---

[53] عمل الوليد بنصيحة والده عبد الملك له عند موته،حين قال له :"وانظر الحجاج فأكرمه،فإنه هو الذي و طّأ لكم المنابر،وهو سيفك يا وليد،ويدك على من ناوأك، فلا تسمعنّ فيه قول أحد،وأنت إليه أحوج منه إليك".تاريخ الخلفاء،السيوطي،ص176.

[54] هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري: أمير العراقين، وأحد خطباء العرب وأجوادهم، ولد عام 66ه.يماني الأصل،من أهل دمشق،قتل في أيام الوليد بن يزيد،عام126ه.وكان يرمى بالزندقة،وللفرزدق هجاء فيه،الأعلام،الزركلي،ج2،ص297.

[55] هو عثمان بن حيان بن معبد المري،أبو المغراء:وال،من الغزاة،من أهل دمشق،كان في سيرته عنف،وهو ثقة عند أهل الحديث،مات عام150ه،المرجع السابق نفسه،ج4،ص205.

[56] وقد ورد بلفظ طويل منه <<...والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، والذي نفس محمد بيده،لا يخرج منهم أحد رغبة عنها إلاّ أخلف الله فيها خيرا منه>>، رواه البخاري عن سفيان بن أبي زهير ،ج2،ص663،(أبواب فضائل المدينة–باب من رغب عن المدينة)،رقم 1776. وانظر:الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص39.

[57] رواه البخاري في صحيحه عن جابربن عبد الله ،ج 2،ص665،(أبواب فضائل المدينة– باب لا يدخل الدجال المدينة)، رقم1784.

[58] موضع على ليلتين من المدينة على طريق الشام، معجم البلدان،الحموي،ج3،ص286.

–وثانيهما : موقفه مع خبيب بن عبد الله بن الزبير ، فإنه حين كان عمر أميرا على المدينة ، أمره الوليد بجلده وحبسه ، لما كان يحدث به الناس ، من قول النبي صلى الله عليه وسلم :<< إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلا،اتخذوا مال الله دولا ، وعباد الله خولا، ودين الله دغلا >> [59]، فجلده عمر مائة سوط وبرّد له ماء في جرّة في غداة باردة، فمات بسبب ذلك ، فندم عمر ندما شديدا على ما فعل ورقّ له قلبه بعد ذلك. فكان الناس إذا قالوا له:" أبشر"،قال:"كيف بخبيب على الطريق"[60] .

إذن فقد كسب عمر من هذين الموقفين قلبا توّاقا إلى الآخرة ومتعلّقا بالله وحده ، فلم يخش في الله لومة لائم ،ولذلك لم ير منه الناس – مدة خلافته – إلا ما يوافق الشرع ومصلحة الرعية.

وكم كان عمر يعنّف الوليد وأخاه سليمان ويغلظ لهما في النّصيحة ، ويرهّبهما بعذاب الله تعالى، وينصحهما في الولاة والعمّال الظّلمة، فقال يوما للوليد:"ليس بعد الشّرّ إثم أعظم عند الله من الدّم ، وإن عمّالك يقتلون ويكتبون لك ذنب المقتول، وأنت المسؤول عنه والمأخوذ به ، فاكتب إليهم ألاّ يقتل أحد منهم حتى يكتب إليك بذنبه ، ثم يشهد عليه ، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك" [61] ، فتثمر هذه المواعظ وتترك أثرها، وإذا بالوليد يكتب إلى ولاته بالأمصار، وخاصّة إلى الحجاج، يأمره بالكف عن الظلم .

وذات يوم أراد الحجاج – بخبثه ودهائه– أن يبرّر ما يفعله بالناس ، فبعث أحد الخوارج إلى الوليد ، وعمر حاضر عنده ، فسأله عن خلفاء بني أمية، فسبّهم ولعنهم ، فأمر به فضربت عنقه ، ثم قال: "ما تقول في هذا يا أبا حفص،أصبنا أم أخطأنا؟"، فقال عمر: "ما أصبت بقتله ، ولغير ذلك كان أشد و أصوب ،كنت سجنته إن بدا لك أو تعفو عنه". فقام الوليد مغضبا،وخرج عمر.

ولما مات الوليد ، ضم سليمان إليه عمرا يستشيره ويستوزره فلزمه يهديه ويرشده ، وكان يستغل المواسم و المناسبات لوعظه ، ومن ذلك أنه لمّا حجّ عمر مع سليمان عام 97 ه ، سأله : " أما ترى يا أبا حفص كثرة الناس بالموسم ؟ "، فقال عمر: "هؤلاء خصماؤك يا أمير المؤمنين"، فقال سليمان: " ابتلاك الله بهم ".

---

[59] رواه الحاكم في المستدرك،عن أبي ذر، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية،بيروت،ط 1، 1411هـ–1990،ج4،ص526،(كتاب الفتن والملاحم)،رقم8478.

[60] البداية والنهاية، ابن كثير،ج9،ص73/ص160.

[61] الخلافة الأموية، الهاشمي،ص305.

ولما عزف الرعد بالحجيج وخطف البرق أبصارهم ، فزع سليمان فزعا شديدا ، ولكنّ عمرا ضحك، فقال له: " أتضحك يا عمر وأنت تسمع وترى ما نسمع ونرى؟"، فقال عمر: "يا أمير المؤمنين ، هذه رحمة الله قد أفزعتك ، فكيف لو جاء عذابه"[62].

ولماهمّ سليمان بتولية يزيد بن أبي مسلم الثقفي [63] ، وكان من عمال الحجاج ، نهاه عمر وقال:" يا أمير المؤمنين لا تحيي ذكر الحجاج" ، فتركه سليمان ولم يولّه .

وكان عمر راصدا ذكيا لانحرافات بني أمية ، وخروجهم عن مقتضى الشرع ، فكان لا يترك فرصة إلاّ اهتبلها في الإرشاد والتقويم ، فعندما(جاء رجل يطلب ميراثا من بعض بنات الخلفاء ، قال سليمان :" ما أخال النساء يرثن في العقار شيئا "، فقال عمر: "يا سبحان الله !". فقال سليمان: " يا غلام : اذهب فأتني بسجلّ عبد الملك الذي كتب فيه ذلك".فعلّق عمر قائلا: " لكأنّك أرسلت إلى المصحف" ، فقال أيوب – أكبر أولاد سليمان وكان حاضرا –:" والله ليوشكنّ الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين ، ثم لا يشعر حتى يفارقه رأسه"، فالتفت إليه عمر وقال: " إذا أفضى الأمر إليك وإلى مثلك"، وهمّ أيوب أن يردّ ، فقال له سليمان:" مه لأبي حفص تقول هذا"[64].

ولما رأى سليمان من عمر مثل هذه المواقف النبيلة، أراد أن يمتحن صدقه وإخلاصه،فأمر وزيره رجاء بن حيوة[65] أن يقيم عنده أياما، فيخبره خبره ، فوجد قوله يطابق فعله ، فزكّاه عند سليمان . فكان ذلك من أقوى الأسباب التي دفعته إلى أن يعهد إليه بالخلافة، على حساب أولاده وإخوته وآل مروان جميعا[66].

---

[62] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز،ابن الجوزي، ص67 وما بعدها.

[63] يزيد بن دينار الثقفي،أبو العلاء:وال من الدهاة،من موالي ثقيف،جعله الحجاج كاتبا له،ثم ولي إمارة إفريقيةعام 101ه،فائتمر به جماعة من أهلها فقتلوه،واتّهم عبد الله بن موسى بن نصير،وأما "أبومسلم" فكنية أبيه،مات عام102ه،الأعلام،الزركلي،ج8،ص182.

[64] الخلافة الأموية،الهاشمي،ص312،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص38، 39.

[65] هو رجاء بن حيوة بن جرول الكندي،أبو المقدام:شيخ أهل الشام في عصره.من الوعاظ الفصحاء العلماء.مات عام 112ه،الأعلام، الزركلي،ج3،ص17.

[66] قال ابن كثير:"كان محمد بن سيرين يترحم على سليمان بن عبد الملك،ويقول: افتتح خلافته بخير وختمها بخير، افتتحها بإجابة الصلاة لمواقيتها–وكان بنو أمية يؤخرونها–وختمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز"،البداية والنهاية،ج9،ص148.

الفرع الرابع: كيفية استخلافه.

جرى خلفاء بني أمية على سنّة خلع المعهود إليهم من الإخوة، وتولية الأولاد ، فهذا مروان بن الحكم يعهد إلى عبد العزيز بعد عبد الملك ، فلمّا تولى عبد الملك همّ بخلع أخيه عبد العزيز وتولية ولديه الوليد وسليمان ، ولمّا ولي الوليد خلع سليمان وعهد لأحد أولاده واسمه عبد العزيز، ولمّا ولي سليمان خلع أخاه يزيد وولى ولده أيوب في كتاب ثم مزّقه بسبب أنه كان غلاما صغيرا لم يبلغ[67]. فهمّ بتولية ولده داود لكنه كان غازيا في بلاد القسطنطينية ولا يعرف إن كان حيا أو ميتا،هذا من جهة، ومن جهة أخرى نزل عند مشورة وزيره المقرب: رجاء بن حيوة ، حين أشار عليه بتولية ابن عمه عمر بن عبد العزيز قائلا :" إنه ممّا يحفظ به الخليفة في قبره أن يستخلف الرجل الصّالح". فقال سليمان:"... ولئن ولّيته ولم أول أحدا من ولد عبد الملك لتكونن فتنة ، ولا يتركونه أبدا يلي عليهم، إلاّ أن أجعل أحدهم بعده (...) فاجعل يزيد بن عبد الملك بعده ، فإن كان ممّا يسكّنهم ويرضون به". فكتب سليمان عهد الخلافة بيده : " بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز ، إني ولّيته الخلافة من بعدي ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا واتّقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم "[68] .

ولما مات سليمان، قرئ عهده على الناس ، فرفض هشام بن عبد الملك البيعة لعمر،فقال رجاء: " والله أضرب عنقك ، قم فبايع" ، فقام يجرّ رجليه ، فقال رجاء: " وأخذت بضبعي عمر، فأجلسته على المنبر ،وهو يسترجع لما وقع فيه ، وهشام يسترجع لما أخطأه"، فبايعه الناس أجمعون، وكان ذلك يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة99ه[69].

[67] ا ستشار عبد الملك قبيصة بن ذؤيب في عزل أخيه عبد العزيز،فنهاه عن ذلك، واستشار روح بن زنباع الجذامي،فقال:" لو خلعته ما انتطح فيه عنزان ، فبينا هو على ذلك إذ جاءه الخبر بوفاة عبد العزيز، فقال لروح:"كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا فيه ، وما أجمعنا عليه". ثم عهد إلى ابنيه:الوليد ثم من بعده سليمان،أنظر محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية،الخضري،ج 2،ص165/ص175، 176، تاريخ اليعقوبي،ج2، ص301.

[68] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ،ابن الجوزي ،ص 78، 79،الطبقات الكبرى،ابن سعد،ج4،ص19، لم يستطع عمر القيام حين نودي على اسمه خليفة للمسلمين،استثقالا للأمر،قال السيوطي:"ولما قرئ كتاب العهد باسمه عقر"،تاريخ الخلفاء،ص 185،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص41،وما بعدها.

وقال واحد ممّن حضر هذه البيعة المباركة:" إني لحاضر يوم قرئ عهد سليمان في المسجد بدمشق على الناس، فما رأيت يوما أكثر باكيا ولا داعيا له بالرحمة من ذلك اليوم، فلم يبق محب ولا مبغض ولا خارجي ولاحروري،إلا أخذ الله له بقلوبهم، وابتهلوا بالدعاء واخلصوا له بالسؤال بالعفو من الله،ورضي الناس أجمعون فعله"،أنظر الإمامة والسياسة،لابن قتيبة،ج2،ص270.

[69] البداية والنهاية،ابن كثير،ج9،ص151، الطبقات الكبرى،ابن سعد،ج4،ص21،تاريخ الخلفاء،السيوطي،ص185.

المطلب الثاني : من الخلافة إلى الوفاة.

أشير في البداية إلى أن حديثي عن عمر بن عبد العزيز في هذا المطلب , سيقتصر على ما يتعلق بشخصه ومع أهل بيته، أمّا إصلاحاته السياسية والاجتماعية , فسوف أتناولها بعون الله في المباحث القادمة .

لقد انقلبت حياة عمر باستخلافه رأسا على عقب , فلم يتنعّم كما فعل سابقوه بلذة المال والجاه,وزخرف الحياة الدنيا , ولم يحقق لأهله ما كانوا يؤمّلونه من رغد العيش و هيبة السلطان, وإنما زهد عمر في الملك , وسخّر بقيّة عمره في إصلاح ما أفسده بنو أمية,وقد كان واحدا منهم، فأراد أن يمسح العار عن قومه [70], فيعيد الخلافة إلى سابق عهدها, واستطاع بفضل الله, وبجهاد الليل والنهار أن يذكّر الناس بسيرة الفاروق عمر رضي الله عنه .والصفحات التالية من هذا المطلب تشير إلى نفس عمر التي أكرمها المولى تعالى بالخشية والعلم والزهد , فكانت خيرا وبركة على الناس .

الفرع الأول: علمه واعتقاده.

بدأ اهتمام عمر بالعلم مبكرا , و ذلك عندما طلب من أبيه وهو لا يزال غلاما صغيرا أن يسيّره إلى المدينة المنورة ليتفقّه على علمائها و يتأدّب بآدابهم ، فتحصّل على علم كثير, حتى عدّ من المجتهدين القلائل, و لم تشغله أعباء الإمارة و الخلافة عن مجالسة العلماء والإفادة منهم . وهؤلاء أساطين العلم يشهدون له بسعة العلم, ومنهم :

– أحد أعلام المذاهب الأربعة المرموقين : أحمد بن حنبل الذي قال: "لا أدري قول أحد من التابعين حجّة إلاّ قول عمر بن عبد العزيز"[71].

– مجاهد بن جبر: أحد أكبر مفسري القرآن الكريم , حيث يدلي بشهادته في عمر فيقول: "أتينا عمر بن عبد العزيز ونحن نرى أنه سيحتاج إلينا فما خرجنا من عنده حتى احتجنا إليه" .

---

[70] عبر عن ذلك ابن عمه مسلمة بن عبد الملك ،حين قال لعمر–وهو مسجى–:"يرحمك الله، لقد لينت لنا قلوبا قاسية، وأبقيت لنا في الصالحين ذكرا"، أنظر سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز،ابن الجوزي، ص 361، وقد دافع محمود شاكر في موسوعته(التاريخ الإسلامي)،الجزء الرابع،عن بني أمية، مبينا محاسنهم التي طمسها المؤرخون خطأ أو عمدا.

[71] البداية والنهاية، ابن كثير ، ج9، ص158.

– محمد بن شهاب الزهري ,الذي دخل عليه فحدّثه بحديث كثير،فقال عمر: " ما تحدثنا شيئا إلاّ وقد سمعناه ولكنك تذكر و ننسى".

– ميمون بن مهران , الذي كان إذا تحدث عنه قال: "حدثنا عمر بن عبد العزيز معلّم العلماء"[72].

أمّا اعتقاده فكان اعتقاد سلف الأمّة من الصحابة رضوان الله عليهم ,الذي عبّر عنه بقوله: " سنّ رسول الله صلى الله عليه و سلم وخلفاؤه من بعده سننا, الأخذ بها تصديق لكتاب الله, واستعمال لطاعة الله , ليس على أحد تغييرها ولا تبديلها, ولا النظر في رأي من خالفها ، فمن اقتدى بما سبق هدي , ومن استبصر بها أبصر, ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاّه الله ما تولّى , وأصلاه جهنّم و ساءت مصيرا" [73]. وقد كان عصر عمر بن عبد العزيز يشهد بعض الفرق الاعتقادية الضالة، ومنها القدرية، فكان أهلا للردّ عليهم بعلم دقيق وخلق رصين.

– جاءه رجل يسأله عن تلك الفرق فقال له:"عليك بدين الصبّي الذي في الكتاب والأعرابي، واله عمّا سواهما"،وهنا يريد صرف العامة عن الاشتغال بمسائل الخلاف.

– وكان الناس آنذاك يتحلّقون في المسجد ،أو في أماكن خاصّة ، يتميّزون عن سائر الناس ويتدارسون أفكارا شاذّة , فكان عمر يصفهم بالضلالة ويقول: "إذا رأيت قوما يتناجون في دينهم بشيء دون العامّة فاعلم أنّهم على تأسيس ضلالة"[74].

وممّا يدلّ على سعة علمه وذوقه المعرفي، ما كان يقوله من فنون الحكمة وعيون الشّعر، ومن ذلك[75] :

* سؤاله لرجل : "من سيد قومك ؟"، فقال: "أنا" , فقال:" لو أنك كذلك لم تقله".

* قوله: "ما يسرني لو أنّ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا,لأنهم لو لم يختلفوا,لم تكن رخصة ".

* قوله لجلسائه : "من أحمق الناس؟" ، قالوا:"رجل باع آخرته بدنياه", فقال: "ألا أنبّئكم بأحمق منه؟" قالوا:" بلى" , قال: "رجل باع آخرته بدنيا غيره".

---

[72] الطبقات الكبرى،ابن سعد،ج4،ص60/ص71، سيرة ومناقب عمر،ابن الجوزي،ص50.

[73] البداية والنهاية، ابن كثير ، ج9، ص177.

[74] سيرة ومناقب عمر،ابن الجوزي،ص103، 104.

[75] المصدر السابق نفسه،ص299 وما بعدها.

* نصحه لأحد الآباء أن يعلّم ولده الفقه الأكبر,فقال:"وما الفقه الأكبر؟"، قال:" القناعة وكفّ الأذى".

* قوله–عندما تكلّم رجل بحضرته كلاما حسنا–: "هذا والله السّحر الحلال".

* قوله : " ما وجدت في إمارتي هذه شيئا ألذّ من حقّ وافق هواي".

* قوله –عندما سمع رجلا يقول لآخر: تحت إبطك–: "وما على أحدكم أن يتكلّم بأجمل ما يقدر عليه". قالوا: "وما ذاك؟", قال: "لو قال: تحت يدك , كان أجمل".

* ومن شعره الأبيات التالية :

ولا خير في عيش امرئ لم يكن له	مع الله في دار القـــرار نصـــيب
فإن تعجب الدنـــيا أناس, فإنــــها	قليل متاع[76] والــزوال قــريــب

* ومنه:

تجهّــزي بجـــهاز تبلـــغيـــن به	يا نفس قبل الرّدى,لم تخلقي عبثا

* ومنه[77]:

تلك المـــكارم لا قـــعبان[78] من لبن	شيـــبا بماء فـــعادا بعـــد أبـــوالا

*ومنه[79]:

كأن قد شهدت الناس يوم تقـــسمت	خلائقهم,فاخترت منهن أربعا:
إعارة سمع كـــل مغتـــاب صاحب	وتأبى لعيب النـّـاس إلاّ تتبـّـعا
وأعجب من هاتين أنّك تدّعي الســـ	ـــلامة من عيب الخلائق أجمعا
وأنّك لـــو حاولت فعـــل إســـاءة	وكوفئت إحسانا , جحدتهما معا

*ومنه[80]:

قـــد جاء شـــغل شـــاغـــل	وعـــدلت عن طـــرق السّـــــلامه
ذهب الفـــراغ, فلا فـــــرا	غ لـــنا,إلى يـــوم الـــقـــيـــامــــه

---

[76] قال ابن الجوزي–معلّقا–:"وصوابه:متاع قليل".

[77] ذكره بعد أن جاءته بنت الصحابي عبد الله بن زيد، فقالت:"أبي شهد بدرا، وقتل يوم أحد"، ثم قال لها: "سليني ما شئت"،فسألت فأعطاها، أنظر المصدر السابق نفسه، ص291.

[78] ج قعب:قدح عظيم، وقيل :قدح من خشب مقعر، لسان العرب، إبن منظور،ج1،ص683.

[79] كان الناس يغنّونه لحنا بالمدينة المنورة،أنظر المصدر السابق نفسه،ص292.

[80] ذكره لمّا سأله رجل أن يتفرّغ له، المصدر السابق نفسه،ص292.

*ومنه :

ومن النّاس من يعيش شقيا		جيــفة الليل غافــل اليقــظــه
فـــإذا كان ذا حــياء ودين		راقــب الله,واتَّقــى الحفظــه[81]
إنــمّا النـــاس :راحل ومقيم		فالّذي ســار للمــقيــم عظــه

*ومنه:

إنه الفؤاد عــن الصّبا[82]		وعــن انقياد للهوى
ولعمر ربـــك ,إن في		شيب المفارق واللّحى
لك واعظا إن كنت تتعـــ		ظ اتعاظ أولي النّهى
حتّى متى لا ترعوي ؟		حتّى متى,وإلى متى؟

مـــا بعد ما سمّيت كهلا		واستلبت اسم الفتى ؟
بـــلي الشباب,وأنت إن		عمّرت,رهــن للبـــلى
وكفى بذلك زاجـــــرا		للمرء عن غيّ,وكفى

الفرع الثاني: أخلاقه.

أفاد عمر من نشأته بالمدينة و تأدّبه بأدب الصحابة والتّابعين.فكسب –مع نسبه العريق– خلالا حميدة ، وصفات قلّ أن توجد في غيره: (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم)[83].

1-زهـــــده[84]:

كان أظهر شيء فيه,حين ولي الخلافة,زهده في الجاه و السلطان, ذلك أنه لمّا صلّى على سليمان , صفّت له مراكب الخلافة , فرفضها وأمر ببغلته فركبها, ثم جاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة، فقال له: "تنحّ عنّي , مالي ومالك, إنما أنا رجل من المسلمين"[85].

---

[81] الذين يحصون الأعمال ويكتبونها على بني آدم من الملائكة ، لسان العرب،ابن منظور،ج7،ص441.

[82] الصّبوة :جهلة الفتوّة واللّهو من الغزل،المصدر السابق نفسه،ج14،ص449.

[83] سورة المائدة/54.

[84] قال أبو مسلم الداراني: "كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس القرني، لأنّ عمر ملك الدنيا بحذافيرها وزهد فيها، ولا ندري حال أويس لو ملك ما ملكه عمر، كيف يكون ؟ ليس من جرّب كمن لم يجرّب"،البداية والنهاية، ابن كثير ، ج 9، ص171، وقال ملك الرّوم–حين بلغته وفاة عمر بن عبد العزيز–:"...إنّي لست أعجب من الرّاهب، أن أغلق بابه ورفض الدنيا وترهّب وتعبّد، ولكن أعجب ممّن كانت الدنيا تحت قدميه، فرفضها وترهّب"، سيرة ومناقب عمر،ابن الجوزي،ص362.

[85] الخلافة الأموية، الهاشمي،ص392.

وكانت أول خطبة له في الناس أن طلب منهم استعفاءه من الخلافة, فقال: " أيها الناس,إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه , ولا طلبة له, ولا مشورة من المسلمين, وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي , فاختاروا لأنفسكم " . فصاح الناس صيحة واحدة: " قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيناك , فل أمرنا باليمن والبركة"[86].

وزهد عمر في اللباس, فقد كان يشترى له (قبل خلافته الحلة بألف دينار , فإذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها , فلما أتته الخلافة كان يشترى له قميص بعشرة دراهم فإذا لبسه استلانه) [87].وكان الناس في الجمعة ربّما أبطأ عليهم , فإذا سئل عن سبب ذلك, أجاب بأنه لا يملك ثوبا غير الذي كان ينتظر جفافه بعد غسله[88].

وزهد عمر في الطعام والنوم حتّى نحف جسمه فقد حدّث أحد حرّاسه قال: "رأيت عمر بن عبد العزيز حين ولي– أي الإمارة– فإذا به من حسن اللون وجودة الثياب والبزّة[89], ثم دخلت عليه حين ولي– أي الخلافة– فإذا قد احترق واسودّ ولصق جلده بعظمه,حتّى ليس بين الجلد و بين العظم لحم "[90].

وكان أزهد شي فيه النساء ، ذلك أنه لما أفضت إليه الخلافة ، جمع نساءه وجواريه وأخبرهن بأنه لا حاجة له فيهن ، وخيّرهن بين البقاء أو الفراق ، فبكين لذلك أشد البكاء. وأخبرت عنه زوجته فاطمة أنه ما اغتسل من جنابة أو احتلام بعد خلافته حتى مات [91] . وكانت لفاطمة جارية غاية في الحسن والجمال ، وكان عمر– قبل ذلك – يراودها عليها، فترفض طلبه غيرة منها،فلما ولي الخلافة وعلمت زهادته في النساء ، طمعت في أن ينشط لهذا الأمر، فجاءته بها مزيّنة معطرة وأدخلتها عليه ، فرفض أن يقربها، فلما سألته: " فأين موجدتك [92] بي يا أمير المؤمنين؟"، قال:" إنّها لعلى حالها وقد ازدادت "، فلم تزل الجارية في قلبه حتى مات رحمه الله[93] .

---

[86] سيرة ومناقب عمر ، ابن الجوزي، ص84، 85.

[87] مروج الذهب،المسعودي،ج3،ص230.

[88] الطبقات الكبرى،ابن سعد،ج4،ص29.

[89] الهيئة،والبزّ:الثياب،لسان العرب،ابن منظور،ج1،ص21.

[90] سيرة ومناقب عمر ،ابن الجوزي،ص90.

[91] أمر عمر مولاه مزاحم بأن يردّ كل جارية إلى بلدها الأصلي، وقد كنّ سرايا حروب، أنظر خلفاء الرسول، خالد محمد خالد،ص705،تاريخ الخلفاء،السيوطي،ص188.

[92] الهوى والحبّ الشّديد، لسان العرب،ابن منظور، ج3،ص446.

[93] سيرة ومناقب عمر،ابن الجوزي،ص.204

وبالجملة فقد زهد الرجل في جميع متاع الدنيا، فعوضه الله عن ذلك غنى في القلب، وراحة وسعادة في النفس،عبّر عنها بقوله: "ما تركت من الدنيا شيئا إلا أعقبني في قلبي ما هو أفضل منه، وما أنعم الله عليّ في ديني أفضل"[94].

2- ورعـــــه :

كان عمر متورعا في خاصّة نفسه ، فلا يتفوّه إلا بما يرضي الله عز وجل ، ولا يأتي حراما مهما دقّ ، وكان يحاسب نفسه على اليسير والحقير ، وربما أذنب ذنبا صغيرا، فلا ينام الليل كله ، يحاسب نفسه ويعاقبها ، وكان ورعا في حق غيره ، وخاصة فيما تعلق بالمصالح العامة للأمة ، فلا ينال منها شيئا،ومما أثر عنه من الورع ما يلي:

- رغب يوما في الحج، فقال لمولاه : "إني قد اشتهيت الحج فهل عندك شيء ؟"، قال: " قد جاءنا مال من بعض مال بني مروان ". فقال:" اجعلها في بيت المال ، فإن تكن حلالا فقد أخذنا منها ما يكفينا ، وإن تكن حراما فكفانا ما أصابنا منها"[95].

- وسمعته زوجته يذكر العسل، يشتهيه، فبعثت إلى أحد الولاة ، تطلب منه العسل لأمير المؤمنين، فلما جاءه وعلم جهته ، باعه وألقى بثمنه في بيت المال ، ثم كتب إلى واليه:"وأيم الله، لئن عدت إلى مثلها لا تعمل لي عملا أبدا ، ولا أنظر إلى وجهك".

-وكان ربما أكل الأكلة ، فلما يتبيّن وجهها غير المشروع -في نظره -يقول -متأسفا-:"لو ينفع المسلمين قيء لتقيأت" .

-وكان يردّ الهدية ويقول:"إن الهدية كانت للنبي صلى الله عليه وسلم هدية، وهي لنا اليوم رشوة".

-ولما جاءته أموال الفيء[96]، وكان من بينها التفاح، تناول أحد أولاده تفاحة منها ، فانتزعها عمر من فمه بقوة حتى أوجعه ، فراح إلى أمه باكيا فاشترت له تفاحا ، وعندما رجع عمر إلى بيته، قال لامرأته: "والله لقد انتزعتها من ابني، لكأنّما انتزعتها من قلبي، ولكن كرهت أن أضيع نفسي من الله عز وجل ، بتفاحة من فيء المسلمين".

---

[94] قال إبراهيم بن أدهم:"لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النّعيم والسّرور لجالدونا بالسيوف، أيّام الحياة على ما نحن فيه", كتاب الزّهد الكبير, البيهقي ، تحقيق عامر أحمد حيدر،مؤسسة الكتب الثقافية،بيروت،ط 3، 1996م، ج2 ، ص81، سيرة ومناقب عمر،ابن الجوزي،ص200.

[95] رجال الفكر والدعوة،أبو الحسن علي الحسني الندوي،دار القلم،دمشق،ط1، 1423هـ-2003م ،ج1،ص118.

[96] الغنيمة والخراج:ما أفاء الله على المسلمين من مال الكفار،لسان العرب، ابن منظور، ج1،ص126.

-وكان من عادته إذا صلى العشاء، أن يدخل على بناته فيسلّم عليهنّ، فلمّا أحسنه ذات ليلة ، (وضعن أيديهن على أفواههن، ثم تبادرن الباب.فقال للحاضنة:ما شأنهن؟ قالت: إنه لم يكن عندهن شيء يتعشّين به إلاّ عدس وبصل،فكرهن أن تشمّ ذلك من أفواههن، فبكى عمر، ثم قال لهن: يا بناتي ما ينفعكن أن تعشين الألوان ويؤمر بأبيكن إلى النار. فبكين حتى علت أصواتهن ثم انصرف)[97].

-ولم يكن لعمر راتب من بيت مال المسلمين كما كان لجده عمر بن الخطاب، وإنما كانت له أرض بالسويداء ، تأتيه غلتها مائتا دينار،وجراب من تمر، وعندما قيل له أن عمر بن الخطاب كان يأخذ من بيت المال ، قال: "إن ابن الخطاب لم يكن له مال وأنا مالي يغنيني"[98].

-ولما راجعته زوجته في أمر النفقة ، قال:"ليس في مالي سعة"، فذكّرته بما كان يأخذه قبل ولايته من رواتب وهدايا ، فقال:" كانت المهنأة لي والإثم والتبعة عليهم ، أمّا إذا ولّيت فلا أفعل ذلك فيكون إثمه عليّ".

-وخير زوجته بين أن ترد ما أهداها أبوها من جواهر وحليّ وأثواب إلى بيت مال المسلمين ، أو أن تفارقه ، فتختار البقاء معه،رحمها الله.

-وطهّر لسانه من النيل في أعراض الغير, فقد قيل له: "ما تقول في أهل صفين؟"، قال: "تلك دماء طهّر الله يدي منها, فلا أحبّ أن أخضّب لساني بها".

-وشتم أحد جلسائه الحجاج ، فقال: "إنّه بلغني أن الرجل ليظلم المظلمة فلا يزال المظلوم يشتم الظالم وينتقصه , حتّى يستوفي حقّه , ويكون للظالم عليه الفضل" .

3- عبادته :

سئل عمر عن أول أمره بالخشية و الإنابة لله عز وجل ,فقال: " أردت ضرب غلام لي, فقال لي : يا عمر: أذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة ". وقد كان له قلب خاشع لله عز وجل منذ نعومة أظفاره

---

[97] الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص66، سيرة ومناقب عمر،ابن الجوزي،ص210 وما بعدها.

[98] سيرة ومناقب عمر ، ابن الجوزي ، ص 212 ، تاريخ الخلفاء ، السيوطي ، ص 190، قال السيوطي : " قال عمر بن الخطاب: إنّي أنزلت نفسي من مال الله منزلة والي اليتيم من ماله، إن أيسرت ا ستعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف،فإن أيسرت قضيت.وقال :مكث عمر زمانا لا يأكل من مال بيت المال شيئا،حتى دخلت عليه في ذلك خصاصة، فأرسل إلى أ صحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستشارهم، فقال: قد شغلت نفسي في هذا الأمر، فما يصلح لي منه؟ فقال عليّ : غذاء وعشاء، فأخذ بذلك عمر"، تاريخ الخلفاء، ص110 وما بعدها.

فقد (بكى وهو غلام صغير, فبلغ أمّه فأرسلت إليه فقالت: ما يبكيك؟ قال : ذكرت الموت ، فبكت أمّه)[99].

وقال مؤدّبه صالح بن كيسان: "ما خبرت أحدا, الله أعظم في نفسه من هذا الغلام".

وقال من يعرفه :"ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز، كأنّ النار لم تخلق إلاّ لهما".

وكان من عادته أن يجمع في كل ليلة الفقهاء ، فيتذاكرون الآخرة والقيامة , فيبكون أشدّ البكاء، كأنّ بين أيديهم جنازة[100].

وكان عمر كثير الدعاء والتضرع للمولى عز وجل , فمن دعائه:[101]

- "اللهم إن كنت تعلم أنّي أخاف يوما دون يوم القيامة , فلا تؤمّن خوفي ".

- "اللهم إن لم أكن أهلا أن أبلغ رحمتك , فإن رحمتك أهل أن تبلغني, فإن رحمتك وسعت كل شيء ،وأنا شيء فلتسعني رحمتك يا أرحم الراحمين".

- "اللهم إني أطعتك في أحبّ الأشياء إليك وهو التوحيد ، ولم أعصك في أبغض الأشياء إليك, وهو الكفر, فاغفر لي ما بينهما".

-"اللهم رضّني بقضائك , وبارك لي في قدرك , حتى لا أحبّ تعجيل شيء أخّرته , ولا تأخير شيء عجّلته".

- وكثيرا ما كان يقول: "اللهم سلّم سلّم".

4- حلمه :

الحلم خلق نبيل،لا يصدر إلاّ ممّن كان له قلب واسع، ونفس طيّبة، سيّما إذا صدر من صاحب القوة والسلطان،الذي يقدر على العقوبة، ولا يخشى الخصوم، فهذا علامة الشرف والسيادة .وقد وردت نصوص كثيرة في القرآن والسنة تحث على هذا الخلق النبيل،منها:

* قوله تعالى:(فاصفح الصفح الجميل)[102].

* وقوله تعالى- يصف المتقين-: (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس)[103].

---

[99] التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، ج4، ص243، بتصرف، سيرة ومناقب عمر، ابن الجوزي،ص 216،الطبقات الكبرى،ابن سعد،ج4،ص72،البداية والنهاية، ابن كثير،ج9،ص160/158.

[100] خلفاء الرسول،خالد محمد خالد،ص632،رجال الفكر والدعوة،الندوي،ج1،ص137،تاريخ الخلفاء،السيوطي، ص191.

[101] راجع فصل:(دعاؤه ومناجاته)، سيرة ومناقب عمر،ابن الجوزي، ص255 وما بعدها.

[102] سورة الحجر/85.

[103] سورة آل عمران/134.

*وقوله صلى الله عليه وسلم: <<إنّما العفو عند المقدرة>>[104] .

* وقوله صلى الله عليه وسلم: << من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه ، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، حتى يخيّره في أيّ الحور شاء>>[105].

وقد فقه سيدنا عمر بن عبد العزيز هذه النصوص وغيرها فقها تامّا، فالتزمها في نفسه ومع غيره، ولم يشأ أن يفعل ما فعله سابقوه من الخلفاء والولاة الظلمة ، الذين كانت تثيرهم الكلمة الصريحة ، وربما كان صاحبها محقا، فلا يتمها إلاّ والسيف قد سبق إلى رأسه[106] .

-كان لعمر بن عبد العزيز ولد من زوجته فاطمة ، وبينما هو يلعب مع الصبيان إذ شجّه أحدهم ، فأدخلوهما على فاطمة ، وإذا بالصوت يتعالى في البيت ، فدخل عمر وإذا بأم الصبي تقول إنه ابني يتيم، فقال لها عمر:" أله عطاء من بيت المال؟"، قالت: "لا"، ففرض له عطاء من بيت المال، فغضبت فاطمة ودعت على الصبي اليتيم وتوعدته إن عاد لمثلها ، فقال عمر:"إنكم أفزعتموه"[107].

-وغضب عمر يوما على رجل غضبا شديدا ، فجرّده وهمّ بضربه بالسوط ، ثم خلى سبيله وقرأ: (والكاظمين الغيظ والعافين عن النّاس)[108].

-وكان رجل يريد حاجته من عمر ، وخاف أن لا يصل إليه من دون الناس ، فرماه بطومار [109]، فالتفت عمر فضربه على وجهه فشجّه ، فإذا الدماء تسيل من وجهه، فقرأ الكتاب وأمر له بحاجته ولم يعاقبه بشيء.

-ونال رجل منه ، فقيل له:" ما يمنعك من الردّ عليه؟"، فقال:" إن التّقيّ ملجم "،أي: لا يتكلم بالسّوء.

---

[104] حديث مقطوع عن عمر بن عبد العزيز، أورده ابن أبي شيبة في المصنّف ، تحقيق كمال يوسف الحوت،مكتبة الرشد،الرياض،ط1، 1409هـ،ج7،ص174، رقم35088.

[105] رواه الترمذي في سننه،عن أنس، تحقيق أحمد محمد شاكر،دار إحياء التراث العربي،بيروت،ط 2،ج4،ص372،(كتاب البر والصلة-باب في كظم الغيظ)،رقم2021.

[106] من ذلك ما ذكره ابن قتيبة أن مسلم بن عقبة طلب من أهل المدينة – يوم الحرّة- أن يكونوا عبيدا ليزيد بن معاوية، يقضي في دمائهم وأموالهم وأعراضهم بما يشاء، فقال يزيد بن عبد الله بن زمعة: "إنّما نحن نفر من المسلمين، لنا مالهم وعلينا ما عليهم"، فقال مسلم :"والله لا أقبلك ولا تشرب البارد بعدها أبدا، فأمر به، فضربت عنقه"، أنظر الإمامة والسياسة،ص172.

[107] البداية والنهاية ،ابن كثير،ج9،ص165.

[108] سورة آل عمران/134.

[109] الصحيفة ، لسان العرب ، ابن منظور ، ج4 ، ص 503 .

-وقال لمن سبّه: "أردت أن يستفزني الشيطان بعزّ السلطان، فأنال منك ما تنال منّي غدا". ثم عفا عنه.

-وخرج ليلة مع حارسه، فدخل المسجد ، فمرّ في الظلمة برجل نائم فعثر به ، فرفع رأسه إليه فقال: "أمجنون أنت ؟" ، قال: "لا"، فهمّ به الحرسيّ، فقال له عمر: "مه ،إنّما سألني : أمجنون أنت؟ فقلت لا"[110].

5- تواضـــعه:

التواضع خلق حسن , يقرّب صاحبه إلى الناس , فينالون منه حاجاتهم , و يتقرب بخالص دعواتهم إلى الله عز و جل ,عكس الكبر الذي يباعد بصاحبه عن الناس , فيمقتونه

ويتعجّلون موته . قال تعالى: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا و العاقبة للمتقين)[111]. وقال:(ولا تصعّر خدّك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحبّ كل مختال فخور)[112] . وقال: (واخفض جناحك للمؤمنين)[113]. وقال صلى الله عليه وسلم: << لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر>>. قال رجل: "إنّ الرجل يحبّ أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة". قال:<< إن الله جميل يحب الجمال ،الكبر بطر الحق وغمط الناس>>[114].

من هذه المدرسة الروحية تخرّج سيدنا عمر بن عبد العزيز,ولذلك لا نعجب أن نراه -وهو ملك الدنيا آنذاك - متواضعا,سمحا قد أحبّه الناس ورضوه.

-طلب من جارية له وكان الحرّ شديدا أن تروّحه , فروّحته حتى غلبتها عيناها فنامت , فأخذ المروحة وطفق يروّحها, فلمّا استيقظت صاحت, فقال لها:"إنما أنت بشر مثلي, أصابك من الحرّ ما أصابني, وأحببت أن أروّحك مثل الذي روحتني"[115].

---

[110] سيرة ومناقب عمر،ابن الجوزي ص231 ومابعدها،بتصرف،الطبقات الكبرى،ابن سعد،ج4،ص70.

[111] سورة القصص/83 .

[112] سورة لقمان/18.قال النووي:"ومعنى تصعّر خدّك للنّاس:أي تميله وتعرض به عن الناس تكبّرا عليهم، والمرح:التبختر) ، رياض الصالحين ، قدم له وراجعه حسن تميم،نشر دار مكتبة الحياة،بيروت، ص254.

[113] سورة الحجر/ 88.

[114] رواه مسلم في صحيحه،عن عبد الله بن مسعود،ج 1،ص93،(كتاب الإيمان-باب تحريم الكبر وبيانه)،رقم 91. قال النووي:"بطر الحق:دفعه وردّه على قائله، وغمط النـــــاس:احتقارهم"،المصدر السابق نفسه،ص254.

[115] البداية والنهاية،ابن كثير،ج9،ص171.

–وعن رجاء بن حيوة قال: "سمرت ليلة مع عمر بن عبد العزيز,فاعتلّ السّراج,فذهبت أقوم أصلحه,فأمرني عمر بالجلوس,ثم قام فأصلحه,ثم عاد فجلس،فقال:قمت وأنا عمر بن عبد العزيز،وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز,ولؤم [116] بالرجل أن يستخدم ضيفه "،ولم يشأ رضي الله عنه أن يوقظ عبدا له كان عنده راقدا.

–وكان يحضر حلقات العلم في المسجد , فيأتي الرجل الغريب فلا يعرف من هو,حتى يشار إليه, فيسلّم عليه بالخلافة .

–وحدّث عنه رجل فقال :"رأيته في المدينة,وهو أحسن الناس لباساً, وأطيب النّاس ريحا,وهو أخيل الناس في مشيته, ثم رأيته بعد ذلك يمشي مشية الرهبان".

–وقيل له يوما:"جزاك الله عن الإسلام خيرا " , فقال : "لا، بل جزى الله الإسلام عنّي خيرا "[117].

6–علــوّ همتــه:

علوّ الهمة من أخلاق الكبار , الذين لا يرضون بالسفاس ف ،شأنهم شأن الطير المحلّق في الأجواء,لا ينزل إلاّ لحاجته , يلتقطها بين الفينة والفينة, ثمّ يواصل تحليقه مع الأقران,وهكذا كان شأن عمر, فلم تلهه الخلافة , ولم تغرّه زينة الحياة الدنيا , فهاهو يحدّث عن نفسه الكبيرة تلك فيقول:"إنّ نفسي توّاقة لم تعط من الدنيا شيئا إلاّ تاقت إلى ما هو أفضل منه، فلمّا أعطيت ما لا شيء فوقه من الدنيا تاقت نفسي إلى ما هو أفضل منه".أي إلى الجنّة ونعيمها الأبدي . وقال في موضع آخر:" إنّ لي نفسا توّاقة,لقد رأيتني –وأنا بالمدينة–غلام مع الغلمان,ثمّ تاقت نفسي إلى العلم,إلى العربيّة و الشّعر، فأصبت منه حاجتي وما كنت أريد , ثم تاقت نفسي إلى السلطان , إلى اللّبس والعيش والطّيب ، فما علمت أنّ أحداً من أهل بيتي , ولا غيرهم كان في مثل ما كنت فيه , ثم تاقت نفسي إلى الآخرة والعمل بالعدل ، فأنا أرجو ما تاقت نفسي إليه من أمر آخرتي"[118].

---

[116] اللئيم:الدنيء الأصل،الشحيح النفس ،لسان العرب،ابن منظور،ج12،ص530.

[117] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز،ابن الجوزي،ص226 وما بعدها،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص55.

[118] تاريخ الخلفاء ،السيوطي،ص189،سيرة ومناقب عمر ،ابن الجوزي،ص101، 102.

الفرع الثالث: مرضـــه و وفـــاتــه.

1- مرضه:

كان سبب مرضه فيما ذكرته زوجته فاطمة: الخشية من الله عزوجل[119] ,وقيل بسبب السُّل،[120]وقيل بسبب السمّ الذي وضعه له بعض أهل بيته ممّن تضرّر بولايته , ففقد كثيرا من الامتيازات غير المشروعة[121].

وكان أوّل شكواه في أوّل رجب من سنة 101ه , وظل شاكيا مدّة عشرين يوما، ولمّا ثقل بعث إليه ملك الروم– وكان محبّا له– رأس أساقفة الرّوم وأطبّهم ليعالجه ، (فلمّا نظر إليه, قال : " الرجل قد سقي السّم , ولا آمن عليه الموت", فرفع عمر بصره وقال:"ولا تأمن الموت أيضا على من لم يسق السّم!". قال:" فتعالج يا أمير المؤمنين ؟ فإنّي أخاف أن تذهب نفسك", فقال:" ربّي خير مذهوب إليه , والله لو علمت أن شفاي عند شحمة أذني, ما رفعت يدي إلى أذني فتناولته , اللّهم خر لعمر في لقائك", فلم يلبث إلا أيّاما حتى مات)[122]. وهذا وإن كان مخالفا للأخذ بالأسباب ، إلا أن عمر قد بلغ شوقه إلى الله ودار كرامته منتهاه ، فلم يرض البقاء في الدنيا ، فحقق الله رجاءه.قال صلى الله عليه وسلم:<<من أحبّ لقاء الله أحب الله لقاءه>>[123].

2- عهده ليزيد بن عبد الملك :

كان سليمان قد عهد –بعد عمر بن عبد العزيز – ليزيد بن عبد الملك , خشية الاختلاف والفتنة , فلم يجد عمر بدّا من الوفاء بما اؤتمن عليه،فكتب بعهده ليزيد وإن كان رأيه أن يلي أمر المسلمين

---

[119] المصدر السابق نفسه،ص345،وقال محمد بن سعد:"وقيل وجدوا في بعض الكتب:تقتله خشية الله"،الطبقات الكبرى،ج4،ص76

[120] البداية والنهاية،ج9،ص172.

[121] قال اليعقوبي:"وقيل إن أهل بيته سمّوه،خوفا من أن يخرج الأمر منهم"،تاريخ اليعقوبي،ج 2،ص308،وذكر محمد بن عبد ربه أن يزيد بن عبد الملك هو الذي سمّه بوا سطة خادم عمر ، أنظر العقد الفريد،محمد بن عبد ربه،شرح وضبط وتصحيح أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري،دار الكتاب العربي،بيروت،1403هـ–1983م، ج4 ، ص439.

[122] البداية والنهاية،ابن كثير،ج9،ص172،سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، ابن الجوزي ، ص346،الخليفة العادل ، ابن عبد الحكم،ص119.

[123] رواه البخاري في صحيحه،عن عبادة بن الصامت،ج5،ص2386،(كتاب الرقاق–باب طلوع الشمس من مغربها)،رقم.6142

غيره.قال:"لو كان إليَّ أن أعهد ما عدوت أحد رجلين:صاحب الأعوص-يريد إسماعيل بن عمرو[124]-، أوأعمش بني تميم – يريد القاسم بن محمد-"[125].

وممّا جاء في عهده ليزيد قوله:"...عليك بتقوى الله والرّعيّة الرّعيّة , فإنّك لن تبقى بعدي إلاّ قليلا حتى تلحق باللّطيف الخبير، والسّلام)[126].

3- عمر يكل أولاده لله عز وجل :

كان لعمر بن عبد العزيز ستة عشر ولدا [127] ، ولمّا مرض جاءه مسلمة بن عبد الملك [128] يستوصيه في أولاده، فلما نظر إليهم بكى، ثم قال لمسلمة:"يا أبا سعد ، إنّما ولدي على أحد أمرين: إمّا عامل بطاعة الله فلن يضيّعه الله ،وإمّا عامل بمعصية الله فلا أحبّ أن يعينه بالمال"[129].

وكان حين ولي الخلافة يملك من الأموال أربعين ألف دينار، فترك ذلك كله ، حتى لم يبق له دخل سوى أربعمائة دينار في كل سنة، على خلاف بعض الحكّام الذين يدخلون الإمارة فقراء ، فيخرجون منها أثرياء مترفين[130].

4- وصيّته قبل موته :

أوصى رحمه الله صاحبه الوفيّ ، رجاء بن حيوة ، إذا وضعه في قبره، أن يرى إلى وجهه ، فإن وجده قد حوّل إلى غير القبلة أن يخرج إلى المسلمين ، ما داموا على لحده ، فيطلب منهــم العفــو

---

[124] هو إسماعيل بن عمرو بن سعيد الأشدق،كان ناسكا وعاش إلى دولة بني العباس،من جلّة أهل المدينة،كان له قصر بالمدينة،تهذيب التهذيب ، ابن حجر ، ابن حجر العسقلاني،دار الفكر،بيروت،ط1، 1404هـ-1984م، ج1 ، ص279 ، قال ابن الجوزي :"وكان يسكن الأعوص في شرقي المدينة على بضعة عشر ميلا،وكان له فضل كبير"، سيرة ومناقب عمر ، ص 348 .

[125] هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق،أبو محمد:أحد الفقهاء السبعة في المدينة.ولد فيها عام 37ه،وتوفي بقديد -بين مكة والمدينة-حاجّا أو معتمرا عام107ه.وكان صالحا ثقة من سادات التابعين، عمي في أواخر أيامه.قال ابن عيينة:"كان القاسم أفضل أهل زمانه"،الأعلام،الزركلي،ج5،ص181.و(لما بلغه قول عمر،قال :"إن القاسم ليضعف عن أهيله:فكيف يقوم بأمر أمّة محمد!")،الطبقات الكبرى،ابن سعد،ج4 ، ص26 ، سيرة و مناقب عمر ، ابن الجوزي ، ص348 .

[126] راجع سياق ما كتبه ليزيد في مرضه في مناقب عمر لابن الجوزي ، ص 346 و ما بعدها .

[127] و ذكر ابن قتيبة أنهم كانوا أربعة عشر ولدا ، أنظر الإمامة و السياسة ، ص 276 .

[128] هو مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم:أمير قائد،من أبطال عصره،يلقّب بالجرادة الصّفراء.له فتوحات مشهورة.بنى مسجد"مسلمة"بالقسطنطينية سنة96ه،ولاّه أخوه يزيد إمرة العراقين ثم أرمينية.وغزا الترك والسند سنة 109ه،ومات بالشام،عام120ه.قال الذهبي:"كان أولى بالخلافة من سائر إخوته"،الأعلام ،الزركلي،ج7،ص224.

129 الإمامة والسياسة،ابن قتيبة،ص276،وذكر ابن كثير أنّ بعض أولاد سليمان بن عبد الملك كان يتعاطى ويسأل من أولاد عمر بن عبد العزيز،أنظر البداية والنهاية،ج9،ص172،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص118.

[130] عمر بن عبد العزيز -الرا شد المجدد- ، يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة،القاهرة،ط1، 1422هـ-2001م، ص18.

عنه،فلما وضعه في قبره وجده كالقمر المتلألئ،(وإذا على صدره صكّ فيه خط ليس من كتابة الآدميين:بسم الله الرّحمن الرّحيم،كتاب بالقلم الجليل،من العزيز العليم،براءة لعمر بن عبد العزيز من العذاب الأليم).وقد أوصى أيضا أن يوضع في كفنه شعر من شعر النّبيّ صلى الله عليه وسلّم وأظفار من أظفاره تبرّكا بها.

وقيل أنه ساوم نصرانيا في موضع قبره ، فتنازل له عن الثمن وقال:"والله يا أمير المؤمنين إنّي لأتبرّك بقربك وبجوارك ، فقد أحللتك ". فأبى عمر إلا أن يبيعه ، فباعه إياه بثلاثين دينارا.

ولمّا عرض عليه أن يدفن في المدينة المنورة بجنب النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، قال: "والله لئن يعذبني الله بكل عذاب-إلاّ النار، فإنّي لا صبر لي عليها – أحبّ إليّ من أن يعلم الله من قلبي أنّي أراني لذلك أهلا"[131] .

5- الرّمق الأخير :

لمّا حضرت عمر الوفاة ، طلب من أهله أن يتركوه ، فخرجوا عند الباب(فسمعوه يقول:"مرحبا بهذه الوجوه ، ليست بوجوه إنس ولا جان" ، ثم قال :(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) [132] . ثم هدأ الصّوت، فدخلوا فوجدوه قد قبض رضي الله عنه) ، وألفوه قد استقبل القبلة ، وأغمض عينيه ووضع إحدى يديه على فيه ، والأخرى على عينيه[133].

وكانت وفاته يوم الخميس بحمص، بموضع يدعى دير سمعان [134]، لعشر بقين من رجب، سنة 101ه، وكان عمره حين مات تسعا وثلاثين سنة وأشهرا ، ومكث في الخلافة(سنتين وخمسة أشهر: نحو خلافة الصّدّيق رضي الله عنه ، ملأ فيها الأرض عدلا، وردّ المظالم، وسنّ السنن الحسنة) ، وصلّى عليه مسلمة بن عبد الملك ، وقيل بل يزيد بن عبد الملك.

---

[131] سيرة و مناقب عمر ، ابن الجوزي ، ص 351، 352، الإمامة و السياسة ، ابن قتيبة ، ص 277، الطبقات الكبرى،ابن سعد،ج4 ،ص76/ ص78 .

[132] سورة القصص/83.

[133] تاريخ الخلفاء ، السيوطي ، ص 196،الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ج4 ، ص78،الخليفة العادل ، ابن عبد الحكم ، ص119.

[134] دير بنواحي دمشق في موضع نزه و بساتين محدقة به و عنده قصور و دور و عنده قبر عمر بن عبد العزيز ، معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، ج 2 ، ص 517 .

وقيل أنّ الشّهداء استأذنوا ربّهم في الحضور لجنازته. وعرف بعضهم موته ، بالرغم من تنائي الديار عنه بعلامة ، وهي أن الذّئب عدا على الشّاة ، وكان لا يقربها مدّة خلافته[135] .

وهكذا مضى الرّجل الكريم إلى ربّه ، وقد ذكّر النّاس بسيرة الفاروق جدّه ، ورضي الناس كلّهم حكمه ، وعظّموا أمره حيّا وميّتا[136] .

6- تأبين الناس له:

* لمّا جاء خبر نعيه الحسن البصري، قال:"إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، يا صاحب كلّ خير".

* ولمّا بلغ ملك الرّوم موته،قال:"مات الرجل الصّالح(...)لأحسب أنّه لو كان أحد يحيي الموتى بعد عيسى بن مريم ، لأحياهم عمر بن عبد العزيز".

* ولما سمع بموته أحد الرهبان ذرفت عيناه وترحّم عليه ، فسأله مجاهد بن جبر:"لم تترحّم عليه وليس هو على دينك ؟" ، فقال : " إنّي لا أبكي عليه ، ولكن أبكي على نور كان في الأرض فطفئ".

*ودخل الفقهاء على زوجته فاطمة يعزونها ، (فقالوا لها: "جئناك لنعزّيك بعمر، فقد عمّت مصيبته الأمّة ، فأخبرينا يرحمك الله عن عمر، كيف كانت حاله في بيته ؟ ، فإنّ أعلم الناس بالرجل أهله". فقالت:" والله ما كان عمر بأكثركم صلاة ولا صياما ، ولكنّي والله ما رأيت عبدا لله قطّ كان أشدّ خوفا لله من عمر ، والله إن كان ليكون في المكان الذي ينتهي إليه سرور الرّجل بأهله ، بيني وبينه لحاف ، فيخطر على قلبه الشّيء من أمر الله ، فينتفض كما ينتفض طائر وقع في الماء،ثم ينشج،ثم يرتفع بكاؤه حتّى أقول:والله لتخرجنّ نفسه،فأطرح اللّحاف عنّي وعنه،رحمة له وأنا أقول:يا ليتنا كان بيننا وبين هذه الإمارة بعد المشرقين،فو الله ما رأينا سرورا منذ دخلنا فيها")[137].

---

[135] البداية والنهاية،ابن كثير،ج9،ص173،174،تاريخ الخلفاء،السيوطي،ص184،185، سيرة ومناقب عمر،ابن الجوزي ، ص 357،العقد الفريد ، ابن عبد ربه،ج4،ص440،الإمامة و السياسة ، ابن قتيبة ، ص 135وما بعدها/ص277 .

[136] قال المسعودي:"وقبره مشهور في هذا الموضع – أي دير سمعان – إلى هذه الغاية ، معظم يغشاه كثير من الناس ، من الحاضرة و البادية ، لم يتعرض لنبشه فيما سلف من الزمان ، كما تعرض لقبور غيره من بني أمية "، مروج الذهب ، ج 3 ، ص 225 .

[137] الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ج 4 ، ص80.

*وقال الفرزدق يرثيه[138] :

أقــول لمّا نعى النّاعــون لي عمرا   لقد نعيتم قوام الحق والـــــدين
قد غيّب الرّامسون[139] اليوم إذ رمسوا   بدير سمعان قسطاس الموازين

*وقال جرير[140] :

ينعى النّعـــــــاة أمير المؤمنين لنا   يا خير من حج بيت الله واعتمرا
حمّلت أمرا عظيمـــا فاضطلعت به   وسرت فيه بأمــر الله يا عمــرا
الشمس كاسفة ليست بطالعــــــة   تبكـــي عليك نجوم الليل والقمرا

*وقال الشّريف الرّضي[141]:

يا ابن عبد العزيز لو بكت العين   فتـــى من أمـــيّة لبــكيتــك .

---

[138] مروج الذهب ، المسعودي ، ج3 ، ص240 ،241 .
[139] من رمس:إذا دفن و قبر ، لسان العرب، ابن منظور ، ج6 ، ص102 .
[140] البداية و النهاية ، ابن كثير ج9 ، 173 .
[141] الأعلام،الزركلي،ج5،ص50.

المبحث الثاني : عصر عمر بن عبد العزيز.

المطلب الأول : الحياة السياسية.

كان العرب قبل الإسلام يعيشون حالة من الجهل و التخلف و الصراع , الأمـــر الـــــذي أطمع فيهم دولـــتا الفرس و الروم , اللتان اقتطعتا كثيرا من الأراضي العربية آنذاك ,فأصبحت القبائل العربية منقسمة إلى ثلاثة أقسام: قسم موال لدولة الفرس,وقسم موال لدولة الروم,والقسم الثالث حكم بسلطان القبيلة, التي يتزعمها الأشراف والسادة من الحكام والأغنياء ,ويخدمهم بطبيعة الحال السفلة و العبيد ومن لا شأن لهم[142] .

ولما بزغ فجر الإسلام , تغيرت الأرض غير الأرض,وتبدل حال الناس,وظهرت ثقافة جديدة لحمتها المحبة و الأخوة و سداها العز و السيادة , ففي ظرف وجيز استطاع تلامذة محمد صلى الله عليه و سلم أن يتغلبوا على القوتين العظميين آنذاك,ويبسطوا نفوذهم على أرض الله, فتحقق بذلك وعد الله عز وجل لهم بالنصر و التمكين: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم و ليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)[143].

وعندما اتسعت دائرة الدولة الإسلامية ودخل كثير من النحل والأمم إلى دين الإسلام , حمل كثير منهم رواسب الديانات و العقائد التي كانوا يعتقدونها, وربما كان ذلك بدافع الحقد على الإسلام , فأثّر ذلك مع الزمن في جمهور المسلمين , و فتحت أبواب الفتن على أمة الإسلام , وقتل الخلفاء الراشدون الثلاث: عمر و عثمان وعلي رضوان الله عليهم , بموجب تلك الفتن[144].

---

142 راجع موضوع الأوضاع السياسية والدينية والاجتماعية للعرب قبل الإسلام في كتاب:محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية- الدولة الأموية- للشيخ محمد الخضري بك،ج1،(المحاضرتان: الثانية والثالثة).

143 سورة النور/55.

144 سأل عمر رضي الله عنه حذيفة بن اليمان عن الفتن التي تموج كموج البحر، فقال حذيفة:"مالك ولها يا أمير المؤمنين؟إن بينك وبينها بابا مغلقا"،قال:" أفيكسر الباب أم يفتح ؟" ، قال: " بل يكسر"، قال: "ذلك أحرى ألاّ يغلق أبدا"، وكان الباب هوعثمان بن عفان رضي الله عنه ،فعندما قتل أبو لؤلؤة المجوسي عمرا بن الخطاب رضي الله عنه، فتح باب الفتن على مصراعيه،وكان أوّل ضحاياه الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه،أنظر ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، رسالة دكتوراه من إعداد سفر بن عبد الرحمان الحوالي ، إشراف محمد قطب،1446هـ-1986م، ج1، ص 82.

ومن أهم المسائل التي شكلت محور الخلاف بين الصحابة و من بعدهم: مسألة الإمامة.
فما مفهومها وما جذورها وما الآثار المترتبة على الخلاف حولها ؟

الفرع الأول : الخلاف حول الإمامة :

1- مفهوم الإمامة : لغة : مِنْ أَمَّ (أَمَمْتُ) يؤمُّ إمامة و أَمًّا آمٌّ :- القومَ وبهم : تقدمهم وصلى بهم إمامًا.

إمامة:1/ مصدر أَمَّ,2/ رئاسة المسلمين,3/ منصب الإمام ،و(الإمام كل من ائتمّ به قوم،أي استنّ واهتدى وتبع، والإمام رئيس القوم) .

اصطلاحا: هي:"رياسة عامة في أمور الدين والدنيا , نيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم"[145].

وإن نصب الإمام في الإسلام واجب (ولقد اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الإمامة و فرضيتها) [146].

والإمامة منصب خطير , وشأنها عظيم , والنفوس بطبعها تتطلّع و تتشوّف إليها. قال عبد الرحمان بن خلدون: " ثم إن الملك منصب شريف ملذوذ ، يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية ، والملاذ النفسانية ، فيقع فيه التنافس غالبا، وقلّ أن يسلّمه أحد إلى صاحبه،إلا إذا غلب عليه ، فتقع المنازعة وتفضي إلى الحرب والقتال والمغالبة"[147].

وربما زادت القبلية والعصبية , واختلاف الأفكار والعقائد من حدّة الصراع عليها،
(وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة ، إذ ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلّ على الإمامة في كل زمان)[148].

---

[145] الأحكام السلطانية و الولايات الدينية،ابن حبيب الماوردي ،تحقيق سمير مصطفى رباب،المكتبة العصرية،بيروت،لبنان،ط1، 1421هـ-2000م ،ص13. المعجم العربي الأساسي، تأليف وإعداد مجموعة من كبار اللغويين العرب ، ،نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،1989م، ص108، لسان العرب، ابن منظور ، ج12، ص25.

[146] الإسلام وأوضاعنا السياسية،عبد القادر عودة ، دار الزيتونة للإعلام والنشر،باتنة،الجزائر، ص125،والمرجئة هنا مرجئة أهل السنة،الذين أرجؤوا أمر المتقاتلين في صفين والجمل إلى الله تعالى، ويقول الدكتور موسى لقبال: " وحسم فريق من المسلمين-وهم النجدات من الخوارج- المشكلة بآراء سلبية تتمثل في عدم ضرورة نصب إمام يدير شؤون المسلمين، مادام لكل واحد منهم عقل ينير له الحياة)، تاريخ المغرب الإسلامي ، دار هومة،الجزائر،2002م، ص 170.

[147] المقدمة ، عبد الرحمان بن خلدون ، دراسة أحمد الزغبي،دار الأرقم،بيروت، ص 184.

[148] الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، دار المعرفة،بيروت،1403هـ-1983م،ج1،ص21، 22.

2- جذور الخلاف حول الإمامة :

كان أول شيء اختلف فيه المسلمون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه و سلم: موضوع الإمامة (وذلك أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما قبضه الله عز وجل, ونقله إلى جنته و دار كرامته, اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعد ة [149] بمدينة رسول الله صلى الله عليه و سلم, وأرادوا عقد الإمامة لسعد بن عبادة , وبلغ ذلك أبا بكر وعمر , فقصدا نحو مجتمع الأنصار , في رجال من المهاجرين , فأعلمهم أبو بكر أن الإمامة لا تكون إلا في قريش , واحتجّ عليهم بقول النبي صلى الله عليه و سلم: << الإمامة في قريش >> [150] ، فأذعنوا لذلك منقادين , ورجعوا إلى الحق طائعين) .

وحدث هذا بعد أن كادت تقع فتنة بين المهاجرين والأنصار , ذلك أن الأنصار قالوا للمهاجرين: "منّا أمير و منكم أمير", فكان ردّ أبي بكر: "نحن الأمراء وأنتم الوزراء"[151].ولقد بلغ بأحد الصحابة و هو الحباب بن المنذر[152] أن جرّد سيفه , وأراد أن يعلنها حربا لا هوادة فيها ,وهو يقول : " أنا جذيلها المحكّك, وعذيقها المرجّب , من يارزني ؟! "[153].

ولم يكن – في الحقيقة – هذا إلا مجرد كلام , سرعان مازال أثره , وانتصرت بعد ذلك الحكمة وقوة الإيمان والمحبة التي زرعها الرسول الكريم صلى الله عليه و سلم في قلوب الصحابة , فلم تسجل بحمد الله أي مخالفة شرعية , بل سارع الناس إلى بيعة الصديق،راضية بذلك نفوسهم ,

---

149 قوم من الأنصار، من قبيلة الخزرج، وسقيفتهم في المدينة، بمنزلة دار الندوة التي كانت في مكة، أنظر مقالات الإسلاميين ، أبو الحسن الأشعري ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،دار الحداثة،ط2، 1405هـ–1985م،ج1،ص39.

150 حديث << الإمامة في قريش>>، ورد بلفظ: << إن هذا الأمر في قريش ، لا يعاديهم أحد إلاّ كبّه الله على وجهه ما أقاموا الدين>>، رواه البخاري عن معاوية ج3،ص1289،(كتاب المناقب–باب مناقب قريش)،رقم 3309.

151 مقالات الإسلاميين،الأشعري،ص39 وما بعدها،وأنظر الأحكام السلطانية، الماوردي، ص15.

152 هو الحباب بن المنذر بن الجموح،الأنصاري ثم السّلمي:صحابي،من الشجعان الشعراء،يقال له:"ذوالرأي"،وهو الذي أشار على الرسول صلى الله عليه وسلم يوم بدر،وكانت له في الجاهلية آراءمشهورة، مات في خلافة عمرنحو20ه، وقد زاد على الخمسين،الأعلام، الزّركلي ، ج2 ، ص163.

153 (هذه الجملة تضرب مثلا لمن يعتمد على رأيه، و يتمسك بمبدئه، و الجذيل ، تصغير جذل بكسر الجيم وسكون الذّال وهو النّخلة بحملها ، المرجب : اسم المفعول من قولهم :"رجب النخلة ترجيبا " ، إذا بنى حولها دكانا تعتمد عليه، وذلك إنما يصنع إذا كثر ثمرها حتى خيف أن تسقط منه ، ولم يرد بالتصغير في الموضعين إلاّ للمدح) ، مقالات الإسلاميين، الأشعري ، ص41.

وهم يقولون : "رضيه رسول الله صلى الله عليه و سلم لديننا, فكيف لا نرضاه لدنيانا"[154].

وهم يشيرون بذلك إلى استخلاف الرسول صلى الله عليه و سلم – في مرض موته – لأبي بكر للصلاة بالناس،(قالت عائشة رضي الله عنها : لما استعِزّ برسول الله صلى الله عليه و سلم – أي غلبه المرض و اشتدّ به – قال:<< مروا أبا بكر فليصلّ بالناس>>.قلت:" يا نبي الله , إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت , كثير البكاء إذا قرأ القرآن". قال:<< مروه فليصلّ بالناس >>. فعدت بمثل قولي، فقال: << إنكن صواحب يوسف ، فمروه فليصلّ بالناس >>. فو الله ما أقول ذلك إلا أني كنت أحب أن يصرف ذلك عن أبي بكر, وعرفت أن الناس لا يحبون رجلا قام مقامه أبدا و أن الناس سيتشاءمون به في كل حدث كان , فكنت أحب أن يصرف ذلك عن أبي بكر) [155].

والحق أن الصحابة راودوا الرسول صلى الله عليه و سلم في أمر الخلافة , في مرض موته , فلم يشأ أن يعين خليفته , لخوفه من عدم الالتزام بطاعته , فيحلّ على العصاة منهم العذاب . فعن حذيفة بن اليمان ، قال : " قالوا يا رسول الله ألا تستخلف علينا؟ قال:<< إني إن أستخلف عليكم فتعصون خليفتي , ينزل عليكم العذاب >>" [156].

ولقد روى البخاري بإسناده–في الصحيح– عن عبد الله بن عباس ، قال :" لمّا اشتدّ بالنبي صلى الله عليه وسلم مرضه الذي مات فيه قال: << هلمّ أكتب لكم كتابا لا تضلّوا بعده >> ، فقال عمر:" إن رسول الله قد غلبه الوجع ، حسبنا كتاب الله "، وكثر اللغط ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :<< قوموا عني،ولا ينبغي عندي التنازع >>[157] ، قال ابن عباس :" الرزيّة [158] كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله ".

---

[154] سأل عمر بن عبد العزيز الحسن البصري –رضي الله عنه– إن كان رسول الله صلى الله عليه و سلم قد ا ستخلف أبا بكر أم لا. فقال:" إي والذي لا إله إلا هو،ا ستخلفه، وهو كان أعلم بالله تعالى وأتقى لله تعالى، من أن يتوثّب عليهم لو لم يأمره"، أنظر الإمامة والسياسة ، ابن قتيبة الدينوري ، ص133، قال عليّ – كرم الله وجهه–: " نظرنا في أمرنا فوجدنا النبي صلى الله عليه و سلم قد قدم أبا بكر في الصلاة، فرضينا لديننا عمّن رضي رسول الله صلى الله عليه و سلم عنه لديننا ، فقدمنا أبا بكر " ، أنظر تاريخ الخلفاء ، جلال الدين السيوطي ، ص60.

[155] تهذيب سيرة ابن هشام ، عبد الســــلام هارون ، مؤسسة الرسالة،بيروت،ط24، 1417هـ–1996م، ص 307، 308.

[156] رواه الهيثمي في مجمع الزوائد ، دار الكتاب العربي،بيروت،ط1، 1407هـ،ج5،ص176،(كتاب الخلافة–باب الخلفاء الأربعة).

[157] ج1،ص54،(كتاب العلم–باب كتابة العلم)،رقم114.

[158] المصيبة، والجمع أرزاء والرزايا، لسان العرب، ابن منظور،ج1، ص86.

ولم يأت أبا بكر أجله إلا و قد عهد لعمر بن الخطاب بالخلافة , التي رضيها كل المسلمين.(روي عن أبي بكر أنه قال: "..إني قد عهدت عهدا أفرضيتم به ؟ "، فقال علي بن أبي طالب : " لا نرضى إلا أن يكون عمر")[159] .

ولما طعن عمر و هو يصلي بالناس إماما , في صلاة الفجر ،وشعر يدنوّ أجله , كلمه البعض في العهد لابنه عبد الله فرفض ذلك ، وإنما رضي بحضوره مجلس الشورى [160]، الذي عيّنه ليساهم بنصحه في اختيار من يصلح للخلافة،ويعتبر تعيين هذا المجلس نوعا من العهد بالخلافة،ولذلك قال عمر:"إن تركت فقد ترك من هو خير مني-يقصد بذلك رسول الله-، وإن عهدت فقد عهد من هو خير مني-يقصد أبا بكر". فاختاروا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، (وسكن الخلاف في مدة أبي بكر و عمر وأكثر خلافة ذي النورين عثمان رضي الله عنه ، لأن شخصية أبي بكر و عمر و ما أخذ عمر المسلمين به من عطف و عدل و حزم , كان لها الأثر في منع الفتن من أن تظهر , والخلافات من أن تنبثق , وفوق ذلك شغل المسلمون بالجهاد في سبيل الله والتعاون في تدبير الأموال لتلك الفتوح التي اتسعت بها رقعة الحكم الإسلامي , ولذلك لم يحفظ التاريخ شيئا من الجدل حول الخلافة طوال مدّة أبي بكر و عمر و شطرا من خلافة عثمان، حتى جاءت الفتن في عهد الخليفة الشهيد عثمان رضي الله عنه)[161] .

وكان من أسباب تلك الفتن ما قدمه عثمان لأقاربه من امتيازات , إما بتوليتهم المناصب الكبرى ، أو بتخصيصهم بالمال واستغلال النفوذ . والحق أن شخصية عثمان بن عفان , المتسمة بالحياء والوقار بالإضافة إلى شيخوخته، قد انطلتا على سياسته , فلم يأخذ ولاته بالشدة و الحزم , كما كان يفعل عمر بن الخطاب[162].

---

[159] البيعة في الفكر السياسي الإسلامي ، محمود الخالدي، شركة الشهاب،باتنة،1988م، ص165.

[160] أصحاب الشورى هم العشرة المبشرين بالجنة، وقد ذكرهم حديث الرسول صلى الله عليه و سلم : <<أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة و عثمان في الجنة و علي في الجنة و طلحة في الجنة و الزبير في الجنة و عبد الرحمان بن عوف في الجنة و سعد بن أبي وقاص في الجنة وسعيد بن زيد في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة>>، أربعون حديثا،علي بن الحسن بن هبة الله ، تحقيق مصطفى عاشور ، مكتبة القرآن ، القاهرة ، ط1، ص71، 72، تاريخ الخلفاء ، السيوطي، ص06.

قال ابن كثير:"...ومن تمام ورعه لم يذكر في الشورى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، لأنه ابن عمه، خشية أن يراعى فيولّى لكونه ابن عمه، فلذلك تركه "،البداية والنهاية ،عماد الدين أبو الفداء ا سماعيل بن كثير،ج7،ص117.

[161] تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة و العقائد وتاريخ المذاهب الفقهية ، محمد أبو زهرة ، ص25.

[162] من ذلك:(أنه عزل عن ولاية الكوفة الصحابي الجليل أبا موسى الأشعري وعيّن مكانه عبد الله بن عامر،وكان ابن خاله ، وعزل الصحابي عمرو بن العاص عن مصر وولّاها أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن السرح ، ومن ذلك ما أعطاه لمروان بن الحكم – و كان من ذوي قرباه – وكان خمس مال غنيمة إفريقية : 500ألف دينار) ، الخلافة والملك ، أبو الأعلى المودودي ، ص64.

ولما ثار الثوار على عثمان وحاصروا بيته , بعثوا إليه عليا بن أبي طالب ليحدثه بحاجتهم , فدخل عليه ينصحه ويقول: " الناس ورائي وقد كلموني فيك , والله ما أدري ما أقول لك , ولا أعرف شيئا تجهله , ولا أدلك على أمر لا تعرفه , إنك لتعلم ما أعلم , ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه , ولا خلونا بشيء فنبلغكه , وما خصصنا بأمر دونك، وقد رأيت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمعت منه ونلت صهره ، وما ابن أبي قحافة بأولى بالعمل بالحق منك ،ولا ابن الخطاب بأولى شيء من الخير منك.."[163].

ولما أن بالغ عليّ في الثناء عليه , و ذكر أياديه البيضاء على الإسلام و المسلمين , بدأ يرهبه بعذاب الله و نقمته , إن هو ترك عمّاله وولاته المغضوب عليهم من الرعية ولم يعزلهم , فقال: " و إني أحذرك الله وسطوا ته ونقماته , فإن عذابه شديد أليم , وأحذّرك أن تكون إمام هذه الأمة الذي يقتل فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة , ويلبّس عليها أمورها , ويتركها شيعا لا يبصرون الحق لعلوّ الباطل، يموجون فيها موجا , ويمرجون فيها مرجا"[164].

فما كان من عثمان إلا أن تعلّل له , بأنه إنما أبقى فقط على من ولاّهم عمر كالمغيرة بن شعبة ومعاوية , فرد عليه عليّ بأن معاوية قد استأثر بالشام من دونه، وأنّه إنما يقتطع الأمور بدون الرجوع إليه و استشارته , مع علمه به , فلا ينكر عليه , ثم خرج علي من عند عثمان, فخرج عثمان على إثره و صعد المنبر ,وخطب الناس خطبة فيها شيء من الوعيد و التهديد , ومما جاء فيها قوله : "...و لقد أعددت لكم أقرانا, وأفضلت عليكم فضولا, و كشرت لكم عن نابي, وأخرجتم مني خلقا لم أكن أحسنه , ومنطقا لم أنطق به , فكفوا عني ألسنتكم وعيبكم وطعنكم على ولاتكم"[165].

ولكن عبثا حاول سيدنا عثمان أن يهدئ من ثورة الناقمين, فما هي إلا أيام بعد حصاره في بيته حتى وثبوا عليه فقتلوه . وبذلك ساءت أحوال الأمة الإسلامية , وفتحت عليها أبواب الفتن من كل

[163] مقالات الإسلاميين ، الأشعري ، ص52.

[164] مرج أمره يمرجه : ضيّعه ، يرسل ويترك ، مرج الدّابّة: إذا أرسلها ترعى في المرج ، لسان العرب، ابن منظور ، ج 2 ، ص365، مقالات الإسلاميين، الأشعري، ص52.

[165] ذكر المودودي قول ابن كثير : " والصواب أن الذي جمع لمعاوية الشام كلها عثمان بن عفان ، وأما عمر فإنه إنما ولّاه بعض أعمالها " ،أنظر الخلافة و الملك، ص64، مقالات الإسلاميين، الأشعري، ص 53.

الجهات , فوقعت معركتا صفين والجمل ، اللتين وقع فيهما كثير من القتلى, وكان على رأس المقتولين عمار بن ياسر رضي الله عنه[166].

ولم يلبث خليفة المسلمين عليّ رضي الله عنه , إلا يسيرا حتى قتل من طرف أحد الخوارج , ويدعى عبد الرحمان بن ملجم الذي طعنه وهو خارج إلى صلاة الفجر. وبايع الناس بعد ذلك الحسن بن علي بالكوفة, وبالمقابل بايع أهل الشام معاوية ببيت المقدس, وتجهز الطرفان للقتال , إلا أن معاوية بعد ذلك كره قتال الحسن, فبعث إليه يطلب منه الصلح ، على أن تكون له الخلافة بعده ، فرضي بذلك وقام في الناس خطيبا فقال: " الحمد الله الذي هدى بنا أولكم , وحقن بنا دماء آخركم , ألا إن أكيس الكيس التقى, وأعجزالعجزالفجور, وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية , إما أن يكون أحقّ به مني , وإماأن يكون حقيّ[167] , فتركناه لله و لصالح أمة محمد صلى الله عليه و سلم وحقن دمائهم , ثم التفت إلى معاوية فقال: (وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين)[168]، ثم نزل"[169].ودخل معاوية الكوفة عام 41 ه ,وبايعه الحسن والحسين ومن ورائهما أهل العراق,إلا الخوارج فقد امتنعواعن مبايعته , وسمي ذلك العام بعام الجماعة، لاجتماع الناس فيه على إمام واحد[170].

وبهذا يكون معاوية رضي الله عنه أول ملك يؤسس للمملكة الأموية , التي عاشت مدة اثنتين وتسعين سنة (41 ه – 132 ه)[171].

---

166 أنظر تفصيل خبر المعركتين في (تاريخ الأمم والملوك) ، لمحمد بن جرير الطبري ، ج 3، ص11 وما بعدها ، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل عمّار بن ياسر في موقعة صفين، فقال : << ويح عمّار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونهم إلى النار>>، رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري ،ج 1،ص172،(أبواب المساجد–باب التعاون في بناء المسجد)، رقم436.

167 لما استشار الناس عليّا في تولية ابنه الحسن ، قال : " لا آمركم ولا أنهاكم "، أنظر مروج الذهب و معادن الجوهر لأبي الحسين بن علي المسعودي ، ج2، ص500.

168 سورة الأنبياء/111.

169 الخلافة الأموية ، عبد المنعم الهاشمي ، ص21.

170 معاوية بن أبي سفيان ، بسّام العسلي ، دار النفائس،بيروت،ط6، 1406هـ–1986م، ص97، وقد ورد بهذا الشأن حديث أبي بكرة ، قال صلى الله عليه و سلم: << ابني هذا سيّد ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين>>،رواه البخاري،ج2،ص962،(كتاب الصلح–باب قول النبي صلى الله عليه وسلم للحسن بن علي: ابني هذا سيد)، رقم2557.

171 قال معاوية : " أنا أوّل الملوك" ، تاريخ اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب ، ج 2، ص332، ولعل معاوية هنا يشير إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم:<<الخلافة ثلاثون عاما، ثم يكون ملكا>>، رواه الحاكم في المستدرك، عن سفينة ،ج 3،ص75،(كتاب معرفة الصحابة–أبو بكر بن أبي قحافة)،رقم4438. قال السيوطي: " قال العلماء:لم يكن في الثلاثين بعده صلى الله عليه وسلم إلا الخلفاء الأربعة وأيّام الحسن "، تاريخ الخلفاء ، السيوطي، ص8.

3- آثار الخلاف حول الإمامة :

إن الصراع الذي دار حول موضوع الخلافة , ترك أثرين عميقين في النظام السياسي للدولة الإسلامية: أولهما بدعة توريث الحكم, الذي تولى كبره معاوية بحجة الخوف على الإسلام والمسلمين من فتنة الاقتتال على الإمامة , وثانيهما ما وقع فعلا من اقتتال وفتن طال أمدهما,ولا زال أثرهما إلى يوم الناس هذا .

الأثر الأوّل: بدعة توريث الحكم في الإسلام .

لم يرد في نصوص الشرع الحكيم ما يوجب أو يمنع العهد بالملك للأولاد , طالما توفرت فيهم الشروط الشرعية لذلك [172] , وإنما اختلف العلماء في مسألة إمامة المفضول مع وجود من هو أفضل منه[173] ، كما حدث في عهد معاوية لابنه يزيد مع ما اتّهم به من الفجور والتهاون, وقد كان في أمة الإسلام حينذاك من هو أفضل منه علما وخلقا وحنكة وشجاعة، كابن الزبير والحسين بن علي رضي الله عنهما[174].

وأما قصة تولية يزيد فيوردها ابن الأثير في كتابه:(الكامل في التاريخ)وملخصها أن معاوية في الأصل لم يكن يفكر في ذلك , لأنه سبق له و أن عاهد الحسن بالحكم بعده، غير أن الذي أغراه بتلك الفكرة فاختمرت في عقله أمران: أولهما موت الحسن بن علي وثانيهما إقناع المغيرة بن شعبة ليزيد ومعاوية بقبول الفكرة ، وذلك عندما خشي من تنحيته عن إمارة الكوفة،(فدخل على يزيد بن معاوية وقال له: ذهب أعيان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبراء قريش ، وذووا أسنـــانهم ، وإنـــما بقي أبنـــاؤهم وأفضلهم و أحسنهم رأيا، وأعلمهم بالسنة والسياسة، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟ قال يزيد : أو ترى ذلك ؟قال المغيرة : نعم)[175].

---

172 وهي على ما اتّفق عليها الجمهور من العلماء: " القرشية والبيعة والشورى والعدالة "، أنظر تاريخ المذاهب الإسلامية،محمد أبو زهرة، ص78 وما بعدها .

173 ذكرعبد القاهر البغدادي اختلاف العلماء في جواز إمامة المفضول –مع وجود الأفضل– بعد أن يكون صالحا لها،فمنهم من منعها كأبي الحسن الأشعري، ومنهم من أجازها كأصحاب الشافعي ، كتاب أصول الدين، منشورات دار الآفاق الجديدة،بيروت،ط1، 1404هـ–1981م، ص293.

174 قال عبد الله بن عمر–يذم يزيدا–:"...نبايع من يلعب بالقرود والكلاب ويشرب الخمر، ويظهر الفسوق ؟"، تاريخ اليعقوبي،ج 2، ص228، وقد أجاز الماوردي توريث الخلافة، فقال: "يجوز أن ينفرد– أي الإمام– بعقدها لولد ووالد،لأنه أمير الأمة، نافذ الأمر لهم وعليهم"، الأحكام السلطانية، ص19.

175 الكامل في التاريخ ، عز الدين بن الأثير، دار صادر،بيروت،ج3، ص503 وما بعدها.

وبالفعل تم للمغيرة ما أراد ، فتمّ تثبيته على ولاية الكوفة ، وبطبيعة الحال لم يرض كثير من الصحابة ببيعة يزيد ، وكان من أشد الرافضين عبد الرحمن بن أبي بكر الذي رد على والي المدينة حينها مروان بن الحكم ،الذي طلب منهم البيعة ليزيد، فقال: "ما الخيار أردتم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية، كلما مات هرقل ، قام هرقل"[176].

وكان منهم عبد الله بن الزبير،الذي رد على معاوية ، حين نزل بنفسه إلى المدينة المنورة للغرض ذاته ، فخيّره بين إحدى ثلاث خصال: إحداها أن يترك الأمر شورى بين المسلمين كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثانيها أن يفعل ما فعل أبو بكر من العهد لغير أبنائه، وإنما لأفضل الناس وهو عمر بن الخطاب،وإما أن يأتمّ في هذا الأمر بعمر ، الذي جعل الخلافة شورى بين ستة من أصلح الناس في زمانه[177].

وما إن سمع معاوية بذلك حتى قال:"فإني أحببت أن أتقدم إليكم،إنه قد أعذر من أنذر(...)فإني قائم بمقالة، فأقسم بالله لئن ردّ عليّ أحد منكم كلمة في مقامي هذا , لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه, فلا يبقينّ رجل إلاّ على نفسه[178].

واستطاع معاوية بعد ذلك باعتماده أسلوبي الترغيب والترهيب أن يستميل أغلب الناس، باستثناء عبد الله بن الزبير والحسين بن علي فإنهما ظلا على رفضهما العلني لبيعة يزيد .

وبذلك يكون معاوية:(قد سنّ في الإسلام سنة الملك ، المنحصر وراثيا في أسرة معينة ، بعد أن كان أساسه الشورى ، ويختار من عامة قريش (...) وإن هذه الطريقة التي سنها معاوية تدعو في الغالب إلى انتخاب غير الأفضل و الأليق من الأمة ،وتجعل في أسرة الخلافة الترف و الانغماس في الشهوات و الملاذ والرفعة على الناس) [179]، وبهذا ظل الحكم الأموي متوارثا ، ولم يشذ عنه إلا رجلان : عمر بن عبد العزيز ، وسيأتي الحديث عنه في هذا الشأن ، ومعاوية الثاني بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان – رحمه الله – اللذان تركا أمر الخلافة شورى بين المسلمين . ذلك أنه

---

[176] المصدر السابق نفسه، ص506.

[177] محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، محمد الخضري ، ج2 ، ص119.

[178] الخلافة الأموية، عبد المنعم الهاشمي، ص30.

[179] المصدر السابق نفسه، ص30،وما وقع فعلا في التاريخ الإسلامي من تحويل الخلافة إلى ملك عضوض جبري، يعدّ من دلائل وأعلام النبوّة، فقد جاء في حديث أبي عبيدة بن الجرّاح، قال صلى الله عليه وسلم:<<إن أوّل دينكم بدأ نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة، ثم يكون ملكا وجبرية>>، رواه نعيم بن حماد في كتابه :الفتن ،ج1،ص98، (باب ما يذكر من الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم)، رقم233.

لما آلت الخلافة إليه بوصية والده يزيد، لم يلبث إلا أياما معدودة حتى استبد به المرض،وكانت سنه حينذاك ثلاثا وعشرين سنة، وقيل عشرين سنة[180]، ففكر أولا في ترشيح رجل للخلافة كما فعل أبو بكر الصديق ، فلم يجد الرجل الذي يصلح لها ، فاقتدى بعمر بن الخطاب في اختيار ستة ينتخب الخليفة من بينهم , فلم يفلح ، فترك الأمر شورى بين الناس ، يولون أمرهم من يشاؤون. وقال لهم: " فأنتم أولى بأمركم فاختاروا من أحببتم , فقالوا: ولّ أخاك خالدا , فقال : " والله ما ذقت حلاوة خلافتكم ، فلا أتقلد وزرها ". وبهذا يكون ذلك الشاب الصالح قد خرج على قاعدة التوريث التي سنها جده وتبعها أبوه ، ورجع بأمر الخلافة إلى هدي السلف الصالح ، بل وذهب به الأمر إلى تخطئة آبائه في هذا الشأن , لأنهم – في تصوره– اغتصبوا الحكم من أهله الشرعيين. فقال رحمه الله في خطبة له: "يا أيها الناس إن جدي معاوية نازع الأمر أهله ، ومن هو أحق به منه لقرابته لرسول الله عليه الصلاة والسلام، وهو عليّ بن أبي طالب ، وركب بكم وما تعملون حتى أتته منيته فصار في قبره رهينا بذنوبه و أسيرا بخطاياه ، ثم قلّد أبي الأمر فكان غير أهل لذلك ، وركب هواه وأخلفه الأمل ، وقصر عنه الأجل، وصار في قبره رهينا بذنوبه و أسيرا بجرمه"[181]. ولما ذكر ما فعله أبوه بالحسين بن علي في كربلاء [182] ، وما أمر به قادة جيوشه من حصار الحرمين واستباحتهما , بكى بكاء شديدا ثم قال : "إن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه، وبئس منقلبه ، وقد قتل عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم , و أباح الحرم وخرّب الكعبة ، وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم فشأنكم وأمركم ، والله لئن كانت الدنيا خيرا فلقد نلنا منها حظا ، ولئن كانت شرا فكفى ذرية أبي سفيان ما أصابوا منها،ألا فليصل بالناس حسان بن مالك ، وشاوروا في خلافتكم رحمكم الله". ثم لم يلبث إلا أياما معدودة حتى مات، بعد ثلاثة أشهر من خلافته[183].

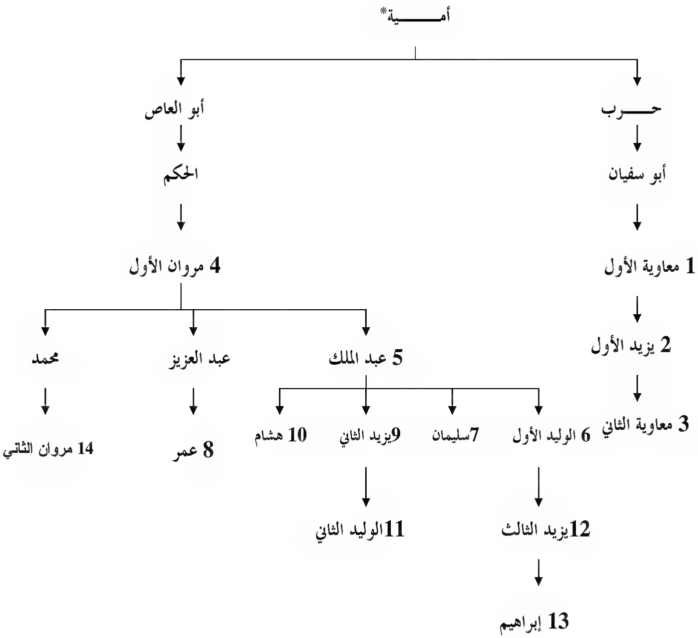
---

[180] تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص168.

[181] – تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي،حسن إبراهيم حسن،دار الأندلس،بيروت،ط 7، 1964م،ج1،ص288،تاريخ اليعقوبي،ج2، ص254.

[182] كربلاء : الموضع الذي قتل فيه الحسين في طرق البريّة، عند الكوفة والكربلة : الرّخاوة في القدمين لأن أرضها رخوة، معجم البلدان، ياقوت الحموي ، ج4 ، ص445، ولمّا بلغها الحسين سأل : "أيّ أرض هذه؟" ، قالوا: "كربلاء" ، قال: "هذا كرب وبلاء"، الإمامة والسياسة ، ابن قتيبة ، ص184.

[183] تاريخ الإسلام،حسن إبراهيم حسن،ج1،ص288، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، الخضري بك، ج2، ص135.



* المنجد في اللغة و الأعلام ، ص69 .

وهكذا بموت معاوية الثاني ، يكون الملك الأموي قد انتقل من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني . وقد ذكر المؤرخون أن اليوم الذي بويع فيه لمعاوية الثاني في الشام ، بويع لابن الزبير في الحجاز[184].

الأثر الثاني : النزاع المسلح.

انجرّ عن الخلاف السياسي حول الإمامة, وما تلاه من ابتداع الحكم والملك الوراثي, بروز جماعات اتخذت لغة السلاح منطقا للاستئثار بالحكم, متأولين ومستندين في ذلك إلى بعض النصوص الشرعية التي تأمر بقتل الأمير الثان ي , الذي جاء بعد الأمير الشرعي الأول, وهذه الجماعات المتصارعة كانت كل واحدة منها ترى أنها الأولى والأحق بحكم المسلمين [185]. ومن تلك النصوص الصحيحة ما يلي:

1- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

<< إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما >>[186].

2-وعن عرفجة قال:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:<< ستكون في أمتي هنات [187]، فمن أراد أن يفرّق أمر المسلمين وهم جميع،فاضربوه بالسيف كائنا من كان>>[188] .

3- وعنه أيضا قال: رأيت النبي صلى الله عليه و سلم على الـــمنبر يخطب الناس،فقال: << إنه سيكون بعدي هنات وهنات, فمن رأيتموه فارق الجماعة , أو يريد أن يفرق بين أمة محمد وأمرهم جميع، فاقتلوه كائنا من كان ، فإن يد الله مع الجماعة , وإن الشيطان مع من فارق الجماعة يرتكض>>[189] .

وعليه فقد وقعت عدة معارك , راح ضحيتها خيرة الصحابة والتابعين ، وتركت آثارا سيئة ، امتدت إلى عقود طويلة ، حتى جاء حكم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز ، الذي أعاد بناء المجتمع والدولة على أسس الحـــق والعدالة.ومن أهم الثـــورات التي شهدها ذلك العصـــر ما يلي:

---

[184] يرى بعض المؤرخين أنّ الخلافة الشرعية كانت لابن الزبير منذ وفاة يزيد بن معاوية عام 64 ه إلى غاية وفاته عام 73ه، أنظر تاريخ الخلفاء،السيوطي، ص171.

[185] أنظر البيعة في الفكر السياسي الإسلامي،محمود الخالدي،ص46 ومابعدها.

[186] رواه مسلم في صحيحه ،ج3،ص1480،(كتاب الإمارة-باب إذا بويع لخليفتين)،رقم1853.

[187] خصلات شرّ،لسان العرب،ج15،ص366.

[188] رواه أبو داود في سننه، ج4،ص242،(باب في قتل الخوارج) ، رقم4762.

[189] رواه ابن حبان في صحيحه، تحقيق شعيب الأرنؤوط،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط2، 1414هـ- 1993م،ج10،ص438،(باب طاعة الأئمة)،رقم.4577

1- ثورات الشيعة[190]:

قام الشيعة بعدة ثورات منذ قيام حكم يزيد بن معاوية , أهمها وأخطرها كانت معركة كربلاء ، ثم ما تلاها من نقمة أنصار آل البيت,الذين شكلوا فيما بعد عدة جماعات ثارت على الأمويين، ومن أهمها ثورة التوابين[191], وثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي.

أ/ معركة كربلاء:

بعدما رفض الحسين بيعة يزيد , توالت عليه الكتب والرسائل من شيعته من أهل العراق, يطلبون منه الوفود عليهم لمبايعته خليفة على المسلمين, فلما اقتنع بمطلبهم وعزم على المسير إليهم , نصحه كثير من الصحابة وحذروه غدر أهل العراق وما فعلوه بأبيه وأخيه الحسن [192]، وكان من بين أولئك الناصحين المشفقين: عبد الله بن مطيع[193]، الذي لقيه في موضع بين مكة و المدينة، فقال له: "جعلت فداك، أين تريد؟ فقال الحسين: أما الآن فمكة، وأما بعد فإني أستخير الله، فقال ابن مطيع: خار الله لك، وجعلنا فداءك ، فإني أتيت مكة، فإياك أن تقرب الكوفة، فإنها بلد مشؤومة! بها قتل أبوك ، وخذل أخوك، الزم الحرم فإنك سيد العرب، لا يعدل بك أهل الحجاز أحدا، ويتداعى عليك الناس من كل جانب، لا تفارق الحرم، فو الله لئن هلكت لنسترقّنّ بعدك "[194].

وفي الوقت الذي حرص فيه أهل العراق استقدام الحسين،كره أهل الحجاز خروجه إليهم، ومن أولئك: الصحابة الأجلاء: عبد الله بن عمر وأبو سعيد الخدري ، وعبد الله بن عباس الذي قال له مشفقا: " يا ابن عم ، أتصبّر ولا أصبر،إني أتخوف عليك في هذا الوجه من الهلاك والاستئصال، إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم، أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز, فإن كان أهل العراق

---

190 الشيعة لغة:من شايع يشايع مشايعة:تابعه وأيّده، أمّا اصطلاحا:فهم فرقة كبيرة من المسلمين اجتمعوا على أنّ عليّا بن أبي طالب كان أحقّ بالخلافة من أبي بكر، وأنّ الخلافة يجب أن تكون في أولاده، المعجم العربي الأساسي، ص713، (وغلب الاسم على من يتوالى عليّا وأهل بيته)، لسان العرب،ابن منظور، ج8، ص188، 189.

191 هم من خذلوا الحسين بن علي وأ سلموه لعبيد الله بن زياد لقمة سائغة،ثم ندموا على ما فعلوا، وعزموا على الثأر لدمه، وكان زعيمهم سليمان بن صرد، أنظر الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج4، ص180، وما بعدها.

192 قال عليّ في أهل الكوفة: " أما والله ما أتيتكم اختيارا ولكن جئت إليكم سوقا، ولقد بلغني أنّكم تقولون:عليّ يكذب، قاتلكم الله، فعلى من الكذب؟ أعلى الله؟ فأنا أوّل من آمن به، أم على نبيّه؟ فأنا أوّل من صدقه"، نهج البلاغة، الشريف الرّضي ، ،شرح وتعليق محمد عبده،إشراف عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع،مؤسسة المعارف،بيروت،1416هـ-1996م، ص193.

193 هو عبد الله بن مطيع بن الأسود الكعبي القرشي العدوي:من رجال قريش، جلدا وشجاعة، إ ستعمله ابن الزبير على الكوفة فأخرجه المختار الثقفي منها، فعاد إلى مكة، فقتل بها مع ابن الزبيرعام73ه، الأعلام، الزركلي، ج4، ص139.

194 تاريخ الأمم والملوك، الطبري، ج3، ص294.

يريدونك كما زعموا، فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم, ثم أقدم عليهم..". ثم نصحه بأن يذهب – إن شاء– إلى اليمن، فيتحصّن بقلاعها ويحتمي بشيعة علي فيها ، فقال له الحسين: " يا ابن عم إني لأعلم والله أنك ناصح مشفق، ولكني أزمعت وأجمعت على المسير"، فقال ابن عباس: " فإن كنت سائرا فلا تسر بنسائك وصبيانك، فو الله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه"[195].

ولم تجد هذه التحذيرات حسينا من أن يغامر بالذهاب إلى الكوفة، ولكنه قبل أن يسير إليها بعث ابن عمه مسلم بن عقيل يتحسس أمرها ويوطئ له الوفود عليها، واستطاع أن يجمع له من الأنصار ما يربو عن ثمانية عشر ألف رجل، وحينها أبرق إلى الحسين بأن يقدم عليهم،غير أنه لم يمض وقت طويل حتى سمع عبيد الله بن زياد بالأمر فطفق يتتبع مسلم بن عقيل وأنصاره، وبينما الحسين خارج إلى الكوفة, لقي الفرزدق في الطريق فسأله عن خبرها، فقال: " قلوب الناس معك و سيوفهم مع بني أمية, والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل مايشاء"[196].

إذن فكل المؤشرات كانت توحي بحلول الفاجعة والهزيمة للحسين, ومع ذلك سار الرجل الكريم إلى حتفه[197]. تذكر الروايات أنه لمّا بلغه موت ابن عمه مسلم همّ بالرجوع من حيث أقبل , سيما بعد الرسالة التي بعث بها إليه ابن عمه مسلم، يحذره فيها غدر أهل الكوفة، قائلا: "ارجع بأهل بيتك، ولا يغرك أهل الكوفة، فإنهم أصحاب أبيك الذين كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل، إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبوني وليس لمكذب رأي"[198].

ولكنه لما أصر إخوة مسلم وبنوه على الثأر, لم يجد الحسين بدا من أن يواصل مسيره إلى الكوفة, وعندما وصلها لقيه عمرو بن سعد بن أبي وقاص في جيش بني أمية, فخيّره الحسين بين ثلاث خصال :

1– أن يسمح له بالعودة إلى المدينة ،2– أن يتركه ليذهب إلى يزيد فيضع يده في يده،
3– أن يلحق بأحد الثغور, فأبى ابن زياد إلا الرضوخ ووضع يده في يده ليبايعه, فرفض الحسين

---

195 المصدر السابق نفسه،ص294، 295.

196 الخلافة الأموية، عبد المنعم الهاشمي، ص68.

197 وقد ورد ت النبوءة بمقتله ،فقد دخل أحد الصحابة–ويدعى أبا عبد الله–على النبي صلى الله عليه وسلم–وعيناه تفيضان–، فقال:"يا نبيّ الله أغضبك أحد؟ما شأن عيناك تفيضان؟".قال:<< بل قام من عندي جبريل قبل، فحدّثني أن الحسين يقتل بشطّ الفرات، قال: فقال: هل لك أن أ شمّك من تربته؟ قال:قلت: نعم، فمدّ يده فقبض من تراب فأعطانيها، فلم أملك عينيّ أن فاضتا>>، مسند الإمام أحمد،ج1،ص85،(مسند الإمام عليّ بن أبي طالب) ، رقم648.

198 تاريخ الأمم والملوك،الطبري،ج3،ص290.

ذلك بشدة قائلا: "أنزل على حكم ابن زانية ؟ لا والله لا أفعل,الموت دون ذلك أحلى" [199], فحدثت بينهما معركة غير متكافئة,انهزم فيها الحسين وأصحابه, وقتل رضي الله عنه,وحزّ رأسه وحمل إلى ابن زياد, ثم سيّره هذا الأخير مع أهل بيته إلى يزيد بالشام, فما إن رآه حتى بكى وقال: "لعن الله ابن زياد, أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه, فرحم الله الحسين" [200], وقال: " فبغّضني إلى المسلمين، وزرع لي في قلوبهم العداوة، فبغضني البرّ والفاجر،بما استعظم الناس من قتلي حسينا". وأكرم يزيد أهله وأولاده. غير أن الذي يؤاخذ به مع ذلك, أنه لم يعاقب ابن زياد على جرمه,الذي يشاركه فيه أنصار الحسين أنفسهم, وقد أخذ عليهم العهود والمواثيق بأن لا يسلموه ولا يخذلوه, فقد فقال: " قد أتتني كتبكم ، وقدمت عليّ رسلكم ببيعتكم ، أنّكم لا تسلموني ولا تخذلوني ، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم،نفسي مع أنفسكم ، وأهلي مع أهليكم ، فلكم فيّ أسوة ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم،وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر،لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمّي مسلم، والمغرور من اغترّ بكم" [201]. ولكن عبثا حاول الحسين أن يغيّر من نفسيات هؤلاء القوم الذين يبدو أنهم قد توارثوا خلق الغدر والخيانة.

ب/ معركة عين الوردة[202]:

ساءت أحوال بني أمية كثيرا بمقتل الحسين, ونقم الناس عليهم فتهيأت الظروف بذلك لعبد الله بن الزبير, الذي ظلّ عائذا بالحرم طيلة حكم يزيد بن معاوية, الذي بموته استطاع آل الزبير افتكاك الحكم من بني أمية, الأمر الذي جعل أهل العراق ينقلبون على بني أمية ويعطون الولاء لابن الزبير.الأمر الذي حدا بعبيد الله بن زياد أن يفرّمن العراق , فوصـــل إلى الشام بحيلة دبرها.فقد ذكر ابن قتيبة أن الخوارج بعد موت يزيـــد خرجوا من سجـــن الكوفة، وكانـــوا أربعـــة آلاف ،

[199] صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي،علي محمد محمد الصلابي،دار الإيمان،الإسكندرية،مصر ، 2003م ،ج1،ص446،الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، ج2، ص184.

[200] عن عبد الملك بن عمير الليثي قال:"رأيت في هذا القصر–وأ شار إلى قصر الإمارة بالكوفة–رأس الحسين بن علي رضي الله عنهما بين يدي عبيد الله بن زياد على ترس، ثم رأيت رأس عبيد الله بن زياد بين يدي المختار بن أبي عبيد الثقفي"، الخلافة الأموية، الهاشمي، ص134، 135، تاريخ الأمم والملوك، الطبري، ج3، ص365.

[201] المصدر السابق نفسه ، ج3، ص307.

[202] رأس عين المدينة المشهورة بالجزيرة ، معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، ج4، ص180.

فحاصروا قصر الإمارة ، فخرج منه ابن زياد في لباس امرأة، مختمرا قد أرخى ظفيرته![203].
ولما تولى عبد الملك بن مروان جهّز جيشا بقيادة عبيد الله بن زياد إلى العراق لإخضاعها , ولما تناهت الأخبار إلى العراق بقدوم هذا الجيش ثارت ثائرة أهل الكوفة خاصة ، وتنادى أصحاب الحسين بــ: "يا لثارات الحسين"،وسمّوا أنفسهم التوابين , وتعاهدوا أمام قبر الحسين على الثأر من بني أمية , ومن ابن زياد خاصة. قال ابن الأثير: "ثم ساروا فانتهوا إلى قبر الحسين ، فلما وصلوا صاحوا صيحة واحدة ، فما رئي أكثر باكيا من ذلك اليوم،فترحموا عليه ، وتابوا عنده من خذلانه، وترك القتال معه، وأقاموا عنده يوما وليلة، يبكون ويتضرعون ويترحمون عليه وعلى أصحابه(...) وكان من دعائهم عند قبره: اللهم إنا خذلنا ابن بنت نبينا صلى الله عليه وسلم ، فاغفر لنا ما مضى وتب علينا، وارحم حسينا وأصحابه الشهداء الصديقين ، وإنّا نشهدك أنّا على دينهم وعلى ما قتلوا عليه، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين" [204] ، ثم اجتمع لزعيم التوابين وهو سليمان بن صرد [205] ألف من أشد المقاتلين , ونزلوا إلى مكان قريب من الفرات يدعى عين الوردة , وهناك اقتتلوا مع جيش ابن زياد , الذي جعل على رأس مقاتلته الحصين بن نمير[206] وكانوا اثني عشر ألف مقاتل , فلما عجزوا عن هزيمة التوابين طلبوا المدد من عبد الملك بن مروان , فقدروا بعد ذلك على هزيمتهم ، فقتل ابن صرد وفرّ بقيتهم إلى البصرة والكوفة والمدائن[207] بعد أن قتل الكثير من الطرفين.
(ويلاحظ في هذه الحركة شيئان هما:1- أنها وصفت بالتشيع , واعتبرت تاريخيا نقطة تحول جديدة في تطور الحزب الشيعي , إلا أنها لم تدع إلى إمامة أحد من آل البيت ، 2- أنها كانت بداية ممارسات شيعية , وهي زيارة قبر الحسين والترحم عليه , وهذا يعني مرحلة أخرى من مراحل

---

[203] أنظر الإمامة والسياسة، ص195، 196.

[204] تاريخ اليعقوبي، ج2، ص152، الكامل في التاريخ ، ابن الأثير، ج 4، ص178.

[205] هو سليمان بن صرد بن الجون بن أبي الجون عبد العزي بن منقذ، السلولي الخزاعي، أبو مطرف: صحابي، ولد سنة 28 ق ه، من الزعماء القادة ، شهد الجمل وصفين مع علي، قتله يزيد بن الحصين في عين الوردة عام65ه، له15 حديثا، الأعلام، الزركلي، ج3، ص127.

[206] هو الحصين بن نمير بن نائل، أبو عبد الرحمان الكندي ثم السكوني: قائد من القساة الأشداء ، المقدمين في بني أمية، قتل مع ابن زياد على مقربة من الموصل،عام67ه ، المرجع السابق نفسه ، ج2، ص262.

[207] مدينة بين الفرات ودجلة ، قيل بناها الإسكندر، وقيل أنو شروان الفارسي، معجم البلدان، ياقوت الحموي،ج5،ص74.

تحول الحركة الشيعية من حركة سياسية محضة إلى حركة دينية سياسية)[208].

ت/ ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي (الكذّاب)[209] : كان هذا الرجل من أشد الطامحين إلى الحكم, فاستغل عاطفة أهل الكوفة الموالين لآل البيت , فاختار اسم:(محمد بن الحنفية) شعارا لحركته زاعما أنه هو المهدي ، ودعا إلى الثأر من قتلة الحسين , وكان شديد المنافسة لسليمان بن صرد , حتى أنه استطاع بدهائه ومكره أن يشتت شمل أنصاره.

وقد عبّر المختار عن طموحه ذاك بعبارات تفوح بحب الزعامة ، فقال: " إنما أنا رجل من العرب, رأيت ابن الزبير انتزى[210] على مكة , ورأيت نجدة [211] انتزى على اليمامة, ومروان على الشام , فلم أكن دون أحد من رجال العرب , فأخذت هذه البلاد فكنت كأحدهم , إلا أني طلبت بثأر أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم إذ نامت عنه العرب"[212].

استغل المختار فرصة انهزام جيش سليمان بن صرد , فعمل علـــى استعطافهم واستمـــالتهم, فنجح في إعادة تنظيمهم من جديد , ولما وجد الوقت مواتيا للثورة , انتفض على أميــر الكــوفة

---

208 الكامل في التاريخ،ابن الأثير،ج 4، ص179،180، الخلافة الأموية،عبد المنعم الهاشمي،ص129.

209 قال علي الصلابي : "وقد ذكر العلماء أنه المقصود بالكذّاب في قوله صلى الله عليه وسلم:<< إن في ثقيف كذابا ومبيرا>>"، رواه الحاكم في المستدرك،عن أسماء بنت أبي بكر،ج3،ص637،(باب ذكر كذاب ثقيف ومبيرها)،رقم6342، صفحات مشرقة ، ج1، ص345، والمبير تعني: مهلك يسرف في قتل الناس، لسان العرب، ابن منظور، ج 4، ص86، وذكر ا بن كثير أن أسماء بنت أبي بكر قالت للحجاج بن يوسف الثقفي :" أمّا الكذّاب فقد رأيناه – تقصد المختار الثقفي– وأمّا المبير فأنت هو يا حجاج "، أنظر البداية والنهاية،ج9،ص101. وذكر الطبري أنّ المختار كذب على إبراهيم بن الأشتر حين أطلعه على كتاب زعم أنه من محمد بن الحنفية ، وأشهد عليه بعض أنصاره ، فصدّقها الأشتر وبايعه، أنظر تاريخ الأمم والملوك ، ج 3 ، ص438، 439 ، وقال السيوطي : " وفي أيّام ابن الزبير كان خروج المختار الكذّاب الّذي ادّعى النبوّة(...) لعنه الله"، تاريخ الخلفاء، ص 171، وذكر ابن قتيبة أن المختار بعث كتابا إلى محمد بن الحنفية ، يزعم فيه أنه يحبه ويحب أهل بيته ، فكذبه قائلا : " كيف يحبني ويحب أهل بيتي وهو يجلس عمرو بن سعد بن أبي وقاص على وسائده ، وقد قتل الحسن بن عليّ أخي؟!". وقيل أنه كان يدعى كيسان , ولذلك سميت جماعته الكيسانية ، وقيل أنه أخذها عن مولى علي رضي الله عنه ، كان اسمه كيسان , أنظر الفرق بين الفرق , عبد القادر البغدادي , ص38 , الإمامة والسياسة ، ابن قتيبة، ص 197، 198.

210 وقع على، والانتزاء والتنزّي : تسرّع الإنسان إلى الشّرّ ، لسان العرب ،ابن منظور،ج15،ص320 .

211 هو نجدة بن عامر الحروري الحنفي، من بني حنيفة: رأس الفرقة النجدية، ولد عام 36ه، انفرد عن سائر الخوارج بآراء ، كان أول أمره مع نافع بن الأزرق ، وفارقه لإحداثه في مذهبه ، أقام باليمامة والبحرين ، قتله أصحاب ابن الزبير ، الأعلام ، الزركلي،ج8 ، ص10.

212 الخلافة الأموية،عبد المنعم الهاشمي،ص130.

عبد الله بن مطيع , وأخرجه منها , وبايع أهل الكوفة المختار على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه و سلم والثأر لدم الحسين.

سار عبيد الله بن زياد بعد فراغه من شأن التوابين إلى قتال المختار, وكانت المواجهة عند نهر يدعى الخازر[213], قتل فيها عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير، وكان ذلك في العاشر من محرم عام 67ه.

وبالرغم من أن المختار استطاع أن يثأر من قتلة الحسين , إلا أن أخلاقه وسياسته كانت مبغوضة من أهل العراق , لأنه لم يكن مخلصا في دعوته لآل البيت , وإنما كان غرضه الأوحد هو الزعامة و السيادة ، الأمر الذي من أجله بعث العراقيون إلى عبد الله بن الزبير يستعدونه عليه ويطلبون تخليصهم منه ، فبعث مصعب بن الزبير في جيش كثيف , فالتحموا مع جيش المختار بحروراء[214]،فهزموهم وفرّ المختار مع ثلة من أنصاره، واعتصموا بقصر الإمارة بالكوفة ، فحاصرهم مصعب , حتى بلغ منهم الجوع والعطش مبلغهما, فخرجوا مقاتلين, فقتلوا جميعا, وكانت عدّة من قتل مصعب من جيش المختار ثمانية آلاف[215].

2- ثورات الخوارج :

بعد موقعة صفين وحكم الحكمين، رجع الإمام علي- كرم الله وجهه- إلى العراق مع أصحابه، الذين كانوا فريقين: فريق طائع لأميره راض بحكمه، وهؤلاء هم أنصار علي وشيعته، وفريق رجع يلعن عليا ويسبه ويخطئه في مسألة التحكيم ويقول: "حكمتم الرجال وتركتم القرآن"، فيرد عليهم علي بأنها: "كلمة حق يراد بها باطل" [216] ،وهؤلاء هم الخوارج، (ولهم ألقاب أخرى عرفوا بها غير لقب الخوارج، ومن تلك الألقاب: الحرورية، سموا بهذا الاسم لنزولهم بمنطقة حروراء في أول أمرهم، ومن ألقابهم: الشراة، لقولهم شرينا أنفسنا في طاعة الله، ومن أسمائهم:المارقة والمحكمة لإنكارهم الحكمين، وقولهم:لا حكم إلا لله) [217] ، ولما دخل علي الكوفة لم يدخلوا معه، وانزووا إلى قرية حروراء، وكانوا اثني عشر ألف رجل،وكانت نهاية الإمام علي على يد أحدهم كما سبق ذكره.

---

[213] نهر بين أربل والموصل،ثم بين الزّاب الأعلى والموصل،معجم البلدان،ج2،ص337.

[214] قرية بظاهر الكوفة,قيل سمّيت من الرّيح الحرور(الحارّة)المصدر السابق نفسه،ج2،ص245.

[215] أنظر الإمامة والسياسة،ابن قتيبة،ص198.

[216] والصواب أنهم هم الذين دفعوه إلى قبول التحكيم ,وكان هو لذلك كاره,أنظر صفحات مشرقة,الصلابي،ج1 ص528.

[217] المرجع السابق نفسه،ج1،ص522.

وجرت بينهم وبين معاوية صدامات عدة [218] ،ورفضوا الصلح عام الجماعة،وعطّلوا بثوراتهم على بني أمية حركة الفتح الإسلامي،التي كان معاوية ومن جاء بعده يريدون مواصلتها،و(كان أكثر أنصار هؤلاء في خراسان والمغرب لبعدهما عن مركز الخلافة الأموية)[219].

وإذا كان الموالي في المشرق تأثروا بالشيعة لطبيعة تكوينهم الوجداني، المتأثر بالفرس،فإنهم رأوا بأن الخلافة ينبغي أن تكون وراثية في آل البيت،على خلاف البربر في المغرب الذين استهوتهم شجاعة الخوارج واستبسالهم في الدفاع عن فكرتهم القائلة بأن الخلافة حق لكل الناس بشروط معينة، فقد تأثروا بهم وتبنوا أفكارهم[220].

وقد وردت بشأن الخوارج عدة أحاديث شريفة،تصفهم بأبشع النعوت،منها ما يلي:

1/ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يقسم قسما إذ أتاه ذو الخويصرة [221]، وهو رجل من بني تميم ،فقال: يارسول الله اعدل.فقال:<< ويلك ومن يعدل إن لم أعدل،قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل>>. فقال عمر:يا رسول الله ائذن لي فيه،فأضرب عنقه،فقال:<< دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم،وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم [222]، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية>>[223].

2/وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: << سيخرج قوم في آخر الزمان أحداث الأسنان،سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية،لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية>>[224].

---

218 أنظر تفصيل ذلك في كتاب:معاوية بن أبي سفيان،بسام العسلي،ص102وما بعدها.

219 في التاريخ العباسي والفاطمي,أحمد مختار العبادي ، نشر مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية، ص14.

220 أنظر:تاريخ المغرب الإسلامي،موسى لقبال،ص70 وما بعدها،بتصرف.

221 هو حرقوص بن زهير"ذوالخويصرة "،ذو الثدية،رأس الخوارج،قتله علي بالنهروان،وتزعم الخوارج أنه من أصحاب النبي ، الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ،تحقيق علي محمد البجاوي،دار الجيل،بيروت، 1412هـ- 1992م، ج2 ، ص411.

222 حلوقهم،لسان العرب،ابن منظور،ج10،ص32.

223 رواه البخاري،ج3،ص1321،(كتاب المناقب-باب علامات النبوة في الإسلام)،رقم3414.

224 رواه البخاري ، ج6، ص2539،(كتاب استتابة المرتدين المعاندين وقتالهم-باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم)، رقم6531.

3/ وعنه أيضا ، قال صلى الله عليه وسلم:<< إن من ضئضئ [225] قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية >> [226] .يقول الصلابي: "وفي هذه معجزة باهرة للرسول صلى الله عليه وسلم حيث وقع منهم ما أخبر به صلى الله عليه وسلم ،فإنهم كانوا يسلون سيوفهم على أهل الإسلام بالقتل ،وكانوا يغمدونها على الكفار من اليهود والنصارى،بل بلغ بهم سوء حالهم،أن عنفوا أحدهم على تناوله حبة تمر من نخيل كتابي ،كما زجروا أحدهم ولاموه على قتله خنزيرا لمعاهد،أما سفكهم دماء أهل الإسلام،فإنهم يستحلون ذلك،ويهونون أمره ولايلومون عليه،كقتلهم عبد الله بن خباب بن الأرث وغيره من المسلمين" [227]، ولما وقع واصل بن عطاء [228] في قبضتهم–وهم لا يعرفونه–زعم بأنه مشرك مستجير ،فتركوه لقوله تعالى:(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) [229] ،ولو صرح بإسلامه لقتلوه [230].والخوارج فرق عديدة [231] ،أغلاها وأشدها تطرفا فرقة الأزارقة [232]،الذين كان من عادتهم،أنه إذا أراد أحد الانضمام إليهم،امتحنوه بأن يسلموا إليه واحدا من أسراهم،فإن قتله صدقوه،وإن لم يقتله قتلوه،وزعموا أنه منافق مشرك [233].(و الذي يجمع الخوارج على افتراق مذاهبهم ، إكفار عليّ وعثمان والحكمين ، وأصحاب الجمل وكل من رضي بتحكيم الحكمين والإكفار بارتكاب الذنوب ووجوب الخروج على الإمام الجائر)، واختلفـوا في مسمى هذا الكفـر

[225] الأصل والنسل ، لسان العرب ، ابن منظور ، ج1، ص110.

[226] رواه البخاري ، ج3، ص1219،(كتاب الأنبياء–باب قوله تعالى:(وإلى عاد أخاهم هودا...إلى قوله:كذلك نجزي القوم المجرمين))، رقم3166.

[227] صفحات مشرقة،ج1،ص530،وانظر قصة مقتل عبد الله بن خباب في : الكامل في اللغة الأدب ، أبو العباس محمد بن يزيد ، المعروف بالمبرّد النحوي ، ج2 ، ص176، 177.

[228] هو واصل بن عطاء الغزال أبو حذيفة ،من موالي بني مخزوم:رأس المعتزلة،ومن أئمة البلغاء والمتكلمين،ولد عام 80ه،سمي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة الحسن البصري،ولم يكن غزّالا،وإنما لقب به لتردّده على سوق الغزّالين بالبصرة،له تصانيف،منها"أصناف المرجئة"و"المنزلة بين المنزلتين"...،توفي عام 131ه،الأعلام، الزركلي،ج8،ص108.

[229] سورة التوبة/6.

[230] الكامل في اللغة والأدب،أبو العباس محمد بن يزيد،المعروف بالمبرد النحوي،تحقيق تغاريد بيضون ونعيم زرزور،دار الكتب العلمية،بيروت،1416هـ–1996م ،ج2،ص142.

[231] ذكر البغدادي أنهم عشرون فرقة,كل واحدة تكفّر سائرها,الفرق بين الفرق, البغدادي ، ص 20.

[232] نسبة إلى قائدهم نافع بن الأزرق الحروري،البكري الوائلي،من أهل البصرة،كان من أنصار الثورة على عثمان،والى عليّا،ثم خرج عليه بعد التحكيم،دافع مع ابن الزبير عن الحرم المكي،ثم تبرأ من ابن الزبير بسبب فتنة عثمان،وكان نافع جبّارا سفّاكا للدماء،قتله المهلب بن أبي صفرة بالقرب من الأهواز عام 65ه، الأعلام، الزركلي،ج7،ص351، 352.

[233] صفحات مشرقة،ج1،ص535.

فقالت الأزارقة أنه كفر شرك ، وقال غيرهم أنه كفر نعمة وليس بشرك[234] .

وبهذه العقائد الباطلة و النفسيات الشاذة المعقدة واجه الخوارج المجتمع الإسلامي عامة،وأمراء بني أمية خاصة فحدثت عدة مواجهات مسلحة،راح ضحيتها كثير من الأبرياء،وأوقعت شرخا في نسيج المجتمع الإسلامي،ترك آثارا عميقة في تاريخ الإسلام ولا تزال [235] .

والجدير بالذكر أن الخوارج اشتدت وطأتهم في عهد يزيد وابن الزبير وعبد الملك بن مروان، فلما جاء عهد الوليد وسليمان ابني عبد الملك سكنوا، مما أفسح المجال واسعا لحركة الفتح الإسلامي ، ولما تولى عمر بن عبد العزيز خرجوا، وسأقتصر على ذكر نشاطهم–باختصار–في العهود التالية ، لكثرة حركاتهم فيها:

أ /الخوارج على عهد يزيد [236]:

بعد أن هزم الخوارج جيش عبيد الله بن زياد بآسك[237]، أرسل إليهم يزيد بن معاوية عبّاد بن الأخضر[238] التميمي على رأس ثلاثة آلاف مقاتل فاستطاع أن يقضي عليهم،وكان على رأس الخوارج أبو بلال مرداس بن أدية[239]،وكان ذلك سنة 61ه.

---

[234] الفرق بين الفرق، البغدادي،ص73،أنظر أصول الدين ،له أيضا،ص291.

[235] من يوصفون اليوم بالإرهابيين يحملون تلك العقائد و المشاعر المنحرفة والسلوكات الضالة،ولقد وقع منهم ما وقع بالأمس تصديقا لنبوءة رسول الإسلام،و قد سمّاهم الفقهاء قديما بــ :(المحاربون وقطّاع الطرق)،أنظر تفصيل أحكامهم في كتاب الأحكام السلطانية،للماوردي،ص77ومابعدها،طالع موضوع:(الرحمة والتراحم في وجه الغلو والعنف) ، مجلة العربي، سليمان إبراهيم العسكري ، ،وزارة الإعلام،الكويت،1424هــ–2003م،العدد540، ص8 وما بعدها.

[236] أنظر التاريخ الإسلامي،محمود شاكر،ج4،ص144ومابعدها.

[237] كلمة فارسية:بلد من نواحي الأهواز(بين أرجان ورامهرمز)،معجم البلدان،ياقوت الحموي، ج1، ص53.

[238] هو عبّاد بن الأخضر،المازني التميمي،نسب إلى الأخضر وهو زوج أمه،حمل على الخوارج بزعامة مرداس بن أدية،فقتلهم جميعا وهم يصلون الجمعة،قتله أحدهم بعد ذلك غيلة بالبصرة،عام61ه ،الأعلام، الزركلي، ج3، ص257.

[239] هو أبو بلال مرداس بن حدير بن عامر،الربعي الحنظلي التميمي، وأمه أدية:من عظماء الشراة،وأحد الخطباء الأبطال،شهد صفين مع علي،وأنكر التحكيم،خرج على ابن زياد ،وأعلن للناس أنه لم يخرج ليفسد في الأرض،ولكن هربا من الظلم،قتله عباد بن الأخضر وهو في صلاة الجمعةعام61ه،وله عقب كثير باصطخر،المرجع السابق نفسه،ج7،ص202.

وبعد مقتل الحسين بكربلاء ثار رجل من الخوارج يدعى أبو طالوت نجدة بن عامر الحنفي،وكان قد سار إلى البصرة مع نافع بن الأزرق،ثم خالفه ورجع إلى نجد فاستولى عليها، واستقل بها فأصبح شرق ووسط الجزيرة ميدانا لنشاط الخوارج.

ب/الخوارج على عهد ابن الزبير[240]:

اشـــــتدّ أمر الخـــوارج في البصرة إلا أن نـــافعا بن الأزرق قــــد قتـــل في معـــركة مع أهل البصـــرة،فولـــى الخوارج عليهم رجلا يدعـــى عبيـــد الله بن الماحوز [241].فســـار بـــهم إلى المـــدائن فقتـــلوا من أهلــــــها الكثـــير،ثم غلـــبو ا على الأهـــواز [242] وجبوا الأمـــوال وأتتـــهم الأمـــداد من اليمامة والبـــحرين، ثم ساروا إلى أصفـــهان [243] وعليـــــها عتاب بن ورقاء الرياحي[244] فهزمهم .وبعد مقتل أميرهم ابن الماحوز ولّوا عليهم قطري بن الفجاءة الشاعر المشهور،وعندما أرسل ابن الزبير المهلب بن أبي صفرة الأزدي إلى خراسان [245]واليا عليها، طلب منه أهل البصرة قتال الخوارج، فوافق بإذن من عبد الله بن الزبير واشترط عليه–في المقابل– الاستئثار بأموالهم فوافقه على ذلك، فسار إليهم وقتل منهم خلقا كثيرا، وفر من نجا منهم إلى كرمان[246] وأرض أصفهان وأقام المهلب بالأهواز.

---

[240] أنظر التاريخ الإسلامي،محمود شاكر،ج4،ص179ومابعدها.

[241] هو عبيد الله بن بشير بن(الماحوز)،السليطي اليربوعي التميمي:رئيس الأزارقة في الأهواز وما حولها،وكان يدعى بأمير المؤمنين،قتله المهلب بن أبي صفرة في مكان يسمى"سلي وسلبري"عام65ه، الأعلام ، الزركلي ، ج4، ص191.

[242] ج هوز وأصله(حوز)فارسي القلب،وهي خوزستان،معجم البلدان،ياقوت الحموي،ج1،ص284.

[243] مدينة عظيمة مشهورة،وهي بلاد فارس ، المصدر السابق نفسه ، ج1 ، ص207.

[244] هو عتاب بن ورقاء بن الحارث بن عمرو، الرياحي اليربوعي التميمي:قائد من الأبطال،ولاه مصعب بن الزبير إمارة إصبهان، بعثه الحجاج لقتال شبيب بن يزيد،زعيم الخوارج،فقتله عامر بن عمير التغلبي من أصحاب شبيب، عام 77ه، الأعلام،الزركلي،ج4،ص200.

[245] بلاد واسعة،أول حدودها ممّا يلي العراق، وآخر حدودها ممّا يلي الهند،(من مدنها نيسابور وهراة ومرو و بلخ و نسا)، معجم البلدان ، ياقوت الحموي،ج2،ص350 .

[246] بين فارس ومكران وسجستان وخرا سان،المصدر السّابق نفسه،ج4،ص454.

ت/الخوارج على عهد عبد الملك بن مروان[247]:

في عام 76ه ظهر للخوارج زعيمان هما:صالح بن مسرح [248]وشبيب بن يزيد [249] ،فبعث إليهم عبد الملك بن مروان أخاه محمدا [250] ،وكان أميرا على الجزيرة،في جيش كبير،فهزمهم الخوارج شر هزيمة ،غير أن الحجاج وأمير جنده المهلب بن أبي صفرة هزما الخوارج بعد معارك طويلة،وكانت نهاية شبيب أنه غرق بعد فراره من أرض المعركة ،أما ابن مسرح فقد قتل فيها.

3- معارك الزبيريين[251] :

كان لمقتل الحسين بن علي الأثر الأليم على المسلمين وخاصة أهل الحجاز،وعلى وجه أخص على نفس عبد الله بن الزبير،أكبر حليف للحسين،الأمر الذي جعل ابن الزبير يدعو لنفسه،ويتمرد على يزيد وبني أمية،فمال إليه أكثر أهل الحجاز،وحنق أهل المدينة المنورة على الأمويين فحاصروا دار مروان بن الحكم وأخرجوهم من المدينة،فلما سمع بذلك يزيد أرسل إلى عبيد الله بن زياد ، يؤمره على جيش لغزو الحرمين،فرفض ذلك قائلا : "لا أجمعها للفاسق أبدا – يعنى يزيدا- : أقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغزو البيت"،فأرسل إلى مسلم بن عقبة المري [252]،وجعله على رأس جيش قوامه اثناعشر ألف مقاتل،وأوصاه بقوله: "أدع القوم ثلاثا،فإن رجعوا إلى الطاعة

---

247 أنظر:التاريخ الإسلامي،محمود شاكر ، ج4 ، ص207 وما بعدها بتصرف.

248 هو صالح بن مسرح التميمي:زعيم الصفرية،كان كثير العبادة،يقيم بالموصل،وقتل بها في معركة نشبت بينه وبين أميرها"محمد بن مروان"،عام76ه،الأعلام،الزركلي،ج3،ص197.

249 هو شبيب بن يزيد الشيباني،أبو الضحاك:من أبطال العالم،وأحد كبار الثائرين على بني أمية،ولد عام 26ه، كان داهية طماحا إلى السيادة،ومن زعماء الخوارج وشجعانهم،وجه إليه الحجاج خمسة جيوش،فهزمها كلها،حتى خرج إليه الحجاج بنفسه،فانهزم أصحاب شبيب،وغرق هو في نهر الدجيل،عام 77ه وإليه تنسب الفرقة الشبيبية،من فرق النواصب،المرجع السابق نفسه،ج3،ص156، 157.

250 هو محمد بن مروان بن الحكم الأموي:أمير،من الشجعان الأبطال،كان والي الموصل والجزيرة وأرمينية وأذربيجان،اشتهر بقوة البأس،حتى كان أخوه الخليفة عبد الملك يحسده على ذلك،له وقائع وحروب مع الروم،وهو والد"مروان"آخر ملوك بني أمية،مات عام101ه،المرجع السابق نفسه ،ج7،ص95.

251 المعارك التي أشلعها عبد الله بن الزبير ضد بني أمية وغيرهم،وكان على رأس جيوشه أخوه مصعب بن الزبير،أنظر الإمامة والسياسة،ابن قتيبة،ص167ومابعدها،بتصرف .

252 هو مسلم بن عقبة بن رباح المري:قائد من الدهاة القساة،أدرك النبي صلى الله عليه وسلم،وشهد صفين مع معاوية،وقلعت بها عينه،نبش قبره وصلب في مكان دفنه،عام63ه،الأعلام،الزركلي،ج7،ص222.

فأقبل منهم وكف عنهم وإلا فاستعن بالله وقاتلهم،وإذا ظهرت عليهم فأبح [253] المدينة ثلاثا،ثم اكفف عن الناس". ثم أمره بالمسير بعد ذلك إلى مكة، لقتال ابن الزبير وإخضاع أهلها،ففعل مسلم ما أمر به وأسرف إسرافا كبيرا في قتل أهل المدينة ،حتى لقب بمسرف ابن عقبة ولكنه ما لبث أن سار إلى مكة حتى وافاه أجله،فتأمّر على الناس الحصين بن نمير.

أ/حصار مكة:

ضرب الحصين بن نمير حصارا على مكة من جميع أنحائها،وجعل يضربها بالمنجنيق [254]،وكان ذلك سنة 64ه،وتم فيها حرق الكعبة،فاسودّ الركن وانصدع في ثلاثة أمكنة واقتتل الجيشان قتالا شديدا،وظل الحصار أربعة أيام من محرم وصفر كله وثلاثة أيام من شهر ربيع الأول،ثم جاء نعي يزيد،فأخبر ابن الزبير به جيش الأمويين،ففتّ ذلك في عضدهم وانهزموا،ففاوضه ابن نمير في أمور منها:

1/البيعة له بشرط انتقاله إلى الشام، فرفض ذلك.

2/حقن الدماء بشرط عدم المطالبة بثأر أهل مكة والمدينة،فرفضه أيضا،بل وعزم على قتل عشرة من أهل الشام مقابل واحد من أهل الحجاز [255].

فقفل ابن نمير راجعا بجيشه إلى الشام وقد يئس من ابن الزبير،الذي منعهم من الطواف بالبيت حين رغبوا في ذلك.وبايعه الناس ، بمن فيهم أهل الشام ، سوى أهل الأردن ، وأمــّر عليهم

---

[253] روى الطبري أنه لما حضرت معاوية الوفاة دعا يزيدا فقال له:"إن لك من أهل المدينة يوما،فإن فعلوا فارمهم بمسلم بن عقبة،فإنّه رجل قد عرفت نصيحته"،أنظر تاريخ الأمم والملوك،ج3،ص359 ، وزعم الصّلابي أن مسألةا ستباحة المدينة مطعون في صحّتها،لأنّ جلّ من أوردها متّهم بالتشيّع و بغض بني أمية،أنظر صفحات مشرقة،ج1،ص450 وما بعدها،وقال ابن كثير: " ثم أباح مسلم بن عقبة – مسرف بن عقبة ، قبّحه الله من شيخ سوء ماأجهله – المدينة ثلاثة أيام،كما أمره يزيد،لا جزاه الله خيرا،وقتل خلقا كثيرا من أشرافها وقرّائها، وانتهب أموالا كثيرة منها،ووقع شرعظيم وفساد عريض"، البداية والنهاية،ج8،ص187،وذكر ابن قتيبة أنه قتل منها سبعمائة من وجوه أهل المدينة من المهاجرين والأنصار وعشرة آلاف من العبيد والموالي والأحرار،ولم يبق بعدها بدريّ واحد، أنظر الإمامة والسياسة،ص174،وقد ورد بشأن موقعة الحرّة هاته حديث للنبي صلى عليه وسلم، ذلك أنه لمّا مرّ على الحرّة، استرجع وهو يقول: <<يقتل في الحرة خيار أمتي بعد أصحابي>>، ولم أجد تخريجا لهذا الحديث، وقد أورده ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ، ص176.

[254] بالفتح والكسر للميم:القذّاف، الذي ترمى به الحجارة ، أصله فارسي،لسان العرب،ابن منظور،ج10 ، ص338 .

[255] تاريخ الأمم والملوك،الطبري،ج3،ص361،وقد انضمت النجدات من الخوارج لابن الزبير في حربه ضد الأمويين، دفاعا عن الحرم المكّي،أنظر الخلافة الأموية،عبد المنعم الهاشمي،ص120.

الضحاك بن قيس[256] الذي قتل بعد ذلك في معركة دارت بينه وبين جيش مروان بن الحكم، وتسمى معركة مرج راهط[257] التي بسط الأمويون بعدها نفوذهم في الشام[258].

وبدأ الأمويون بقيادة مروان بن الحكم يستردّون بعض ما خرج عن نفوذهم،كمصر التي عزل عنها عبد الرحمن بن جحدم بعد معركة شديدة، ثم تصالحا بعدها، وكتب مروان لأهل مصر كتاب أمان بيده،وأمّر عليها ولده عبد العزيز، ثم قفل راجعا إلى الشام حيث التقى بمصعب بن الزبير فدار بينهما قتال،انسحب على إثره مصعب مهزوما وراجعا إلى الحجاز. و(لم تطل مدة مروان في سلطانه،فإنه توفي في رمضان سنة 65ه،وكان قد عهد بالخلافة لابنيه: عبد الملك ثم عبد العزيز)[259].

ولما تولى عبد الملك عزم على إخضاع الزبيريين ، فسار إليهم على رأس جيش كبير، فالتقى مع جيش مصعب على نهر الدجيل [260] في شهر جمادى الآخرة عام 72ه،وكان عبد الملك محبا لمصعب أشدّ الحبّ ولكن السياسة فرقت بينهما .قال: "والله إنّ أمر هذه الدّنيا لعجب ، لقد رأيتني ومصعب بن الزبير،أفقده الليلة الواحدة،من الموضع الذي نجتمع فيه،فكأني واله،ويفقدني فيفعل مثل ذلك،ولقد كنت باللطف،فما أراه تجوز لي أكلة حتى أبعث بها إلى مصعب أو ببعضها،ثمّ صرنا إلى السّيف،ولكنّ هذا الملك عقيم،ليس أحد يريده من ولد أو والد إلاّ كان السيف"، قال عبد المنعم الهاشمي – بعد أن أورد هذه المقولة -:" كان عبد الملك يقصد بكلامه هذا ليسمعه خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد ، وهو يومئذ يخافهما، وقد عرف أن عمرو بن سعيد بن العاص كان أطوع الناس عند أهل الشام، وخالد بن يزيد بن معاوية ، كان قد أطعمه مروان بن الحكم في الخلافة ثم ولي عبد الملك ابنه ومن بعده عبد العزيز،فأيس خالد و كان طامعا في الملك " [261]،ولما بدأت المعركة انخذلت ربيعـــة وغيرها من القبائـــل عن جيش العـــراق ، فدخلت الهزيمـــة نفـــوس الكثيريـــن،

---

[256] هو الضحاك بن قيس بن خالد الفهري القرشي،أبو أمية:سيد بني فهر في عصره،وأحد الولاة الشجعان، ولد عام5ه،شهد صفين مع معاوية، وولاّه معاوية على الكوفة سنة53ه،ولما خلع معاوية بن يزيد نفسه،انصرف يدعو إلى بيعة ابن الزبير بدمشق، فقتله مروان بن الحكم في مرج راهط، عام65ه ، الأعلام ، الزركلي، ج3، ص214، 215.

[257] بنواحي دمشق ، أشهر المروج،معجم البلدان،ياقوت الحموي،ج5،ص101.

[258] راجع تاريخ الأمم والملوك،الطبري،ج3،ص381 وما بعدها،وقدهمّ مروان بن الحكم ببيعة ابن الزبير،فأثناه عن ذلك عبيد الله بن زياد،وزيّن له الملك فقبل ذلك،أنظر الطبقات الكبرى ، محمد بن سعد ، ج3، ص294، 295.

[259] الخلافة الأموية،عبد المنعم الهاشمي،ص107،محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية،محمد الخضري بك ،ج 2، ص138.

[260] اسم نهر في موضعين،مخرجه من أعلى بغداد، بين تكريت والقادسية:معجم البلدان، ياقوت الحموي،ج2،ص443 .

[261] الخلافة الأموية،ص139.

حتى قال مصعب:"رحم الله أبا بحر– يعني الأحنف بن قيس– إن كان ليحذرني غدر أهل العراق،وكأنه ينظر إلى ما نحن فيه الآن". والتحم الفريقان وقتل مصعب وحزّ رأسه وحمل إلى عبد الملك،فأعطى حامله ألف دينار جزاء له،فأبى أن يأخذها وقال :" إني لم أقتله على طاعتك،وإنما قتلته على وتر[262] صنعه بي،ولا آخذ في حمل رأس مالا"،فتركه عند ذلك عبد الملك"[263].

ونزل عبد الملك النخيلة [264] فبايعه أهل العراق،(وبهذا أصبح العراق وما يتبعه من ناحية المشرق،ومصر وما يتبعها من جهة المغرب،إضافة إلى الشام إدارة ونفوذ عبد الملك بن مروان،ولم يبق للخليفة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما إلاّ جزيرة العرب)[265].

ب/استشهاد عبد الله بن الزبير:

باستقرار الأوضاع لعبد الملك في معظم الولايات الإسلامية،صوب نظره إلى ناحية الحجاز و إلى مكة على وجه الخصوص،حيث مركز قيادة عبد الله بن الزبير فنادى في أنصاره: "من لي بابن الزبير؟"، فقال الحجاج: "ابعثني إليه يا أمير المؤمنين، فإني رأيت في المنام كأني ذبحته وجلست على صدره وسلخته"، فقال: "أنت له "، فبعثه في جيش كثيف من أهل الشام، وزوده بكتاب فيه أمان لأهل مكة، إن لم يقاتلوا مع ابن الزبير، واستمرت المعركة قرابة ستة أشهر،ولما طال الأمر هكذا، كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه في انتهاك الحرم، ويسأله المدد فأجابه إلى ما يريد. فنصب الحجاج المجانيق وصوبها إلى ناحية الكعبة حيث عبد الله بن الزبير معتصما وعائذا بالحرم،ولما رأى الناس عزم الحجاج على هدم الكعبة،خرجوا يطلبون الأمان [266]،وكان منهم ولدا ابن الزبير نفسه: خبيب [267] وحمزة،الأمر الذي حزّ في نفس ابن الزبير،فاغتم لذلك كثيرا،ودخل على أمه أسماء يشكو أمره،فشجعته على المواجهة و الموت على ما مات عليه أصحابه، فقال:

---

[262] أي: الثأر، لسان العرب ، ابن منظور،ج5،ص274،ثأر منه لأنه كان عاملا لمصعب في أحد الولايات، فعزله وأهانه، أنظر البداية والنهاية،ابن كثير،ج8،ص267.

[263] المصدر السابق نفسه، ج8، ص267،تاريخ الأمم والملوك،الطبري،ج3،ص521.

[264] تصغير نخلة ، موضع قرب الكوفة،معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، ج5 ، ص278.

[265] الخلافة الأموية ،الهاشمي ، ص142 .

[266] تاريخ اليعقوبي ، ج3، ص،266 ، الإمامة والسياسة،ابن قتيبة،ص174.

[267] هو خبيب بن عبد الله بن الزبير بن العوام،كان أ سنّ ولد عبد الله،توفي سنة 93ه ولم يعقّب،كان من النّسّاك وعالما بالصلاة قليل الكلام،تهذيب التهذيب،ابن حجر العسقلاني ، ج3 ، ص116.

"هذا والله رأيي"، ثم أقبل على القوم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه،وكان ذلك يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادى الأولى عام 73ه، ولما كبّر أعداؤه–فرحا بمقتله–،قال عبد الله بن عمر: " أنظروا إلى هؤلاء،ولقد كبّر المسلمون فرحا بولادته، وهؤلاء يكبّرون فرحا بقتله"[268].

ودخل الحجاج إلى مكة فبايع من بها من الناس لعبد الملك بن مروان،الذي ندم على مقتل ابن الزبير،كما ندم يزيد على مقتل الحسين [269].(وعلى الرغم من هذه الخلافات الكبيرة التي حدثت بين آل الزبير وبني أمية إلا أنها كانت خلافات في الاجتهاد والرأي، فكل طرف يشعر أن خدمة المسلمين تكون على الطريقة التي يراها والخط الذي ينهجه(...)، ولم تكن جماعة تطعن في دين الأخرى أو تتهمها، وإنما كان الناس يقاتلون مع أمرائهم ومن غلب على مصر أصبح عليه أميرا وأطاعه أهله،وعلى كل كانت فتنة أضعفت شأن المسلمين فقتلت الأعداد منهم،وأطمعت فيهم أعداءهم،وخاصة الروم)[270].

الفرع الثاني:الدعوة العباسية.

وينتسب دعاتها إلى العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم،وهؤلاء:(يرون أن الخلافة ميراث أدبي ، وأولى الناس بإرث النبي صلى الله عليه وسلم من قرابته أولاهم بالإرث الأدبي، أي الخلافة، وأولى قرابته العباس عمه وعلي ابن عمه)[271] ،ويستندون في ذلك إلى ما رواه عبد الله بن عباس أن عليا رضي الله عنه خرج من عند النبي صلى الله عليه وسلم في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال:"بحمد الله بارئا"،فأخذ بيده العباس رضي الله عنه فقال: "أنت والله بعد ثلاث عبد العصا،وإني والله لأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتوفى في وجعه هذا،إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت،فاذهب بنا نسأله فيمن هذا الأمر، فإن كان فينا علمناه ، وإن كان في غيرنا كلمناه، فأوصى بنا"،

---

[268] الكامل في التاريخ، ابن الأثير ، ج4 ، ص357.

[269] قال اليعقوبي:"لما أراد عبد الملك الإنصرا ف من الحج عام75ه وقف على الكعبة فقال:والله إنّي لوددت أنّي لم أكن أحدثت فيها شيئا ،وتركت ابن الزبير وما تقلّد"،وفي هذا اعتراف ضمنيّ بخلافة ابن الزبير،أنظر تاريخ اليعقوبي،ج3،ص274.

[270] التاريخ الإسلامي،محمود شاكر،ج4،ص182، 183،وقد طمع الروم في بلاد الإسلام مرتين،مرة في عهد معاوية،وكان ذلك عام 41ه ،فصالح معاوية ملك الروم على مئة ألف دينار،ومرة في عهد عبد الملك،حين أراد إخضاع فلسطين،فصالح ملكها آنذاك على أموال كثيرة ،راجع ذلك في تاريخ اليعقوبي،ج2،ص217/ص269.

[271] التشريع والفقه في الإسلام "تاريخا ومنهجا"، مناع القطان ، ص205.

فقال علي رضي الله عنه: "أما والله لئن سألناه فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده،وإني والله لا أسألها رسول الله صلى الله عليه وسلم"[272].

وذكر الماوردي أن العباس قال لعلي رضوان الله عليهما:"أمدد يدك أبايعك،فيقول الناس عم الرسول صلى الله عليه وسلم بايع ابن عمه،فلا يختلف عليك اثنان" [273]، فرفض علي البيعة تواضعا وورعا.

وبقيت فكرة أهلية الخلافة لآل البيت كامنة في قلوب الكثيرين،ومما سرع بظهورها ما نال آل البيت من أذى على يد بني أمية،وخاصة حادثة مقتل الحسين في كربلاء،فقد نشط عدد من الشخصيات في اتجاه التمكين لشخص من آل البيت،ولقبوه بالرضي من آل البيت،ولم يكن هذا الشخص محدّدا إن كان من نسل علي أو العباس،ولم تكن الدعوة ذات فكر معين،المهم أن يؤخذ الحكم من بني أمية ليسلم لآل البيت،ومن وراء ذلك–طبعا– تكون الحظوة واستغلال النفوذ،كما سبق الحديث عن المختار بن أبي عبيد الذي استغل اسم محمد بن الحنفية للتصدّر والزّعامة .

ولم يكن بنو أمية ليغفلوا عن هذا الأمر،بل كانوا على أشد الحذر فيه،وبالأخص عبد الملك بن مروان الذي استدعى إلى الشام واحدا من أخطر المعارضين من آل البيت،وهو علي بن عبد الله بن عباس[274]،(وأقطعه قرية في البلقاء[275] بشرق الأردن اسمها الحميمة[276]،ولعل اهتمام الأمويين بهذا المكان بالذات،راجع إلى غرض سياسي،أساسه الشك والتوجس في نوايا هؤلاء القوم فجعلوهم تحت إشرافهم ورقابتهم بالشام)[277].

---

[272] رواه البخاري في صحيحه،ج4،ص1615(كتاب المغازي–باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته)، رقم4182.

[273] الأحكام السلطانية ،الماوردي،ص15،قال الحسن بن الحسن بن علي–مفنّدا الرأي الذي يقول بوصية الرسول صلى الله عليه وسلم–:"والله لئن كان الله ورسوله اختارا عليّا لهذا الأمر ثم تركه عليّ ، لكان أوّل من ترك أمر الله ورسوله"،البداية والنهاية،ابن كثير ،ج9،ص141.

[274] هو علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب،أبو محمد:جدّ الخلفاء العباسيين،ولد عام40ه،كان كثير العبادة،فلقّب"السّجّاد"،وكان من أجمل الناس،جليلا مهيبا.قيل للوليد:إنه يزعم أن الخلافة ستصير إلى أبنائه، فأمر به فضرب بالسياط وأهين،واعتقله هشام بن عبد الملك في البلقاء ،فمات معتقلا،عام118ه،الأعلام،الزركلي،ج4،ص302، 303.

[275] من أعمال دمشق ووادي القرى،معجم البلدان،ياقوت الحموي،ج1،ص489.

[276] من أعمال عمّان في أطراف الشام،المصدر السابق نفسه، ج2،ص307.

[277] في التاريخ العباسي والفاطمي،العبادي،ص17،وما بعدها.

وبعد وفاة محمد بن الحنفية عام 81ه ، ادعى البعض أن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه عبد الله المعروف باسم أبي هاشم [278] وكان أبو هاشم هذا من أشد المعارضين للسياسة الأموية،حتى ذاع صيته ووصل خبره إلى سليمان بن عبد الملك،فدس له السم،ولما شعر بدنوّ أجله،عهد بالأمر لابن عمه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس[279] وأوصاه بآل البيت خيرا.

ومنذ سنة100ه بدأ العمل الجاد للدعوة ، فوجه محمد بن علي مولاه ميسرة [280] إلى العراق وأرسل أبا محمد الصادق إلى خراسان ،فاختار له اثني عشر نقيبا وكان يأخذ من أتباعه خمس الأموال،يدفعونها إلى النقباء الذين ينقلونها بدورهم إلى الإمام،الذي ينفقها في نشر الدعوة وما يرى فيه مصلحة،وهكذا بدأ يتعاظم دور هؤلاء ومن جاء بعدهم،حتى استطاعوا بعد سنين قليلة القضاء على الدولة الأموية،وبناء الدولة العباسية على أنقاضها[281].

الفرع الثالث:حدود الفتح الإسلامي[282]:

جاء الإسلام يدعو الناس إلى دين التوحيد، والتخلق بالأخلاق الحسنة كالمساواة والعدالة والرحمة، فواجهته قوى الشر بالصدّ والتكذيب والعداوة.وكان المسلمون في بداية نشأتهم مستضعفين فلم يؤمروا بقتال،وإن كان الكثير من الصحابة الكرام متحمسين للمواجهة والصدام مع كفار قريش.وبهجرة النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته إلى المدينة المنورة،وبقيام دولة الإسلام هناك،تحالف أعداء الداخل من اليهود والمنافقين مع أعداء الخارج من كفارالعرب والفرس والروم

---

278 هو عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب،أبو هاشم:أحد زعماء العلويين في العصر المرواني،ترى طائفة من الشيعة أن عليا أوصى إليه بالإمامة بعده،وكان عالما بكثير من المذاهب والمقالات،ثقة في روايته الحديث،مات عام99ه،الأعلام،الزركلي،ج4،ص116.

279 هو محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب،الهاشمي القرشي:أول من قام بالدعوة العباسية،وهو والد السفاح المنصور،ولد عام62ه بدأ دعوته سنة100ه،وكان عاقلا حليما وسيما،مات بالشراة،عام125ه،المرجع السابق نفسه،ج6،ص271.

280 هو ميسرة بن حبيب النهدي، ثقة كوفي،روى عن المنهال بن عمرو، وهو في عداد الشيوخ،معرفة الثقات، العجلي ، ،تحقيق عبد العليم البستوي،مكتبة الدار،المدينة المنورة،ط1، 1405هـ–1985م، ج2،ص306.

281 البداية والنهاية،ابن كثير،ج9،ص157،التاريخ الإسلامي،محمود شاكر،ج 4،ص252. تاريخ اليعقوبي،ج 3،ص297 وما بعدها،وقد ذكر فيها صيغة وصيّة أبي هاشم ،ولقد رد الصلابي على أولئك الباحثين الذين يزعمون أن الدعوة العباسية هي ثورة فارسية ضد السيادة العربية ،التي تمثلت في الخلافة الأموية،أنظر صفحات مشرقة،ج2،ص294،295.

282 راجع العنوان:(الفتوحات الإسلامية معجزة التاريخ الإنساني الكبرى)،من كتاب:(في التاريخ الإسلامي) ، شوقي أبو خليل ، دار الفكر،دمشق،ط2، 1999م، ص273وما بعدها،وراجع الفصل الثالث بعنوان:(عندما يشهر سيف الإسلام)،من كتاب:(مواطنون لا ذميون)، فهمي هويدي ، دار الشروق،بيروت،ط1، 1405هـ–1985م، ص238وما بعدها.

لإجهاض مشروع الدولة الإسلامية الفتية، فنزلت الآيات القرآنية الكريمة تحث النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على الدفاع والجهاد في سبيل الله،من أجل غاية واحدة وهي:إعلاء كلمة الله وحده[283].

قال الله تعالى:(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير*الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع[284] وبيع[285] وصلوات[286] ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز* الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور*)[287].

والعبارة "يقاتلون"أي:يضطهدون ويعذبون،فلابد من رد المثل بالمثل ف(من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)[288]، وكذا (بأنهم ظلموا) أي في مكة،وكذا (أخرجوا من ديارهم)، وليس هناك ظلم أشد من إخراج الإنسان من وطنه وتشريده عن أرضه،والغرض من الجهاد هو التمكين لدين الله الذي ذكره في قوله تعالى:(الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة).

---

[283] يحلو للحاقدين من المستشرقين وغيرهم أن يصفوا الفاتحين من المسلمين بالبداوة والطمع،من ذلك ما قاله ألفرد بل من أن:"الدافع الرئيسي لاندفاع جموع الأعراب البدو المولعين بالنهب والمغامرات ،نحو الأراضي الخصبة المحيطة هو وفرة الغنيمة في الحرب والرواتب المضمونة من بيت المال في السلم"،أنظر كتابه:الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ،ترجمة عبد الرحمان بدوي،دار الغرب الإسلامي،بيروت،ط3، 1987م، ص48 ، ولعلّ أبلغ ردّ على هذا ما قاله علي بن أبي طالب لقائد جيوشه الأشتر النّخعي:"وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج،لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة،ومن طلب الخراج بغير عمارة،أخرب البلاد وأهلك العباد،ولم يستقم أمره إلاّ قليلا"، وما قاله ربعيّ بن عامر لرستم –قبيل موقعة القادسية–:" إنّا لم نأتكم لطلب الدنيا، ووالله لإسلامكم أحبّ إلينا من غنائمكم"،وما قاله عبادة بن الصامت للمقوقس:"إنما رغبتنا وهمّتنا في الله واتّباع رضوانه،وليس غزونا لعدوّنا ممن حارب الله لرغبة في دنيا،ولا طلبا للاستكثار منها،لأنّ غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها،يسدّ بها جوعه لليله ونهاره،وشملة يلتحفها(...)لأنّ نعيم الدنيا ليس بنعيم،ورخاءها ليس برخاء،إنّما النعيم والرّخاء في الآخرة " ، أنظر كتاب :العلاقات الدولية في الإسلام"مقارنة بالقانون الدولي" ، وهبة الزحيلي ، ،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط 4، 1417هـ–1997م، ص128، 129، طالع موضوع : (الغزو الثقافي في المجال التاريخي) ، كتاب الأصالة "محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي"، عبد الحليم عويس ، "،بجاية،الجزائر،1405هـ–1985م، ج1، ص327 وما بعدها.

[284] ج صومعة:منار الراهب،صومعة النصارى،لسان العرب،ابن منظور،ج8،ص208.

[285] ج بيعة :كنائس النصارى،وقيل لليهود،المصدر السابق نفسه،ج2،ص26.

[286] كنائس اليهود،أي مواضع الصلوات،وبالعبرانية صلوتا،وقيل مواضع صلوات الصابئين،المصدر السابق نفسه،ج14،ص466.

[287] سورة الحج/39، 40، 41.

[288] سورة البقرة / 194 .

وقد لخّص الدكتور مصطفى السباعي [289] رحمه الله فوائد الجهاد من خلال الآية الآنفة الذكر في العناصر التالية :

"أ/ نشر السمو الروحي في العالم عن طريق العبادة (أقاموا الصلاة).

ب/ نشر العدالة الاجتماعية بين الشعوب عن طريق الزكاة (وآتوا الزكاة).

ت/ تحقيق التعاون على الخير وكرامته ورقيه (وأمروا بالمعروف).

ث/ وللتعاون على مكافحة الشر والجريمة والفساد (ونهوا عن المنكر)".

ثم يقول:"وأي قتال عرفته الأمم في القديم والحديث يساوي هذه الغاية في عموم الفائدة للناس جميعا،وبناء المجتمعات على ما يؤدي إلى رقيها وتطورها تطورا إنسانيا،بناء لا رجوع فيه إلى عهد الجاهلية الأولى،من الإباحية والانحلال والإلحاد والحروب وسفك الدماء،كما هو شأن التطور الذي يتم في ظل هذه الحضارة الغربية المادية "[290] .

ولقد كان القتال موجودا قبل الإسلام في المجتمع العربي،وفي غيره من المجتمعات ،ولكنه كان مقصورا على الغزو و الصراع القبلي المحلي، في سبيل الغنائم أو سلب الأراضي وموارد الماء لرعي السوائم،أومن أجل التفاخر بالأنساب.

أما الجهاد في الإسلام فقد ارتقى بهذه القيم التافهة إلى قيم أعلى وأسمى،فحرّر الرّقيق من العبودية و الذل،وحرّر المرأة من الظلم الاجتماعي الذي سلبها حقوقها،وحرر الطبقات الكادحة من عبث الحكام واستغلالهم،ومنع الغش والفساد والخيانة والغدر.

هذه إذن فلسفة الإسلام في القتال،وعلى ذلك كان العمل في العهد النبوي والراشدي،ومن جاء بعدهم من الخلفاء و الأمراء الصالحين[291].

---

[289] هو مصطفى بن حسني السباعي،من مواليد مدينة حمص في سورية،عام1915م، شارك في مقاومة الاحتلال الفرنسي لبلاده،فاعتقل بسبب ذلك عام1931م،قاد كتائب المجاهدين السوريين في حرب فلسطين عام1948م،كان أول عميد لكلية الشريعة بدمشق عام1955م،له عدة مؤلفات،منها:(السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي)،(هكذا علمتني الحياة)...توفي بدمشق عام 1964م ، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة ، عبد الله عقيل ، دار التوزيع والنشر الإسلامية،القاهرة،ط 1، 1423هـ-2002م،ص537.

[290] السيرة النبوية "دروس وعبر"، مصطفى السباعي ،ص114وما بعدها.

[291] الإنسان العربي و التاريخ ، أنور الرفاعي ، دار الفكر،بيروت،1971م، ص 115 ،و قد ذكر عبد الرحمان بن خلدون أن الحروب بين البشر دافعها إرادة الانتقام والتعصّب،وهي- حسبه- أمر طبيعي في البشر،لا تخلو عنها أمّة من الأمم و لاجيل من الأجيال،ثم ذكر أربعة أنواع من القتال،منها الجهاد الإسلامي، الذي وصفه بأنه حرب عادلة،أنظر المقدمة ، ص 303 ، 304 .

ومن أجل ذلك زحف المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها برا وبحرا ، يبلغون رسالة الله إلى العالمين بالكلمة الطيبة والجهاد النظيف الشريف،حتى تمكنوا من دك حصون كسرى وقيصر ودخل الناس أفرادا وجماعات،اختيارا وطواعية،في دين الله أفواجا[292].

وكانت أزهى عهود الفتح وأوسعها تلك التي حدثت في عهد عمر بن الخطاب والوليد بن عبد الملك ، بسبب الاستقرار السياسي والاجتماعي والسلم الذي عمّ أرجاء الولايات الإسلامية[293].

فوصل قتيبة بن مسلم الباهلي في عهد سليمان بن عبد الملك إلى حدود الصين،ومحمد بن القاسم في عهده أيضا إلى الهند شرقا،ووصل موسى بن نصير بعد فتح بلاد الأندلس إلى جنوب فرنسا غربا، بل وهمّ الرجل أن يواصل فتوحه مارا بالقسطنطينية حتى يصل إلى حاضرة الخلافة الإسلامية:دمشق، لولا أن الوليد نهاه عن ذلك وأمره بالعودة لطفا بالجيش الإسلامي، وخوفا من أن يستأثر موسى بن نصير بتلك البلاد[294]. ولما كانت ولاية سليمان بن عبد الملك قصيرة(96ه – 99 ه)، فلم تكن هناك فتوح ذات شأن يذكر،اللهم إلا ما كان من فتح بلاد جرجان [295] وطبرستان[296] على يد يزيد بن المهلب أمير بلاد المشرق،وقد أقسم سليمان على فتح القسطنطينية أو الهلاك دونها فمات رحمه الله في الطريق إليها[297].

---

[292] – أنظر كتاب: معاوية بن أبي سفيان،بسام العسلي،ص40،41،وتاريخ الشعوب الإسلامية،كارل بروكلمان ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي،دار العلم للملايين،بيروت،ط13، 1988م ،ص125، 126،وإنّ الذي يفسّر حرص معاوية والذين جاؤوا من بعده،على فتح بلاد الروم،هو ما ورد بشأنها من أحاديث شريفة، منها قوله صلى الله عليه و سلم: <<أوّل جيش من أمتي يغزو ن مدينة قيصر،مغفور لهم>>،رواه البخاري عن أم حرام بنت ملحان،ج3،ص1069،(كتاب الجهاد والسير–باب ما قيل في قتال الروم)،رقم2766،وقوله صلى الله عليه وسلم:<<لتفتحنّ القسطنطينية،ولنعم الأمير أميرها،ولنعم الجيش ذلك الجيش>>،رواه الحاكم في المستدرك،عن بشر الغنوي،ج4،ص468،(كتاب الفتن والملاحم)،رقم8300.

[293] قال السيوطي: " قال الذهبي : أقام – أي الوليد بن عبد الملك – الجهاد في أيّامه،وفتحت فيها الفتوحات العظيمة، كأيّام عمر بن الخطاب"،تاريخ الخلفاء،ص179.

[294] راجع فتوح قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم وموسى بن نصير في كتاب تاريخ الإسلام،حسن إبراهيم حسن،ج1،ص300 وما بعدها، وما تخوّف منه الوليد من استئثار موسى ببلاد المغرب والأندلس،قد وقع فعلا بعد ذلك،يقول موسى لقبال:" فكان والي إفريقية بعد ذلك يتمتّع بسلطات واسعة،ينظر في تدبير الجيوش وفي الأحكام ويقلّد القضاة والعمّال،ويرعى شؤون الخراج والصدقات،ويقلّد عمّالها"،تاريخ المغرب الإسلامي، ص137، ثمّ ذكر أنّ ذلك كان سببا في استقلال تلك البلاد فيما بعد عن دمشق .

[295] مدينة عظيمة مشهورة بين طبرستان وخراسان،معجم البلدان،ياقوت الحموي،ج2،ص119.

[296] بلاد فارسية واسعة كثيرة من أعيان بلدانها(جرجان– استرابان)،المصدر السابق نفسه،ج4،ص13.

[297] البداية و النهاية ، ابن كثير،ج9،ص151.



*أنظر أطلس التاريخ العربي الإسلامي,شوقي أبو خليل,دار الفكر ،دمشق،سورية،ط2005،12م،ص47.

المطلب الثاني :الحياة الاجتماعية.

عاش المجتمع الإسلامي في ظل الحكم النبوي أزهى عصوره،بموجب تعاليم المنظومة الأخلاقية والفكرية والسلوكية،التي دعا إليها النبي صلى الله عليه وسلم وربى عليها جيلا من الصحابة،وكان مثالا ممتازا ونموذجا حسنا لما ينبغي أن يكون عليه أتباع دين الإسلام، وكان أحدهم بحكم بشريته إذا زل الزلة أو تلبّس بالخطيئة سرعان ما يثوب إلى رشده، فيتوب إلى الله عز وجل،و إن كان الخطأ متعلقا بأحد إخوانه طلب العفو والصفح منه [298]،ولم يسجل التاريخ في حياة الصحابة في ذلك العصر إلا النزر اليسير من تلك الأخطاء ، وبوفاة النبي صلى الله عليه وسلم وبامتداد رقعة الدولة الإسلامية بسبب الفتوحات التي دخل بها كثير من الناس في دين الإسلام- وربما كان إسلام بعضهم نفاقا للنيل منه ومن أتباعه حقدا ومكرا- ،ظهرت في المجتمع ثقافة الصراع الفكري والقبلي والنزاع الدموي وشاعت فيه رذائل الجاهلية،من غناء ومجون وترف،ونال فيه أهل الصلاح والتقوى والمستأمنين [299]، وحتى قادة الفتح الإسلامي من الأذى والظلم،ما جعل صورة الإسلام الناصعة البيضاء تبدو في نظر الكثير ممن عاصروا تلك الحقبة ومن جاء بعدهم سوداء قاتمة، وسوف أذكر بعض المظاهر الاجتماعية التي أدركها عمر بن عبد العزيز،وورثها تركة ثقيلة وأمانة عظيمة،سواء في الاتجاه الإيجابي الذي عمل على تطويره وتنميته،أو الاتجاه السلبي الذي عمل على تقويمه وإصلاحه.

الفرع الأول :الحياة الفكرية.

دعا الإسلام إلى حرية التفكير وإعمال العقل واعتبر ذلك أعظم عبادة، تقود المرء إلى كشف الحقائق الإيمانية والكونية،قال تعالى:(قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)[300] . وقال تعالى: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم

---

[298] كنموذج على ذلك توبة الغامدية التي زنت،أنظر خبرها في صحيح مسلم،عن بريدة،ج3،ص1323،وما قاله أبو ذر لبلال حين عيّره بسواد بشرته،وكان ذلك بحضرة النبي عليه الصلاة والسلام،فقال-مغضبا-:<<يا أباذر أعيرته بأمه؟إنك امرؤ فيك جاهلية>>،فما كان من أبي ذر إلا أن بادر إلى طلب العفو من بلال ،والحديث رواه البخاري،عن المعرور بن سويد،عن أبي ذر،ج1،ص20،(كتاب الإيمان-باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك)،رقم30.

[299] استأمن:دخل في أمانه،والمستأمنون:الذين دخلوا في عقد الأمان، ومنهم أهل الذمة،لسان العرب، ابن منظور، ج 13، ص22.

[300] سورة يونس / 101 .

أنه الحق)[301].وقال صلى الله عليه وسلم:<<طلب العلم فريضة على كل مسلم>>[302]. وقال عليه السلام:<< تفكّروا في خلق الله ولا تتفكروا في الخالق>>[303].

وكان أول ما نزل من القرآن يدعو إلى القراءة والعلم،ولذلك دأب الصحابة والتابعون على تعلم العلم وتعليمه،ولم تقتصر علوم الإسلام على المباحث الدينية والعقائدية،بل تجاوزتها إلى علوم الكون ، وقد أفاد المسلمون كثيرا –بفضل التوسع والفتح– من علوم الفـــــرس و الرومان واليونان وغيرهم،فظهرت بذلك حضارة الإسلام التي ظلت تحكم العالم روحيا وماديا ردحا طويلا من الزمن.

1–المذاهب العقائدية :

كان لدخول كثير من أهل الديانات السابقة,من يهود ونصارى ومجوس إلى دين الإسلام,الأثر البالغ في ظهور كثير من الفرق الدينية,التي اتخذ بعضها الشكل السياسي والعسكري ,وبعضها اعتمد في نشر أفكاره على أسلوب المجادلات الكلامية,والذي أفرز عدة فرق, كفّر أو بدّع بعضها البعض الآخر[304],وأهم هذه الفرق التي ظهرت قبل ولاية عمر بن عبد العزيز:

أ/الجبرية :

كانت أولى المسائل التي ظهرت على ألسنة مشركي قريش هي مسألة الجبر [305]، وذلك حينما زعموا أن كفرهم بالله وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو بقدر الله تعالى، وأنه لا حيلة

---

[301] سورة فصّلت / 53 .

[302] رواه ابن ماجة في سننه، عن أنس بن مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر ، بيروت ،ط2، ج1،ص81،رقم224.

[303] رواه الربيع بن حبيب الأزدي في مسنده،عن ابن عباس، تحقيق محمد إدريس وعاشور بن يوسف،دار الحكمة،بيروت،ط 1، 1415هـــ، ج1،ص309، رقم823.

[304] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :<<افترقت اليهود على إحدى و سبعين فرقة،و افترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة،وستفترق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة >>، رواه ابن حبان في صحيحه،عن أبي هريرة،ج14،ص140،(ذكر افتراق اليهود والنصارى فرقا مختلفة)،رقم6247. قال عبد القاهر البغدادي: "فصحّ تأويل الحديث المرويّ في افتراق الأمة ثلاثا وسبعين فرقة إلى هذا النوع من الاختلاف، دون الأنواع التي اختلفت فيها أئمّة الفقه من فروع الأحكام في أبواب الحلال والحرام،وليس فيما بينهم تكفير ولا تضليل، فيما اختلفوا فيه من أحكام الفروع"، الفرق بين الفرق ، ص11.

[305]يستحسن الرجوع إلى المناظرة التي توهّمها ابن قيم الجوزية بين جبري وسنّي،في كتابه: شفاء العليل ، تحقيق أبو فراس النعساني،دار الفكر،بيروت،ط1، 1998م ،ج1، ص139وما بعدها.

لهم في ذلك،عبّر عن ذلك القرآن الكريم فجاء في قوله تعالى:(سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء)[306].

(وقد نهى النبي صلى الله عليه و سلم عن الخوض فيه مع وجوب الإيمان به،فقد ورد في حديث سؤال جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم حين قال:"أخبرني عن الإيمان"،فقال:<<أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر،والقدر خيره وشره>> [307]. والإقرار بالقدر نوع من الإذعان لله والإقرار بإحاطة علمه بكل شيء، وتقديره في الأزل كل ما هو كائن على مقتضى حكمة الله تعالى)[308] .

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بظهور هذه الفرقة،ووصفهم بأنهم مجوس هذه الأمة،فعن الحسن أن رجلا من فارس جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له:"رأيت أهل فارس ينكحون بناتهم وأخواتهم فإن قيل لهم:لم تفعلون؟ قالوا:قضاء الله وقدره، فقال عليه الصلاة والسلام:<<سيكون في أمتي من يقولون مثل ذلك وأولئك مجوس أمتي>> [309]،وقد اتخذ الحكام الأمويون موضوع الجبر ذريعة للاستئثار بالحكم والبقاء فيه،ذلك أنه:(حينما استقر الأمر لمعاوية،بعد الاتفاق الذي حصل بينه وبين الحسن بن علي رضي الله عنهما، أراد معاوية أن يثبت في أذهان الناس أن إمرته على المسلمين إنما كانت بقضاء الله وقدره، فأشاع الفكرة وشجع مذهب الجبر)[310]. وكذلك فعل خلفاء بني أمية بعده،ليبرر الجبر ما يأتون من مظالم،وليرى الناس أن ذلك من قدر الله،ولا سلطان لهم في رده.ويقال أن أوّل من دعا إلى هذه النّحلة من المسلمين: الجعد بن درهم[311] ،وقد تلقّاه عن يهودي بالشام،ونشره بين الناس بالبصرة، ثم تلقّاه عنه الجهم بن صفوان[312].

---

306 الأنعام / 148 .

307 رواه مسلم عن عمر بن الخطاب،ج1،ص37،(كتاب الإيمان–باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان)، رقم8.

308 تاريخ المذاهب الإسلامية،محمد أبو زهرة،ص98 .

309 وقد ورد بلفظ :<< لكلّ أمة مجوس، وإنّ مجوس أمتي القدرية>>،رواه الهيثمي في مجمع الزوائد،عن سهل بن سعد الساعدي،ج7،ص207،(باب الإيمان بالقدر)،وانظر تاريخ المذاهب الإسلامية،أبو زهرة،ص101.

310 التفكير الفلسفي في الإسلام ، عبد الحليم محمود ، دار الكتاب اللبناني،بيروت،1402هـ–1982م، ص203.

311 هو مولى سويد بن غفلة،مبتدع ضال له أخبار في الزندقة،عاش في جزيرة الفرات،وكان يقول بخلق القرآن والقدر،وزعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا،ولم يكلم موسى تكليما،الأنساب،عبد الكريم السمعاني ،تقديم وتعليق عبد الله البارودي،مؤسسة الكتب الثقافية،دار الفكر،بيروت،ط1، 1419ه،1998م، ج2 ، ص133، 134، لسان الميزان ، ابن حجر،دار الفكر،بيروت، ج 2 ، ص105.

312 وهو الجهم بن صفوان السمرقندي،أبو محرز،من موالي بني راسب:رأس"الجهمية"،قال الذهبي:"الضّال المبتدع،هلك في زمان صغار التابعين وقد زرع شرا عظيما"،قتله نصر بن سيارعام128ه،الأعلام، الزركلي،ج2،ص141.

وقد تعجّب بعض العلماء في تسميتهم القدرية،مع أنهم نفاة للقدر ،فكيف تصح نسبتهم إليه،فقال قوم إنه لا مانع من أن ينسبوا إلى ضد ما يقولون،فبضدها تعرف الأشياء،وقال آخرون بأن آراءهم تقارب آراء المجوس،الذين ينسبون الخير إلى الله والشر إلى الشيطان،ولذلك وصفهم الرسول بأنهم مجوس أمة الإسلام[313].

وبالجملة فإن قوام هذا المذهب: (نفي الفعل حقيقة عن العبد،وإضافته إلى الرب تعالى،إذ العبد لا يوصف بالاستطاعة،وإنما هو مجبور في أفعاله،لا قدرة ولا إرادة ولا اختيار ،وإنما يخلق الله سبحانه و تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات،وكما يقال:أثمرت الشجرة،أو جرى الماء،أو تحرك الحجر وطلعت الشمس وغربت، وتغيمت السماء وأمطرت،وأزهرت الأرض و أنبتت...، إلى غير ذلك ،والثواب والعقاب جبر فالتكليف أيضا كان جبرا)[314].

ب/القدرية:

خاض المسلمون في القضاء و القدر في آخر عصر الراشدين وعصر الأمويين،وغالى قوم فنفوا أن يكون للإنسان إرادة فيما يفعل،وهؤلاء هم الجبرية،وغالى آخرون فقالوا إن كل فعل للإنسان هو إرادته المستقلة عن إرادة الله سبحانه وتعالى،ونفوا عن الله صفة القدر ،بمعنى علمه وتقديره للأمور ،وحاصل قولهم هو نفي الإرادة الأزلية ونفي العلم الأزلي القديم،وبالتالي يخرج الإنسان عن نطاق القدرة الإلهية وهؤلاء هم القدرية،وكان القدر يشتد كلما اتسع نطاق الفتن،ففي عهد علي كرم الله وجهه ظهر القول بالقدر ،ومن ذلك أن شيخا قام إليه فقال:"أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء الله وقدره؟" فقال علي: "والذي فلق الحبة وبرأ النسمة،ما وطئنا موطئا،ولا هبطنا واديا إلا بقضاء الله وقدره" فقال الشيخ: "فعند الله أحتسب عناي، ما أرى لي من الأجر شيئا"،أي أنه مادام كل شيء مكتوب فلم كان الجهاد؟وهذا هاجس يعتري كثيرا من الناس،ولذلك جاء الرد على هذه الشبهة من علي فقال:"مه أيها الشيخ،لقد عظم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون،وفي منصرفكم وأنتم منصرفون،ولم تكونوا في شيئ من أحوالكم مكرهين ولا مضطرين" ، فقال الشيخ: "وكيف والقضاء والقدر ساقانا؟"، فيزيده الإمام توضيحا،فيقول: "ويحك لعلك ظننت قضاء لازما وقدرا

---

313 أنظر تاريخ المذاهب الإسلامية ، أبو زهرة ، ص 110 .

314 الملل والنحل ،الشهرستاني،ج1، ص110، 111.

حتما،ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب والوعد والوعيد والأمر والنهي،ولم تأت لائمة من الله ولا محمدة لمحسن، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء، ولا المسيء أولى بالذم من المحسن". ثم أوضح له أنه ما يعتقد ذلك المعتقد الباطل ، ولا يقول به إلا أهل الضلال والعمى،وأنهم المقصودون بقدرية ومجوس هذه الأمة،ثم قال: "إن الله أمر تخييرا،ونهى تحذيرا،وكلف تيسيرا،ولم يعص مغلوبا،ولم يطع كارها،ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثا،ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا،(ذلك ظنّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النّار) [315]". ثم استوضح الشيخ الإمام أكثر قائلا: "فما القضاء والقدر اللذان ما سرنا إلاّ بهما؟"، فقال علي: "هو الأمر من الله تعالى والحكم.ثم تلا قوله تعالى: (وقضى ربّك ألاّ تعبدوا إلاّ إيّاه) [316]".فنهض الشيخ مسرورا[317].

وكان أوّل من تكلّم في القدر معبد الجهني البصري[318] ،وقد أخذه عن رجل مسيحي من أهل العراق يدعى سوسن[319]،الذي أظهر الإسلام نفاقا،(ونفث في صدره سمومه وعلّمه القول بالقدر،وزينه له فكان معبد هذا أول من قال بالقدر في الملة المحمدية،وقدم المدينة المنورة فأفسد بها ناسا كثيرين، فاشتغل أهل زمانه بتحذير الناس منه،فروي أن ابن عمر رضي الله عنهما حين بلغه شأنه أعلن البراءة منه،وروي أن الحسن البصري كان يقول:"إياكم ومعبدا فإنه ضال مضل"،وروي أن مسلم بن يسار كان يجلس إلى سارية في المسجد ويقول: "إن معبدا يقول بقول النصارى"،ومازال كذلك حتى أخذه عبد الملك بن مروان في سنة 80ه، فقتله وصلبه بدمشق.

---

315 سورة ص/27.

316 سورة الإسراء /23.

317 تاريخ المذاهب الإسلامية،محمد أبو زهرة،ص99، 100.

318 هو معبد بن عبد الله بن عليم الجهني البصري:أول من قال بالقدر في البصرة،انتقل إلى المدينة المنورة،ونشر بها مذهبه،وقيل قتله الحجاج،بعد أن عذّبه،عام80ه،الأعلام، الزركلي،ج7،ص264.ذكر ابن كثير أن عمرو بن العاص قال لمعبد الجهني:" أيها يا تيس جهنية، ما أنت من أهل السر والعلانية،وإنّه لا ينفعك الحق ولا يضرّك الباطل"،قال ابن كثير:"وهذا توسّم فيه من عمرو بن العاص،ولهذا كان هو أوّل من تكلّم في القدر"، البداية والنهاية،ج9،ص29 .

319 قال الأوزاعي–عنه–:"أوّل من نطق في القدر"،من نصارى العراق،سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط9، 1413هــ، ج4 ، ص187.

أخذ مقالة القدرية عن معبد غيلان الدمشقي [320] ،الذي تولى الدعوة إليها في دمشق، وقد تبرأ المتأخرون من الصحابة من القدرية وأوصوا أتباعهم أن لا يسلّموا عليهم ولا يصلّوا على جنائزهم،ولا يعودوا مرضاهم[321] .

ت/المرجئة:

كثر الكلام والطعن في آخر خلافة عثمان عن الأعوان والولاة الظلمة،فظهرت الفتن التي أودت بحياته،وفي أثناء تلك الفتن والمجادلات حول موقف عثمان من عماله،اعتصم كثير من الصحابة بالصمت،ولم يشاءوا الخوض في ذلك،ووقفوا الموقف نفسه في فتنتي صفين والجمل،وأرجأوا أمر المتقاتلين إلى الله عز وجل،ملتزمين في ذلك بنص حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه:<< ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم،والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي، ومن يشرف لها تستشرفه ،ومن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به>>[322] .

وكان أول من وضع رسالة في الإرجاء الحسن بن محمد بن الحنفية[323] ،ثم ندم على ذلك،لأن الناس لم يفهموا كلامه وتأولوه على غير وجه حق،ومما جاء في كتابه الذي أمر أن يقرأ على الناس:"...أما بعد فإنا نوصيكم بتقوى الله – فذكر كلاما كثيرا في الموعظة والوصية لكتاب الله واتّباع ما فيه وذكر اعتقاده،ثم قال في آخره–: ونوالي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما،ونجاهد فيهما لأنهما لم تقتتل عليهما الأمة،ولم نشك في أمرهما، ونرجيء من بعدهما ممن دخل في الفتنة، فنكل أمرهم إلى الله ...إلى آخر الكلام"[324].

---

[320] هو غيلان بن مسلم الدمشقي:كاتب،من البلغاء،تنسب إليه فرقة "الغيلانية"من القدرية.وهو ثاني من تكلم في القدر ودعا إليه.وله رسائل،في نحو ألفي ورقة،أفتى الأوزاعي بقتله،فصلب عام105ه،الأعلام ،الزركلي،ج5،ص124.

[321] مقالات الإسلاميين،الأشعري،ص10،تاريخ المذاهب الإسلامية،أبو زهرة،ص111،الفرق بين الفرق ، البغدادي،ص 20،ذكر الشهرستاني أ نّ القول بالقدر كان أوّل مسائل المعتزلة فيما بعد،أنظر الملل و النحل،ج 1،ص 32.

[322] رواه البخاري عن أبي هريرة،ج3،ص1318،(كتاب المناقب– باب علامات النبوة في الإسلام)،رقم3406.

[323] هو الحسن بن محمد بن الحنيفة:تابعي،كان من ظرفاء بني هاشم وأفاضلهم،توفي في المدينة،عام100ه،الأعلام،الزركلي،ج2،ص212.

[324] ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، سفر الحوالي،ص116، 117.

ويرى أبو الأعلى المودودي[325] أن آراء المرجئة لم تكن تختلف عن آراء عامة المسلمين،لكنّه لمّا راح الشيعة والخوارج يخوضون في مسائل الاعتقاد،تكونت لهم أيضا نظريات دينية مستقلة،وقد ظهرت هذه الفرقة في دمشق –حاضرة الأمويين– بتأثير بعض الأفكار المسيحية خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري،(وقد سميت هذه الطائفة المرجئة من الإرجاء وهو التأخير،لأنهم يرجئون الحكم على العصاة من المسلمين إلى يوم البعث،كما يتحرجون عن إدانة أي مسلم مهما كانت الذنوب التي اقترفها(...) وقد غلا جهم بن صفوان أحد رؤوس المرجئة،فزعم أن الإيمان عقد بالقلب،وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية،وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانية في دار الإسلام،وعبد الصليب وأعلن التثليث في دار الإسلام ومات على ذلك،فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل،ولقي الله عز وجل من أهل الجنة !).وذكر أبو الحسن الأشعري أن فرق المرجئة اختلفت إلى اثنتي عشر فرقة ،ليس هذا مجال التفصيل فيها[326].

ث/أهل السنة و الجماعة[327]:

وهم الجماعة الكبرى من أهل الإسلام,وتضم أنصار بني أمية والموالي ، كما تضم المرجئة وأهل الحديث والفقهاء,ومن ورائهم جماهير الناس الذين كانوا يوالون الحكام رغبة أو رهبة ، ومن هذه الجماعة تألفت القاعدة العريضة للإسلام,وهم في مسألة الإمامة ينزلون إلى حكم الواقع،لأن الشروط النظرية للخلافة كانت كثيرا ما تخترق بحكم القوة والغلبة،فنراهم يجيزون ولاية العهد عندما تحولت الخلافة إلى ملك في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ،ثم سار على هديه

[325] هو الداعية العلاّمة أبو الأعلى المودودي، مفكر إسلامي،ولد في ولاية حيدرآباد،جنوبي الهند سنة 1321ه–1903م،تعلم العربية وعلوم القرآن والسنة،وحفظ موطأ مالك،له عدة مؤلفات،منها:"المصطلحات الأربعة في القرآن الكريم"،"نحن والحضارة الغربية"...،وآخر مؤلفاته:"تفهيم القرآن"،في تفسير القرآن الكريم،توفي عام 1399ه–1979م، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة،عبد الله العقيل، ص331.

[326] الخلافة والملك،المودودي، تعريب أحمد إدريس،شركة الشهاب،باتنة،1988م ،ص114، 115، بتصرف، تاريخ الإسلام،حسن إبراهيم حسن،ج1، ص 417، وأنظر مقالات الإسلاميين،الأشعري،ص197ومابعدها.وقد زعم محمد محيي الدين عبد الحميد –في هامش تحقيقه لمقالات الإسلاميين،ص197–أن المرجئة أربعة أصناف:مرجئة الخوارج/مرجئة القدرية/مرجئة الجبرية/مرجئة خالصة.

[327] أنظر مقالاتهم في:مقالات الإسلاميين،الأشعري، ص 320 و ما بعدها.

ولده يزيد،وكذا أجازوا ولاية العهد لاثنين،كما فعل مروان عندما عهد لابنيه:عبد الملك ومن بعده عبد العزيز،وبشرط أن تتوفّر في المعهود إليه صفات الخليفة الشرعية[328].

2-الحركة العلمية :

لم يقتصر بحث المسلمين على العلوم الدينية فحسب ،بل تجاوزوه إلى البحث في علوم الدنيا، مستفيدين بذلك من علماء النحل المختلفة,الذين احتكوا بهم،بفضل الفتح الإسلامي المبارك,والملاحظ أن تلك العلوم لم يكن لها شأن كبير،بحكم الفتن التي عاشها الصحابة ومن تبعهم, مقارنة مع العصر العباسي الذي تطورت فيه العلوم الدينية والدنيوية على السواء,فنجد مثلا أن علم التفسير كان العلماء يتحرجون من الخوض فيه ورعا وتقوى,فهذا سعيد بن جبير طلب منه رجل أن يفسر له بعض الآيات من القرآن فقال: "لأن تقع بعض جوانبي خير لي من ذلك", وكان التفسير جزءا من علم الحديث إلى زمن طويل،ثم استقل به العلماء بعد ذلك في العصر العباسي . والأمر نفسه يقع في الحديث النبوي، فلم يتجرأ العلماء على تدوينه,جريا على هدي السلف,إلى أن جاء عهد عمر بن عبد العزيز فأمر بتدوينه,وكذا سائر العلوم من نحو وشعر وأدب وفقه وأصول ...فلم تبلغ ما بلغته من التعقيد والتأليف بعد عصر بني أمية, واشتهر من الشعراء يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان و جرير والأخطل والفرزدق,وكانت المنافسة شديدة بين الفرزدق وجرير,وامتاز شعرهما بالهجاء والعنف،كما امتاز بالجودة والإتقان،واستمدت اللغة العربية ثروتها من ذلك السجال الشعري الطويل .وفي مجال التاريخ لم تظهر الموسوعات التاريخية إلا فيما بعد, وقد (ارتبط بالسيرة النبوية فكان الإخباري يحدث بالسند كالحديث بالرواية الشفهية ، ثم دون بعد ذلك).

وفي مجال الترجمة،فقد شهد العهد الأموي حركة بطيئة فيه،وكان ممن اهتم بترجمة المصادر الأجنبية خالد بن زيد ,فإنه (لما يئس من الفوز بالخلافة,انقلب إلى العلم واهتم بترجمة كتب الصنعة (الكيمياء) والطب والنجوم,واستعان في ذلك بجماعة من العلماء اليونان المقيمين في مصر),وأقبل بنفسه على دراسة التراجم الخاصة بالكيمياء ,حتى طمع في تحويـــل المعدن الخسيس إلـــى ذهب.

---

[328] أنظر البيعة في الفكر السياسي الإسلامي، محمود الخالدي ، ص157 وما بعدها،بتصرف .يرى شوقي أبو خليل أن ولاية العهد لاثنين كانت من أ سباب سقوط الدولة الأموية،لأنّها –بحسبه– ورّثت شقاقا ومنافسة بين أفرد البيت الأموي، أنظر كتابه: في التاريخ الإسلامي، ص319 .

وكانت لحركة الترجمة هذه أثرها في بلاد الأندلس,فقد انتقل بموجبها التراث العربي إليها ,فتناوله الأندلسيون بالبحث والدراسة وأضافوا إليه إضافات من عندهم،وخاصة في مجالات الطب والفلسفة والأدب، مما جعل للحضارة الأندلسية شهرة واسعة في بلاد أوربا بعد ذلك[329].

الفرع الثاني : السكان و العمران

إن حديثي عن البيئة الاجتماعية,يلزمني ذكر مكونات المجتمع من حيث الجنس والدين,والعلاقة بين أفراده،وقد كان رعايا الدولة الإسلامية مكونين من العرب والموالي وأهل الذمة,ولكن العرب كانوا هم المستأثرين بمقاليد الحكم و الزعامة، ذلك على الرغم من أن الدين الإسلامي قام على أساس المساواة بين المسلمين كافة لا فرق في ذلك بين عربي وعجمي,يؤيد ذلك ما ورد في القرآن الكريم من الآيات البيّنات التي تجعل التقوى أساس الحكم والتفاضل بين المؤمنين:(إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[330],(إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم) [331] وما أثر عن الرسول أنه قال:<< لا فضل لعربي على عجمي،ولا لعجمي على عربي،ولا أسود على أحمر،ولا أحمر على أسود إلاّ بالتقوى>>[332].

ولقد تعصب بنو أمية للجنس العربي و نظروا إلى غيرهم نظرة الاحتقار والسيادة, وشكلوا طبقة ارستقراطية دونها سائر الطبقات،وقسموا الناس إلى عرب وموالي واعتبروا جميع السكان المحليين الأصليين– من غير العرب – موالي،تماما مثل الفرس والآراميين وبعض المصريين والبربر والترك ،ممّا أثار حفيظتهم و جعلهم ينقمون منهم في كل مرة تحين فيها الفرصة، فكانوا دوما مع الخارجين عن الحكم الأموي [333],فانضمّوا إلى جماعات الخوارج في خراسان و العراق والمغرب,كما انضمّوا إلى جماعات الشيعة الكيسانية بزعامة المختار الثقفي ، واشتــركوا في فتنة عبد الرحمان بن الأشعث[334] ويزيد بن المهلب وفي غيرها من الثورات التي كانت تشن من حين

---

[329] الإنسان العربي والتاريخ،أنور الرفاعي، ص268 ، في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، العبادي، ص34/ ص50، 51 بتصرف،تاريخ الإسلام،حسن إبراهيم حسن، ج1، ص503.

[330] الحجرات / 13 .

[331] الحجرات / 10 .

[332] رواه الهيثمي في مجمع الزوائد،عن أبي سعيد الخدري،ج3،ص266،(كتاب الحج–باب الخطب في الحج).

[333] الإنسان العربي والتاريخ، أنور الرفاعي،ص287.

[334] هو عبد الرحمان بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي:أمير،من القادة الشجعان الدهاة، وهو صاحب الوقائع مع الحجاج، قتله رتبيل ملك الترك غدرا،عام85ه،الأعلام،الزركلي،ج3،ص323.وانظر فتنة ابن الأشعث وحكاية خروجه عن الحجاج وما وقع بسبب ذلك من قتل،كان أهم ضحاياها التابعي الجليل سعيد بن جبير، في البداية و النهاية لابن كثير، ج6، ص30 وما بعدها .

لآخر, قصد القضاء على حكم الأمويين,وبالأخص ما تعلق منها بالدعوة العباسية, فقد كان أكثر أنصارها من الموالي .

و في بلاد الأندلس نرى أن العرب يحرمون البربر بقيادة طارق بن زياد من ثمار الفتح,ويسكنونهم المناطق الجبلية الوعرة المجدبة في الشمال, واستأثروا هـ م بالوديان الخصبة البعيدة عن خطر عصابات المسيحيين, لهذا ثارت ثائرة البربر واستعرت حفائظهم على العرب وأخذوا يناصبونهم العداء والكراهية,كما كانوا– من قبل – يناصبون الروم في بلاد المغرب ومما زاد من حقد الموالي على العرب,ما كان يتغنى به الشعراء من احتقار الموالي,وتعظيم الجنس العربي,فالعربي عندهم خلق ليسود وخلق غيره ليخدم،ولم ينحصر الصراع القبلي هذا بين العرب والموالي,بل كان شديد الحدة بين العرب أنفسهم,فلقد كانت أبرز القبائل المتناحرة:القبيلة اليمنية (الكلبية)والمضرية (القيسية),و كان الولاة أنفسهم إما يمنيين أومضريين،وكثيرا ما كانوا يتحيزون لعصبيتهم,فتقع حروب دامية تنتهي بقتل الوالي نفسه[335].

وأما أهل الذمة فقد كانوا طوائف: منهم المسيحيون والزرادشتيون[336]واليهود والصابئون[337]، وكانوا يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرا في البلاد المسيحية في هذه الأيام,فلقد كانوا أحرارا في ممارسة شعائر دينهم,واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم،وكانوا يعفون في نظير دفعهم الجزية من الخدمة العسكرية،وكان لهم على الحكومة أن تحميهم،كماكانت لهم حرية التدين والحركة وإحياء المناسبات الدينية والعامة،وكان النصارى يرفعون صلبانهم ويتقدمهم رجال الدين بألبستهم الكهنوتية،غير أن الأمر الذي أساء أهل الذمة كثيرا هو أن أمراء بني أمية،ومنهم الحجـاج ، كانـوا يفرضـون الجزيـة حتى على من أسلم منهم ، بحجـة أنهـم ما أسلمـوا إلا

---

[335] قال الدكتور موسى لقبال : "لعبت العصبية القبلية بين الكلبية –اليمنية–والقيسية دورا كبيرا في المشرق، وانتقل الصراع بين هاتين النزعتين إلى إفريقية والأندلس"،تاريخ المغرب الإسلامي،ص139،في التاريخ العباسي والفاطمي،العبادي،ص12.

[336] نسبة إلى زراد شت ،من المجوس فيما يزعمون،يعظّمون الأنوار والنيران والمياه،ولهم شرائع ،الفصل في الملـ ل والأهواء والنحل،ابن حزم ، دار المعرفة،بيروت،1403هـ–1983م، ج1 ، ص35 ، أطلس القرآن "أماكن ، أقوام ، أعلام"، شوقي أبو خليل، دار الفكر،دمشق،ط1، 1420هـ–2000م ،ص144.

[337] قوم يزعمون أنّهم على دين نوح،وقيل جنس من أهل الكتاب يشبه دينهم دين النصارى،والصابىء من يخرج من دين إلى دين،لسان العرب،ابن منظور،ج1،ص107،أطلس الحديث النبوي من الكتب الصّحاح"أماكن وأقوام"، شوقي أبو خليل، ص234.

هروبا من دفعها، وهذا بطبيعة الحال مخالف لهدي الإسلام وسماحته[338] .
وكان من نتائج الفتوحات- خاصة في عهد الوليد بن عبد الملك - أن تدفقت على بيت المال والمسلمين الأموال الضخمة وكثرت السبايا والجواري والخدم،(ولما كان الفراغ والجاه من مقومات حياة الترف،قد انصرفوا إلى سماع الغناء واقتناء الجواري والقيان [339] لملء فراغهم، وكان فن الغناء والموسيقى قد ارتقى في هذا العصر عن طريق الأسرى الذين حملوا معهم- في جملة ما حملوا- موسيقاهم وفنونهم الغنائية،فكثر عدد الموالي المشتغلين بهذا الفن)[340] .
وصارت للمجتمع ثقافة جديدة في المعيشة،لم يكن لهم بها عهد،وإنما وفدت عليهم من خارج أرض الإسلام،فاصطبغوا بصبغتها وانتحلوها،وخاصة أهل الجاه والسلطان الذين صاروا يقربون الفسقة من أهل المجون و الغناء بعد أن كان العلماء والصلحاء هم المقربين . وقد كان الأخطل الشاعر النصراني يدخل على الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وعليه جبة وحرز من الخز وفي عنقه سلسلة بها صليب من الذهب وتتعصّر لحيته خمرا [341] ،ومع ذلك لم ينكر عليه . ولم تقتصر موجة المجون هذه على الشام،حيث حاضرة الخلافة الإسلامية،بل امتدت حتى وصلت بلاد الحرمين، ذلك أن الغناء شاع في العهد الأموي شيوعا كبيرا وكلف الناس به كلفا عظيما،حتى أن مغنيا يدعى(حنين)[342] زار المدينة المنورة لغرض الغناء،فاجتمع الناس في أحد المنازل،ولما امتلأت بالحضور عمد الباقون إلى السطح، فسقط بهم،وماتوا تحت الردم.

---

[338] والدافع إلى ذلك هو خشيتهم من نقصان إيراد بيت المال،أنظر الخلافة والملك،المودودي، ص103.

[339] ج قينة، الأمة المغنية تكون من التزيّن، لسان العرب،ابن منظور،ج3،ص351.

[340] دراسات في تاريخ العرب-تاريخ الدولة العربية-،السيد عبد العزيز سالم ،نشر مؤسسة شباب الجامعة،القاهرة،ج2،ص419.

[341] غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، يوسف القرضاوي ، نشر مكتبة وهبة،القاهرة ،ط3، 1413هـ-1992م،ص68، وكان عبد الملك نفسه يشرب الطلاء، وهي الخمر،فقد قال السيوطي:"كان عبد الملك بن مروان كثيرا ما يجلس إلى أم الدرداء،فقالت له مرّة:"بلغني يا أمير المؤمنين أنك شربت الطلاء بعد النسك والعبادة"،قال:" إي والله والدماء قد شربتها"، تاريخ الخلفاء، ص 172.

[342] هو حنين الحيري،ولد بالحيرة،أحد كبار مغنّي زمانه مع سريج ومعبد والغريض ، كان في العراق ، وكان الثلاثة الآخرون في المدينة ، توفي عام728م ، المنجد في اللغة والأعلام ، ص261 ، وقد بات الجيش الذي بعثه عبد الملك لقتال ابن الزبير في المعازف والخمور ، وكان ذلك في الربذة ، خارج المدينة المنورة ، أنظر الإمامة والسّياسة ، ابن قتيبة ، ص193.

وتغيّرت حياة المجتمع في كل المناحي:في المطعم والملبس والعادات والتقاليد،بما يخالف في كثير من الأحيان هدي الإسلام،ومن ذلك أن(معاوية بن أبي سفيان كان يكثر من الطعام حتى قيل أنه كان يأكل في اليوم خمس أكلات،كما اشتهر سليمان بن عبد الملك بنهمه للطعام)[343].
واتّخذ الناس الدور العالية والقصور الفارهة واستعملوا الخدم من الجواري والعبيد،تشبها بالأمراء والخلفاء،(وكان قصر الخليفة في دمشق غاية في الأبهة،وقد ازدانت جدرانه بالفسيفساء وأعمدته بالرخام والذهب وسقوفه بالذهب المرصع بالجواهر،ولطفت جوه النافورات والمياه الخارجية والحدائق الغناء بأشجارها الظليلة الوارفة،وكان الخليفة يجلس في البهو الكبير،وعلى يمينه أمراء البيت المالك،وعلى يساره كبار رجال الدولة ورجال البلاد،ويقف أمامه من يريد التشرف بمقابلته من رسل الملوك وأعيان البلاد ورؤساء النقابات والشعراء والفقهاء وغيرهم).
وكان من عادتهم التسلية بالصيد وسباق الخيل والرمي،(وكان يزيد بن معاوية من أشدّ الأمويين كلفا بالصيد، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجلاجل المنسوجة منه،ويخص بكل كلب عبدا يقوم على خدمته). وهكذا فقد دلّ كل شيء في هذا المجتمع على أنه قد تدلّى تدليا عظيما، وعلى أن الجاهلية الموتورة قد نهضت تنتصف من الإسلام، وتريد أن تستوفي أربعين سنة مضت في ازدهاره، في بضع سنين[344].
وفي مجال العمران نجد أن الدولة الإسلامية تطورت تطورا هائلا،في قصورها ومساكنها ومساجدها وحصونها وقلاعها،فكانت الأسوار تحيط بالمدن قصد منع العدو من الدخول ويغلقونها إذا قامت ثورة داخل المدينة، ومن أهم المدن التي كانت في العهد الأموي البصرة والكوفة بالعراق،والفسطاط بمصر،ودمشق عاصمة الخلافة الأموية،والقيروان بالمغرب .

[343] مروج الذهب، المسعودي، ج3، ص32، قال السيوطي:"...كان– أي سليمان– من الأكلة المذكورين،أكل في مجلس سبعين رمانة،وخروفا وستّ دجاجات"،تاريخ الخلفاء،ص180،لكن مع ذلك فقد كان ينهى عن الغناء،قال ابن كثير:"سأل سليمان بن عبد الملك عن أصل الغناء،فقيل إنه بالمدينة فكتب إلى عامله بها،وهو أبو بكر بن حزم، يأمره أن يخصي من عنده من المغنّين المخنّثين"،البداية والنهاية، ج9،ص148.

[344] رجال الفكر والدعوة ، أبو الحسن علي الحسني الندوي ، ج 1، ص111، 112، تاريخ الإسلام ، حسن إبراهيم حسن، ج 1، ص538، 539.

وكان من أهم اهتمامات الخلفاء والولاة بناء المساجد وزخرفتها،متأثرين بفن الهندسة والعمارة الرومانية والفارسية،ومن أهمها المسجد النبوي بالمدينة والمسجد الأموي بدمشق،وقد أمر الوليد بن عبد الملك عامله على المدينة آنذاك –عمر بن عبد العزيز– أن يوسع المسجد النبوي،فأدخل حجرات زوجات النبي صلى الله عليه وسلم فيه،فأصبحت مساحته مائتي ذراع على مثلها،واستعان الوليد بملك الروم فأرسل إليه العمال وكانوا أربعين رجلا من الروم و أربعين من القبط , كما أرسل إليه أربعين ألف مثقال من الذهب وأحمالا من الفسيفساء[345].

وفي سنة 77ه هدم عبد العزيز بن مروان جامع مصر,وزيد فيه من جهاته الأربع,أما مسجد دمشق المشهور بالمسجد الأموي,فمضرب المثل في الجمال وحسن الهندسة,وكان أول من اختطه أبو عبيدة بن الجراح,ثم بناه الوليد بن عبد الملك وأتمه من بعده أخوه سليمان بن عبد الملك ، (وقد غلا الوليد في بناء هذا المسجد, فقد كان محرابه مرصعا بالجواهر الثمينة,عليه قناديل الذهب والفضة,ومحلّى بالفسيفساء والسلاسل الذهبية,حتى أن الناس أخذوا يرمونه بقصر النظر والتبذير,وأنه بناه من بيت مال المسلمين، من غير فائدة تعود عليهم من وراء هذا الإسراف).

ويعد مسجد سيدي عقبة الواقع جنوب بسكرة من أقدم الآثار في فن العمارة الإسلامية في إفريقيا, ويعود إلى وقت كانت فيه العمارة لا تزال بسيطة[346].

الفرع الرابع : نماذج من مظالم بني أميّة.

لقد شهد المجتمع الإسلامي في ظل الحكام الأمويين,كثيرا من الممارسات الإدارية التي ضيقت على الناس سبل معاشهم,وقيدت حريتهم وألجأتهم بذلك إلى الخروج والثورة حينا,وحينا آخر إلى التمرد على النظام العام والطعن على الأمراء فولّد ذلك جوا من عدم الثقة بين الراعي والرعية, كان سببا في سقوط الحكم في آخر المطاف وسأورد هنا نماذج قليلة من كثير من تلك المظالم:

[345] تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن،ج1،ص516 وما بعدها بتصرف،البداية والنهاية،ابن كثير، ج9،ص63،بتصرف.

[346] تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص172، تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن، ج1، ص 526، وقد زعم كارل بروكلمان أن الوليد إنما وسّع المسجد الأموي على حساب الكنيسة المسيحية آنذاك، أنظر: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص127/ص141.

1/في سنة74ه سار الحجاج إلى المدينة وأخذ يتعنت على أهلها ويستخف ببقايا من فيها من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم,(وختم على أعناقهم وأيديهم,يذلهم بذلك كأنس وجابر بن عبد الله وسهل بن سعد الساعدي)[347] .

2/ ولما دخل مسلم بن عقبة المدينة المنورة غازيا,قبض على الصحابي الجليل معقل بن سنان- وكان من قادة قومه يوم فتح مكة-،فقال له:"أعطشت يا معقل؟قال:نعم أصلح الله الأمير,قال:حيسوا له شربة من سويق اللوز الذي زودنا به أمير المؤمنين- يقصد يزيد بن معاوية-,فلما شربها قال: رويت؟ قال:نعم, فقال مسلم:أما والله لا تبولها من مثانتك أبدا,فقدم فضربت عنقه,ثم قال: ما كنت لأدعك بعد كلام سمعته منك تطعن به على إمامك",وكان معقل قد طعن بعض الطعن على يزيد قبل ذلك.

3/ ولما أراد عبد الملك بن مروان المسير إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير,أبطأ عليه أهل الشام,(فقال الحجاج سلطني عليهم, فسلطه عليهم,فكان لا يمر على بيت إلا حرقه على أهله, فأصاب الناس من ذلك غلاء في الأسعار,وصعوبة في الحال وشدة من الزمان)[348].

4/ و لما فرغ موسى بن نصير من أمر الأندلس , أمره الوليد بالرجوع إلى الشام سريعا, وكان الوليد حينها مريضا , فطمع أخوه سليمان في موته , فأمر موسى بالإبطاء في القدوم إلى دمشق , رغبة في الغنائم الكثيرة التي بلغه أنه أحرزها من غزوه لبلاد الأندلس , لكن موسى لم يلب رغبة سليمان و قدم دمشق و دخل على الوليد , الذي قسم الغنائم قبل موته ,فحنق سليمان على موسى حنقا شديدا ,فلماولي الخلافة بعث إليه،(فأتي به, فعنفه بلسانه, وكان فيما قال له يومئذ : أعليّ اجترأت , وأمري خالفت؟ والله لأ قللن عددك ولأفرقن جمعك ولأبددن مالك , وأضعنّ منك ما كان يرفعه غيري ممن كنت تمنيه أماني الغرور, و تخدعه من آل أبي سفيان , وآل مروان)[349]، ثم أمر به أن يوقف في الشمس في يوم صائف شديد الحر ، وكان بموسى ضيق التنفس ، فخرّ مغشيا عليه،وكان عمر بن عبد العزيز حينها حاضرا ،فقال : "ما مر بي يوم كان أعظم عندي ولا كنت فيه أكرب من ذلك اليـــوم ، لما رأيت من الشيـــخ موســـى، وما كـــان عليـــه من بعـــد أثـــره

[347] تاريخ الخلفاء، السيوطي ، ص171.

[348] الإمامة و السياسة، ابن قتيبة،ج2، ص172، 173.

[349] المصدر السابق نفسه،ج2، ص 200.

في سبيل الله ، وما فتح الله على يديه وهذا يفعل به "، فتدخّل عمر لدى سليمان يشفع في موسى ويصالح بينهما[350].

5/ولما ولي هشام بن إسماعيل المخزومي [351] إمارة المدينة المنورة ،(ضرب سعيد بن المسيب ستين سوطا ، ظلما وعدوانا وطاف به، فكتب إليه عبد الملك يلومه ، وساءت سيرة هشام بن إسماعيل ، و أظهر العداوة لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم)[352] .

6/ وطال هذا الظلم أيضا عمر بن عبد العزيز ، رغم قرابته من بني مروان ، فقد عزم عليه الوليد بن عبد الملك بأن يخلع أخاه سليمان،فلما رفض ذلك،وقع بينهما أخذ ورد،غضب من جرائه الوليد غضبا شديدا ، فأمر به فحبس ثلاثة أيام،لا يدخل عليه أحد،ثم أمر بإخراجه إن وجد حيا ، فأدركه الناس وقد زالت رقبته شيئا ، فلم يزل يعالج حتى صار إلى العافية[353] .

وهذا الذي ذكرته يعد شيئا قليلا مما ذكرته كتب التاريخ عن مظالم بني أمية ، التي امتلأت بها الدنيا جورا وظلما.

---

[350] المصدر السابق نفسه، ص246، الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي إفريقية "دراسة ونصوص "، محمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة،ط2، 1406هـ-1986م،ج7، ص30 .وكان سليمان قبل ذلك قد بعث إلى من يقتل ولده عبد العزيز،وكان قد ولاّه موسى على إمارة الأندلس، فجيء برأسه إلى سليمان،فبعث إلى موسى ليريه رأس ولده، نكاية فيه،المصدر السابق نفسه، ص259،وقد شكّك محمود شيت خطاب فيما أورده ابن قتيبة، فقال:"...ولأنّ عمر بن عبد العزيز كان من أقرب المقربين إلى سليمان ، ومن المستحيل أن يرضى عمر بن عبد العزيز عن تلك التصرفات دون أن يقول كلمته لإحقاق الحق وإزهاق الباطل" ، قادة الفتح الإسلامي- قادة فتح المغرب العربي- ، دار الفكر،دمشق،ط7، 1404هـ-1984م، ص280.

[351] هو هشام بن إسماعيل المخزومي:والي المدينة،وكانت بنته تحت عبد الملك بن مروان،وهو الذي ينسب إليه"مدّ هشام"عند الفقهاء،وربما قالوا"المدّ الشامي"يريدون"الهشامي"،وهو أكبر من المدّ الذي كانت تكال به الكفارات وأنواع الزكاة في عصر النبوة.مات بعد سنة87ه،الأعلام،الزركلي،ج8،ص84، 85.

[352] تاريخ اليعقوبي، ج3، ص283.

[353] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ابن الجوزي، ص 313 ،تاريخ الخلفاء،السيوطي،ص184،الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز-خامس الخلفاء الراشدين- ، أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم ، ص28، 29.

الفصل الثاني : المصالحة السياسية والإصلاح الاجتماعي في خلافة عمر بن عبد العزيز

المبحث الأول : مدخـــل عام(مفهوم ومشروعية المصالحة والإصلاح).

إنّ الحديث عمّا قام به عمر بن عبد العزيز من جهود جبّارة لإرساء دعائم مجتمع جديد,يقوم على معاني الأخوّة والوئام والإصلاح,بعد أن عاش دهرا طويلا في ظل النزاع والاقتتال والفساد,إنّ ذلك يلزمني في البداية أن أتعرّض بشكل وجيز إلى مفهوم ومشروعية كل من المصالحة السياسية والإصلاح الاجتماعي.

المطلب الأول : مفهوم المصالحة والإصلاح.

*إن مفهوم كل من المصالحة والإصلاح مشتق من الجذر الثلاثي (صلح).

1/صلح،صلاحا،صلوحا:ضد فسد (زال عنه الفساد,يقال:"صلحت حال فلان"أي:زال عنها الفساد.ناسب ولاءم,وصلح الشخص إذا فضل وعفّ).

2/صلّح،يصلح،تصليحا:أ-الشيء:أزال الفساد(صلّح السيارة المعطوبة)،ب ـــالأمر:قوّمه(صلّح المعلّم التمارين).

3/أصلح،يصلح،إصلاحا:أ-بين شخصين أو الناس:أزال ما بينهم من عداوة وشقاق(وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) [354]،ب-أدخل تغييرات على الشيء تماشيا مع ظروف العصر،(أصلحت الحكومة قانون الضرائب).

4/استصلح،يستصلح،استصلاحا:أ-الشيء:وجده صالحا(استصلح الوكيل سلوك اليتيم).

ب-الأرض:صيّرها صالحة(استصلح الأراضي الزراعية),ت-البناء:طلب ترميمه،(استصلح الطرقات المتضرّرة من الفيضانات).

5/صالح،يصالح،مصالحة:أ-: سالمه وصافاه(صالح القوم خصومهم).

ب-:على الشيء(سلك معه مسلك المسالمة في الاتفاق)،(صالحه على ما تبقّى من ذمّته من دين).

ت- والصلح عند أرباب السياسة رفع الحرب على شروط تعرف بشروط الصلح[355] .

ث-المصالحة:مفاعلة من الطرفين.

---

[354] سورة الحجرات / 9.

[355] المنجد في اللغة والأعلام , ص432 , المعجم العربي الأساسي،ص744.

ج–المصالحة:اسم للمصالحة والتصالح،خلاف المخاصمة والتخاصم،وأصله من الصلاح وهو استقامة الحال على ما يدعو إليه العقل،ومعناه دال على حسنه الذاتي،وكم من فساد انقلب به إلى الصلاح.[356]

ح– المصالحة:عقد يرفع النزاع ويقطع الخصومة[357]

خ–المصالحة:وتكون للقاضي أو الحاكم،إذا تعلّقت بشؤون الحــكم والسياسة وفي المغالبة[358].

د–المصالحة:بمعنى الموادعة أو المسالمة[359].

*مفهوم السياسة:من الجذر الثلاثي:(ساس).

1/ساس:سياسة الدواب:قام عليها وراضها،وساس القوم:دبّرهم وتولّى أمرهم،وساس الأمر:قام به,فهو سائس.

2/السياسي:هو الذي يزاول السياسة ويتّخذها حرفة له،(كان الخلفاء الرّاشدون يسوسون الناس بالعدل).

3/وساسة البلاد:قادتها الذين يديرون شؤون الناس والبلاد.

4/سواسية:جمع سواء.

5/والسياسة:استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجي في العاجل والآجل,و هي فنّ الحكم وإدارة أعمال الدولة الداخلية والخارجية ومنها السياسة الداخلية والسياسة الخارجية.

6/والسياسة المدنية:تدبير المعاش مع العموم على سنن العدل والاستقامة.

7/والسياسة الاقتصادية:علم يعالج الثروات العامّة و فنّ إدارة الأحكام.

8/والحقوق السياسية:هي التي يحقّ بمقتضاها لكل مواطن أن يشترك في إدارة بلاده[360].

*أمّا لفظ :الاجتماعي فهو من الأصل الثلاثي(جمع).

1/ف(جمع جمعا) متفرقا:إذا ضمّه وألّفه:يقال:جمعت الجمعة إذا أقيمت صلاة الجمعة.

2/وأجمع القوم على كذا:إذا اتّفقوا عليه.

3/وأجمع الأمر على الأمر:إذا عزم عليه كأنّه جمع نفسه له.

[356] حاشية ابن عابدين ، تحقيق محمد أمين،دار الفكر،بيروت،ط2، 1386هــ ،ج8 ، ص216.

[357]المبسوط , السرخسي ، دار المعرفة،بيروت،ط2، 1406هــ ،ج8 ، ص.260

[358]تحفة الفقهاء , السمرقندي ، دار المعرفة العلمية،بيروت،ط1، 1405هــ، ج3،ص.374

[359]بدائع الصنائع, الكاساني ،دار الكتاب العربي،بيروت،ط2، 1982م، ج7،ص108 .

[360]المنجد في اللغة و الأعلام, ص362,المعجم العربي الأساسي،ص.653

4/وجمع القلوب أي ألّفها ووحّد بينها.
5/وجمع القوم لأعدائهم:إذا حشدوا لقتالهم(إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم).[361]
6/وتجمّع يتجمّع تجمّعا(القوم):إذا انضمّ بعضهم إلى بعض(تجمّعت الأجهزة الثقافية العربية في مؤسسة واحدة).
7/واجتمع يجتمع اجتماعا(القوم):إذا انضمّ بعضهم إلى بعض(اجتمع رؤساء الدول العربية في الرباط).
8/والاجتماع يكون بمعنى الملتقى:(اجتماع وزراء الثقافة في مقر الجامعة العربية بتونس).
9/والرجل الاجتماعي:الذي يزاول الحياة الاجتماعية ويكثر من مخالطة الناس .
10/ووزارة الشؤون الاجتماعية : تعنى بالخدمات الاجتماعية.
11/الضمان(التأمين) الاجتماعي:نوع من التأمين يراد به خدمة المواطنين عامة.
12/العلوم الاجتماعية:مصطلح يقابل العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية,ويطلق على عدد من العلوم التي تعنى بالجوانب الثقافية والاقتصادية والسياسية للمجتمع كعلم الاجتماع وعلم السياسة.
13/المجتمع:الجماعة من الناس تربطها روابط ومصالح مشتركة(المجتمع العربي)،(المجتمع الإنساني).
14/الهيئة الاجتماعية:الحالة الحاصلة من اجتماع قوم لهم مصالح مشتركة[362].
وباعتبار التركيب فالمصالحة السياسية:عقد يرفع نزاعا أو يقطع خصومة تعلّقت بشأن من شؤون السياسة. وتكون للقاضي أو الحاكم لمصلحة يراها وإن لم يرد بذلك الفعل دليل جزئي [363].
والأصل فيه رسالة سيدنا عمر إلى أبي موسى الأشعري وفيها:"...والصّلح جائز بين المسلمين إلا ّصلحا أحلّ حراما أو حرّم حلالا". خلافا لمن يرى أنه لا يطلق إلاّ مع الكفار ويجعله نوعا من أنواع أربعة:أ-مصالحة سياسية(مع الكفار)،ب- في المال الموهوب,ت-في البيع ، ث- في الإبراء من دين[364].

---

[361]سورة آل عمران/.73

[362]المنجد في اللغة و الأعلام،ص101، 102, المعجم العربي الأساسي,ص260، 261.

[363]المبسوط،السرخسي،ج8،ص216، البحر الرائق ، زين بن إبراهيم ، دار المعرفة،بيروت،ط1،ج5،ص11.

[364]بدائع الصنائع،الكاساني،ج7،ص9 ، جواهر العقود ، تحقيق مسعد عبد الحميد محمد السعدني،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1،1417هـ-1996م، الأسيوطي ،ج1 ص1.

وحقيقتها تتمّ بالمتاركة، بأن يدع كل من المتعاديين ما هو فيه لأجل التعايش بينهما مطلقا،أو المشاركة في شؤون الحكم وإدارته,مثلما أشار عمر بن عبد العزيز إلى ما كان بين عليّ ومعاوية،فقال:"تلك دماء طهّر الله يدي منها,فلا أحبّ أن أخضّب لساني بها"[365],وهي بهذا المفهوم تندرج في الموادعة أو المسالمة بين الطرفين.

والمصالحة عند أرباب السياسة المعاصرين هي التي(تعنى بإنهاء الضغائن والأحقاد وإعادة صياغة علاقات إيجابية بين خصوم الأمس).وتستدعي(لقاءات مصارحة وطلب الصفح)[366].

وهي(توافق وطني يستهدف تقريب وجهات النظر المختلفة، وردم الفجوات بين الأطراف المتخاصمة أو المتحاربة)،كما أنّها تسعى نحو إلغاء عوائق الماضي،واستمراريتها السياسية والتشريعية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية،وتصحيح ما ترتّب عنها من غبن ومآس وأخطاء وانتهاكات وجرائم جسيمة(...)والنظر بتفاؤل إلى المستقبل،وذلك من خلال التأسيس في الحاضر للبنيات غير المزيفة أو الكاذبة للديموقراطية وللمشاركة المتساوية)[367].

وأمّا الإصلاح الاجتماعي:فهو تقويم العمل على ما ينفع بدلا مما يضرّ، بتلافي الخلل ومجانبة الفساد و إحداث التغييرات التي تكون في مصلحة الأفراد والجماعة في المجتمع، بما لا يخلّ بالشّرع وأحكامه.(والأصل فيه ما قاله القرطبي في تفسير قوله تعالى:(إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت)[368],أي: ما أريد إلاّ فعل الصلاح,بأن تصلحوا دنياكم بالعدل وآخرتكم بالعبادة[369].

---

[365] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز,ابن الجوزي,ص216.

[366] الموقع الالكتروني:http//www.geocities/com ، عادل زقاع،تاريخ التحميل:2005/4/24م.

[367] الموقع الالكتروني:http//www.ahr.nu، المصطفى صويلح، تاريخ التحميل: نوفمبر 2005.

[368] سورة هود/88.

[369] التعاريف ، المناوي، تحقيق محمد رضوان الداية،دار الفكر،بيروت،ط 1، 1410هـ، ص 68 ، الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني،دار الشعب،القاهرة،ط2، 1372ه، ج9 ، ص90.

المطلب الثاني : مشروعية المصالحة والإصلاح.

الفرع الأول: مشروعية المصالحة.

إنّ تكاليف الشريعة الإسلامية إنما جاءت لترعى مصالح العباد ودرء الفساد فيما يتعلّق بأمر دنياهم وأخراهم ,ولمّا كان الأمر كذلك فإن في امتثال الأوامر الشرعية تحقيقا للمصالح قطعا,وفي امتثال النواهي درء للمفاسد التي هي مصلحة أيضا,من زاوية أخرى.

وعلى هذا فإن المصلحة التي هي دعامة جلّ أحكام الشرع وأساسه هي من المادّة التي يتألّف منها الصلح والمصالحة,ومن أصل معناها فاجتمع في المصالحة والإصلاح جلب المصالح ودرء المفاسد معا .

بل يكاد يكون الإصلاح مقصدا مستقلاً من مقاصد الشريعة تصبّ فيه أكثر العزائم والأوامر,وبسببه تشدّد في كثير من النواهي المفضية إلى فساد ذات البين.ولا ريب أن الإصلاح يحقق مراد الشرع وتركه يفوّت ذلك , فالأمر بالإصلاح بين المتخاصمين أمر على وجه الوجوب هو فرض كفاية لقوله عزّوجلّ:(ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)[370],وهذه الأوصاف المذكورة في الآية , تتحقّق كلّها في عملية الإصلاح والمصالحة, فإذا تقاعس جميع أفراد الأمة عن هذا الأمر أثموا جميعا,يأثم القادر على القيام بالواجب لتقاعسه, ويأثم العاجز لإهماله الحثّ وحضّ من يقوى على القيام بهذا الواجب

ويتأكّد هذا الوجوب إذا علمنا أن الإصلاح هو راعي أساس الأخوّة الإيمانية وحامي الوحدة الإسلامية,و إهماله إيذان بتصدع بنائها وشرذمة كيانها, ويصبح بأس الأمة بينها شديدا،فيقاتل بعضها بعضا وتتكالب عليها الأعداء تكالب الأكلة إلى قصعتها .

فالصلح يحقق مراد الشرع وهو المحافظة على الأخوة الإيمانية ورعايتها, والعمل على تنميتها وتقويتها، ذلك أن الأخوة معيار الإيمان ودليله، فالأخـــوة والإيمان متلازمان, فكلما قويت الأخوة بين المؤمنين قوي الإيمــــــان وإذا ضعفت ضعف , قال تعـــالى:(إنّما المؤمنون إخوة فأصلحوا

---

370 سورة آل عمران,104.

بين أخويكم)[371]،وقال صلى الله عليه وسلم:<<المؤمن للمؤمن كالبنيان>>[372],وقال:<< المسلم أخو المسلم >>[373].

فإذا جفّت مشاعر الأخوّة وغاض معينها وقاتل المسلم أخاه، كاد ينتفي عنهم وصف الإيمان,فقد صرّح صلى الله عليه و سلم بذلك ،فقال:<< لا ترجـــــعوا بعدي كفّارا يضرب بعضكم رقاب بعض>>[374].

كما نستشف هذه المعاني واضحة في تعبير القرآن الكريم, كما وقع بين الأوس والخزرج,حين أغرى بينهم العداوة شاس بن قيس,فشرعوا السلاح وكادوا يقتتلون لولا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم،فنزلت آيات آل عمران :(يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين)[375].

حيث نجد أن في الآية الكريمة إشارة إلى أن النزاع والاقتتال يسلب عنهم صفة الإيمان في قوله: (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) [376],وفيه إشارة للعجب وإنكار أن يسلب الإيمان ممن ذاقه وشهد نزول الوحي وصاحب الرسول صلى الله عليه وسلم.وفي قوله تعالى:(وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) [377]: إشارة إلى العداوة التي كانت بين الأوس والخزرج,والتي أذهبها الله عزوجل بنبيه صلى الله عليه وسلم.وفي قوله جل وعلا:(واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) [378]:إرشاد إلى أن المصالحة والتآلف وزوال العداوة نعمة سابغة ورحمة واسعة يجد فيها المؤمن طعم الإيمان ,عليه أن يشكرها ويذكرها.

وممّا تجدر الإشارة إليه هنا أنّ تسمية تلك العداوة وذلك التنازع بين المسلمين كفرا،هو على الوجه اللغوي لا الشرعي , إذ لا ينتفي عن الفئتين المتقاتلتين اسم الإيمان,ولا يعاملون معاملة الكفـــار,

---

[371] سورة الحجرات/10.

[372] رواه البخاري في صحيحه،عن أبي موسى الأشعري ،ج1،ص182،(أبواب المساجد- باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره)، رقم.467

[373] رواه البخاري في صحيحه،عن عبد الله بن عمر،ج2،ص862،(كتاب المظالم-باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه)،رقم2310.

[374] رواه البخاري في صحيحه،عن جرير،ج4،ص1599،(كتاب الجهاد والسير-باب حجة الوداع)،رقم .4144

[375] الآية .100

[376] سورة آل عمران /.101

[377] سورة آل عمران / .103

[378] سورة آل عمران/.103

والدليل أن آية الحجرات وهي تتحدّث عن الفئة الباغية تشير إلى أنّ البغي لا يزيل عنهم اسم الإيمان,وإن كان خطرا عليه,فسمّتهم إخوة مؤمنين–مع بغيهم– في قوله تعالى:(وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما,فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين)[379].وقال بعد ذلك :(إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم)[380].وقد سئل الإمام علي كرم الله وجهه عن الباغين الخارجين عليه:"أكفار هم؟",فقال:"هم من الكفر فروا",قالوا:"أمنافقون؟",قال:"إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا,وهم مداومون لذكره",قالوا:" فما تسميهم؟",قال:"إخواننا بغوا علينا"[381].

وإنّما سمّي ذلك كفرا تنفيرا للمؤمنين من تلك الصورة البشعة التي هي أبغض ما يتصوّره المؤمن، حين يتعرض لخطر الكفر,تنبيها إلى ضرورة التشبّث به لصيانته.

الفرع الثاني : نماذج من المصالحـــة.

إن السيرة النبوية الشريفة وهدي الصحابة وأتباعهم بإحسان مليئة بتطبيقات المصالحة والصّلح بين المتنازعين,ومن ذلك:

1–المصالحة بين أشراف العرب,حين عزموا على الاقتتال بسبب الخلاف على من يضع الحجر الأسود في موضعه من البيت العتيق,ودام الخصام أربع ليال لا يهدأ،ثمّ رضخوا لرأى أبي أميّة بن المغيرة المخزومي –عم خالد بن الوليد–,الذي أشار عليهم أن يحكموا أول داخل من باب شيبة،فكان محمد صلى الله عليه وسلم، فقالوا هذا الأمين رضينا به حكما فبسط رداءه ووضع الحجر الأسود عليه وأمر سادتهم بأن يأخذوا بأطراف الثوب ورفعوه، فلمّا حاذى مكان الحجر تناوله بيده ووضعه في محلّه[382].وبهذا حسم الخلاف الذي كاد أن يؤدي إلى حروب طويلة المدى. فالمصالحة فنّ راق يحتاج إلى صبر وتأنّ وذكاء,إذ لابد فيها من أخذ أطراف القضيّة جميعها بعين الاعتبار وتهيئتها للقبول,حتىّ تخضع العقول,كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم حين بسط الرداء ليأخذ القوم بأطرافه.

---

[379]سورة الحجرات/9.

[380]سورة الحجرات.10.

[381]رواه إبن أبي شيبة في مصنفه,ج7,ص535,(كتاب الجمل في مسيرة عائشة وعلي وطلحة والزبير),رقم.37763.

[382]السيرة النبوية,ابن هشام, تحقيق طه عبد الرؤوف سعد،دار الجيل،بيروت،ط1، 1411ه ،ج2,ص15.

2- المصالحة بين الأوس والخزرج:ذلك حين تغاضب الفريقان,فأصلح الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم,قال جابر بن عبد الله:"ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم،فأومأ إلينا بيده فكففنا وأصلح الله ما بيننا",فألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا وجعلوا يبكون,ثمّ قال:"فما كان شخص أحبّ إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم,فما رأيت أقبح ولا أوحش أوّلا,وأحسن وآنس آخرا من ذلك اليوم"[383].

لو لم يكن في التنازع والتباغض والعداوة إلاّ هذا الذي وقع في أول اليوم لكفى شرّا.أرأيت كيف انقلب الحقّ فيه باطلا,والحسن قبيحا,ومطلع الحبيب مكروها,في قلوب امتلأت غيضا وحقدا !.ولو لم يكن في التّصالح و المصالحة إلاّ ما وقع في آخر ذلك اليوم لكفى,إذ نزلت الرحمة فانكشف الغيظ وتدفّقت مشاعر المحبّة في شعاب القلوب.حقّا إنّ الأخوّة رحمة والفرقة عذاب.

3- صلح الحديبيـــة[384] :وأما صلح الحديبية فحدث عنه ولا حرج ,فقد فاض خيرا وتدفق بركة على الإسلام و المسلمين, حتى قال عنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه:"ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية"[385] .

4- صلح حنيـــن[386]:ذلك حين امتلأت قلوب الأنصار غيظا عند توزيع الغنائم,التي تألف بها صلى الله عليه و سلم كفار قريش حين أسلموا حديثا، فقام فيهم صلى الله عليه وسلم خطيبا،فما تركهم حتى عادت القلوب إلى أصفى ما كانت عليه.

5-ولمّا وفد على أبي بكر الصدّيق في خلافته مال عظيم من البحرين,وتنازع الناس عليه وتغاضبوا أصلح بينهم أبو بكر بحكمته ولينه[387].

6- وحين تقاتل الناس في صفين, جنح علي كرم الله وجهه إلى السّلم والمصالحة ورضي بنداء التحكيم, وأوفد عبد الله بن عباس إلى الخارجين عن طاعته ليقنعهم بمبدأ التحكيم والمصالحة[388].

---

383 أنظر تفسير القرطبي،ج4،ص155،ومسند أحمد،ج3،ص122،رقم12256.

384 أنظر سيرة ابن هشام،ج4،ص.275.

385 رواه البيهقي في السنن الكبرى ،تحقيق محمد عبد القادر عطا،مكتبة دار الباز،مكة المكرمة،ط1، 1414هـ-1994م، عن ابن شهاب الزهري،ج9،ص222,(كتاب الجزية-باب نزول سورة الفتح).

386 أ نظر سيرة ابن هشام،ج5،ص163.

387 صحيح البخاري،،ج2،ص803،(كتاب الكفالة- باب من تكفّل عن ميت دينا)،رقم الحديث2174.

388 رواه أحمد في مسنده,ج1,ص86,(مسند علي بن أبي طالب),رقم656.

7- ولمّا كادت تقوم المعركة عظيمة بين الحسن بن علي ومعاوية, بسبب الخلافة, تنازل الحسن عنها حقنا لدماء المسلمين,وقد نوّه النبي صلى الله عليه و سلم بهذا الصّلح العظيم[389].

ولو رحنا نستقرئ التاريخ الإسلامي,لوجدناه حافلا بنماذج عظيمة للمصالحة بين المتنازعين والمتقاتلين,ولا عجب في ذلك فالشريعة الإسلامية تعتبر أن من أولويّاتها الإصلاح بين الخصوم ورأب ما تصدّع بينهم.

فالمصالحة إذن فنّ حضاري,كلّما تقدّمت الإنسانية شعرت بشدة الحاجة إليه,لأنه صمّام الأمان لحياة الأمم والجماعات.وقد ذاقت البشرية قريبا آثار النزاع وسوء التفاهم الذي أدّى إلى حربين عالميتين خلال ربع قرن,أتت على الأخضر واليابس مخلّفة ملايين الضحايا وآلاف المشوّهين والمصدومين,ففكّر عقلاء العالم و حكماؤه,فأنشئت لذلك الغرض هيئة الأمم لحفظ السلام العالمي,كما شهدت بلادنا خلال السنوات الفارطة خسائر جمّة في الأرواح والممتلكات,بسبب الاقتتال والتنازع غير المشروعين,فجاءت رياح الوئام والمصالحة بردا وسلاما على شعبنا الذي فقه أخيرا قوله تعالى :(والصلح خير)[390].،كما وعى جيّدا هذه الأحاديث الشريفة والآثار الطيبة التي أسوقها في هذا المجال,لتكون لنا عبرة وذكرى:

1 ـــ عن أبي الدّرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:<<ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة>>,قالوا:" بلى",قال:<< صلاح ذات البين,فإنّ فساد ذات البين هي الحالقة ،لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين>>.[391]

2- عن أبي أيوب الأنصاري قال:قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:<< يا أبا أيوب ألا أدلّك على صدقة يحبها الله ورسوله ؟ تصلح بين الناس إذا تباغضوا أو تفاسدوا>>.[392]

3- عن أنس أنه قال:"من أصلح بين اثنين أعطاه الله بكل كلمة عتق رقبة>>.

4-وقال الأوزاعي:"ما خطوة أحبّ إلى الله عزوجل من خطوة في إصلاح ذات البين,ومن أصلح بين اثنين كتب الله له براءة من النار"[393].

---

[389]صحيح البخاري،(باب قول النبي للحسن:<<ابني هذا سيّد..>>)،وقد سبق تخريجه.

[390]سورة النساء/128.

[391]رواه الترمذي في سننه،ج4،ص663(كتاب صفة القيامة والرقائق والورع)،رقم2509.

[392]رواه الطبراني في المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي،مكتبة العلوم والحكم،الموصل،العراق،ط 2، 1404هـ-1983م،ج4،ص138، (باب من اسمه خالد-أبو أيوب الأنصاري"خالد بن زيد")،رقم3922.

[393]ذكرهما القرطبي في تفسيره،ج5،ص385.

– ورحم الله القائل:

حبذا العيش حين قومي جميع   لم تفرق أمورهم الأهواء[394]

6- وقد رغّب الإسلام في التّسارع إلى المصالحة حتى في القضايا التي بتّ فيها القضاء بالعدل.فقد كتب عمر بن الخطّاب إلى أبي موسى الأشعري:"ردّ الخصوم حتى يصطلحوا،فإنّ فصل القضاء يورّث بينهم الضغائن"[395].

7- اختصم رجل وعمّه بحضرة الخليفة عمر بن عبد العزيز،فعزم العمّ على قطيعة ابن أخيه،فلم يزل بهما عمر،حتى أصلح بينهما،ثم رفع يديه إلى السماء وقال:"الحمد لله"[396].

8- ومن أعظم الدلائل – أيضا- الترخيص في الكذب من أجل الإصلاح,مع شدّة تشنيع الإسلام على الكذب والكذّابين,وأنّه ليس من صفة المسلم الكذب البتّة,فقال صلى الله عليه وسلم:<<كل الكذب يكتب على ابن آدم إلاّ ثلاث خصال: رجل يكذب امرأته لترضى عنه، ورجل يكذب في خدعة حرب ، ورجل يكذب بين امرأين مسلمين ليصلح بينهما>>[397].

9- وعن أمّ كلثوم بنت عقبة[398]أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:<<ليس بالكاذب من أصلح بين اثنين,فقال خيرا أونمى خيرا>>[399].

---

[394]أنظر خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب ، عبد القادر البغدادي ، تحقيق عبد السلام هارون،مطبعة بولاق،مصر،ط 1، 1304 هـ.،ج9 ، ص5785.

[395]ذكره القرطبي في تفسيرة،ج5،ص.384.

[396]الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص.124.

[397] رواه الطبراني في المعجم الكبير،عن أسماء بنت يزيد،ج24،ص164،(ما أسندت أسماء بنت عميس)،رقم.419.

[398] هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط الأموية:صحابية،هي أوّل من هاجر إلى المدينة،بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم.وكانت عذراء، فتزوجها في المدينة زيد بن حارثة،ثمّ تزوجها الزبير بن العوام،ثم عبد الرحمن بن عوف، ثم عمرو بن العاص،فمكثت عنده شهرا في المدينة، وماتت نحوسنة33ه.رويت عنها أحاديث في الصحيحين وغيرهما،الأعلام،الزركلي،ج5،ص.231.

[399] رواه أبو داود في سننه ، ج4، ص280،(كتاب الأدب-باب في إصلاح ذات البين)،رقم4920.

الفرع الثالث : مشروعية الإصلاح.

وأمّا فيما يتعلق بالإصلاح الاجتماعي,فإنّما هي رسالة الإسلام كلها,تحقيقا لقوله تعالى–على لسان جميع الرسل والأنـــبياء–:(إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلاّ بالله)[400].

* ففي مجال العقيدة:جاء الإسلام يدعو إلى التوحيد وينعى على الوثنيّة والشّرك والإلحاد,فقال تعالى:(قل يآ أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم:ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئا ولا يتّخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله)[401].

* وفي مجال العبادة:فقد شرّع العبادات وحرّم التوجّه لغير الله بالدّعاء والصّلاة وجميع صنوف التعبّد,فقال تعالى:(ولكن أعبد الله الذي يتوفّاكم)[402].

* وفي مجال التشريع:فقد قرن الكفر بتحكيم غير شريعة الله عزوجل،فقال:(فلا وربّك لا يؤمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا في أنفسهم حرجا ممّا قضيت ويسلّموا تسليما)[403].

* وفي مجال الإدارة:منع الرّشوة والظّلم والمحاباة،فقال تعالى– في الحديث القدسي–:(يا عبادي إنّي حرّمت الظّلم على نفسي وجعلته بينكم محرّما فلا تظالموا)[404].

* وفي مجال الأخلاق والسّلوك الإجتماعي:فقد أرشد إلى كلّ جميل من الأقوال والأعمال،كما حرّم كلّ فاحش وبذيئ،قال صلى الله عليه وسلم:<<البرّ حسن الخلق>>[405].

* وفي مجال المال والاقتصاد: فقد قدّس الله عز وجل العمل والعمّال, وحرّم التبذير والعبث بأموال الأمة،فقال:(وقل اعملوا)[406],وقال:(ولا تبذر تبذيرا)[407].

وهكذا في جميع المجالات،فقد جاء الإسلام مصلحا لكل فاسد ومفسد,ومجدّدا لكل صالح قد بلي,ومحييا لكل ميت قد نسي,ومنشئا لكل ما يرقى بعقول وقلوب وأحوال الناس.

---

[400]سورة هود/.88

[401]سورة آل عمران / .64

[402]سورة يونس / .104

[403] سورة النساء / .65

[404]رواه مسلم عن أبي ذر،ج4،ص1995،(كتاب البر والصلة والآداب–باب تحريم الظلم)،رقم.2577

[405]رواه مسلم عن النواس بن سمعان،ج4،ص1980،(كتاب البر والصلة والآداب–باب تفسير البر والإثم).

[406] سورة التوبة/105.

[407]سورة الإسراء/26.

المبحث الثاني : المصالحة السياسية في خلافة عمر بن عبد العزيز.

كانت البلاد الإسلامية إبّان تسلّم عمر بن عبد العزيز مقاليد الحكم,تشهد كثيرا من الحركات السياسية والجماعات الفكريّة والدينية,التي اتّخذ بعضها العمل المسلّح والبعض الآخر المعارضة الفكريّة والسياسيّة تعبيرا عن رفضها للحكم الأموي.وقد تعامل الخلفاء والولاة الأمويون مع أولئك المعارضين بعنف وقسوة,ولم يتركوا لهم مجالا للحوار وعرض الأفكار,التي يعتقدون أنّهم على الحق والصّواب في تبنّيها، وكان عمر بن عبد العزيز بما يمتلكه من ذكاء وصدق,يدرك ما للحوار والسّلم من أثر على النفوس، فاتخذهما سبيلا للتواصل مع الجميع ,سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين[408],ولهذا الغرض قسمت مبحثي هذا إلى مطلبين وهما:

المطلب الأوّل :حوار الخصـــوم.

سلك الخطاب القرآني مع المخالفين في العقيدة والفكر منهج الحوار والجدال بالتي هي أحسن,ودعا نبيّه صلى الله عليه وسلم وأتباعه إل تبنّيه,فقال تعالى:(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي أحسن)[409],وقال تعالى:(قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ماأعبد.....) [410],وقال :(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء...) [411].بل وقد قص علينا القرآن الكريم محاورة الله عزوجل لرمز الشر وأس الباطل:إبليس لعنه الله في سورة ص [412] –على سبيل المثال- ،وهذا إن دل على شيء فإنّما يدل على أنّ الحوار هو الأصل,وهو رمز القوّة,أمّا رفض الاستماع لرأي الآخرين وسلوك الاستئصال معهم فهو عين الضّعف والفشل.

أقبل رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو يقسّم الغنائم على المسلمين- فأخذ بطرف عمامته وجذبها حتّى احمرّ عنقه,ثمّ قال:"أعدل يا محمد فإنّك لم تعدل"[413],فقام إليه أحد الصحابة

---

[408] راجع(الحوار من المنظور الإسلامي)،أ.د محمد إبراهيم السّامرّائي،و(حوار الحضارات بالقول والفعل) ، مجلّة الصراط ، أ.د آرثر كريس إيكل ، كلية العلوم الإسلامية،الجزائر،السنة الثالثة، 1423هـ–2002م،العدد6، ص 85 ومابعدها/ص 126وما بعدها،على التوالي، طالع نص(البيان الختامي التأسيسي للإتحاد العالمي لعلماء المسلمين)، مجلة البصيرة للبحوث والدراسات الإنسانية ،دار الخلدونية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 2004م،العدد8، ص127.

[409] سورة العنكبوت / 46.

[410] سورة الكافرون/ 1، 2، 3.

[411] سورة آل عمران/64.

[412] سورة ص من الآية 75 إلى الآية 85.

[413] رواه البخاري في صحيحه,عن جابر بن عبد الله,ج3,ص1321,(كتاب المناقب–باب علامات النبوة في الإسلام),رقم3414.

يريد قتله، فنهاه صلى الله عليه وسلم[414].وقال–عن جلف آخر أساء معه الأدب،فأراد أحد الصحابة معاقبته–:<< اتركه فإنّه لصاحب الحقّ مقالة >>.ثم طلب إليهما أن يذكرا حاجتهما,ولم يبرحا حتى أثنيا عليه خيرا,ولو أمر بقتلهما أو رضيه لتألّب عليه أنصارهما من القبائل فألجأوه إلى سفك دماء هو في غنى عنها [415]

ولمّا جاءه شاب يستأذنه في الزنى –بحضرة الصحابة–,غضب لذلك أحدهم فاستأذنه في ضرب عنقه, فلم يأذن له,بل وطلب من الشاب أن يقترب منه,فسأله:<<أترضاه لأمّك؟>>قال:" لا", قال:<<فكذلك الناس لا يرضونه لأمّهاتهم>>,ثم قال:<< أترضاه لأختك؟ >>،قال:"لا",قال:<< فكذلك الناس لا يرضونه لأخواتهم >>,واستطرد معه:<< أترضاه لعمتك ,لخالتك..>>,كل ذلك يقول:"لا".ثم وضع يده على صدره،وقال:<<اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه>>[416], فخرج من عنده والزنى أبغض شيء إلى قلبه. فانظر إلى أنّه بالحوار والدّعاء المبارك كسب قلبا يحبّ الله ورسوله .

وتروي السيرة أن رجلا من الأعراب الكفار بال في المسجد–بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه–,فلما رأوه أمسكوا به وأرادوا معاقبته,فزجرهم النبيّ بقوله:<<لا تزرموه>>،ثم دعا بدلو من ماء ، فصب عليه ، وقال:<< إنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين>>[417].

وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وهدي السلف ناطقة وزاخرة بمثل هذه المواقف التي تعكس سماحة الإسلام ورحابة صدور أصحابه,ومنهم عمر بن عبد العزيز الذي سعى إلى تجميع الطاقات ووقف نزيف الدّم المسلم وكسب قوى المعارضة،وذلك باعتماد أسلوب الحوار السلمي بدلا من الاستئصال والقمع المسلح،كما سعى إلى توجيه موارد الدولة لعمليّة الإعمار والبناء والتنمية,وتنفيذ برامج الضمان الاجتماعي عوضا عن إهدارها في ملاحقة ومتابعة الثّورات الداخلية المسلّحة أو أعمال الفتح الاستعراضية خارج بلاد الإسلام[418].

---

[414]صحيح البخاري،عن أبي هريرة,ج2،ص809،(كتاب الوكالة–باب الوكالة في قضاء الديون),رقم2183. [415]نفسه،ج3،ص1321،رقم.3414

[416]رواه الطبراني في المعجم الكبير،عن أبي أمامة،ج8،ص162،(ما أ سند أبو أمامة)،رقم7679.

[417] رواه البخاري،ج5،ص2270،(كتاب الأدب–باب قول النبي:يسروا ولا تعسروا،وكان يحب التخفيف واليسر على الناس)،رقم5777.

[418]في التاريخ الإسلامي " فصول في المنهج و التحليل " ، عماد الدين خليل , المكتب الإسلامي ،دمشق،ط2، 1401هـ–1981م، ص.72

الفـــرع الأول : بنو أميّة وحلفاؤهم.

يعدّ عمر بن عبد العزيز واحدا من أفراد البيت الأموي الحاكم,الذي تغذّى من نعيمه منذ صغره إلى أن ولي الخلافة ففطم نفسه عن ذلك,واتّخذ خطا مغايرا تماما لمساره الذي رأينا بعض ملامحه في الفصل الأول,وبمجرّد أن أعلن عن اسمه خليفة للمسلمين حتى تحرّكت نفوس بعض أمراء بني أمية نحوه بالحقد و الضغينة ,لما يعلمونه من صلاحه وتقواه وحزمه،ناهيك عن إجراءاته السريعة التي اتّخذها بمجرد اعتلائه سدّة الحكم,التي لم تكن بطبيعة الحال في هوى أولئك الطامعين في المال والطامحين إلى الجاه والملك [419].

1-بنو أميّـــة:

لقد تعامل عمر بن عبد العزيز مع بني أمية بذكاء خارق وصبر كبير,على عكس رغبة ولده عبد الملك الذي كان متحمّسا كثيرا للتغيير السريع والحاسم,ولو غلت بهما القدور في الحق،فقال عمر لولده:-بعد أن دعا له بالخير-:"إنّ قومك قد شدّوا هذا الأمر عقدة عقدة وعروة عروة،ومتى أردت مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا عليّ فتقا تكثر فيه الدماء, ووالله لزوال الدنيا أهون عليّ من أن يراق في سببي محجمة [420] من دم,أو ماترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيّام الدنيا إلاّ وهو يميت فيه بدعة ويحيي فيه سنّة؟".إنّ هذا الجواب من عمر لولده كان يدرك به موقف قومه,فقد جابهوه به حين طلب منهم ردّ ما بأيديهم من أموال ملكوها من غير وجه حقّ،فقد خطب فيهم يوما فقال:"أدّوا ما في أيديكم من حقوق الناس ولا تلجئوني إلى ما أكره فأحملكم على ما تكرهون".فقد كان عازما على معاقبتهم وأخذ الحقوق منهم عنوة,ولكنه تراجع عن ذلك حينما أجابه رجل منهم بقوله :"والله لا نخرج من أموالنا التي صارت إلينا من آبائنا,فنفقر أبناءنا ونكفّر آباءنا,حتى تزايل رؤوسنا أجسادنا" [421],وهذا المنطق يعكس إصرار هؤلاء القوم على التشبّث بالامتيازات ولو أدّى ذلك إلى الفتنة وسفك الدّماء,وهذا ما كرهه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه,وخاصة أنّه يعلم أنّ لبني أمية حلفاء من القبائل العربية,فربّما استعانوا بهم على ركوب تلك الفتنة , فما كان منه إلاّ أن قال : "أما والله لولا أن تستعينـــوا عليّ بمن أطلب هذا الحـــق لـــه

[419] دراسات تاريخية,عماد الدين خليل , المكتب الإسلامي،دمشق،ط 1، 1403هـ-1983م، ص 47 . يستحسن الرجوع إلى كتابه:(ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز)،الذي ذكر فيه بإسهاب إصلاحاته السياسية والاجتماعية.

[420] القارورة التي يستخدمها الحجّام لمصّ الدّم،(أي مقدارها دما)،لسان العرب،ابن منظور،ج12،ص117.

[421] تاريخ الخلفاء,السيوطي,ص193.

لأضرعت[422] خدودكم عاجلا,ولكنّني أخاف الفتنة,ولئن أبقاني الله لأردّنّ إلى كلّ ذي حقّ حقّه إن شاء الله"[423].

كان عمر بن الوليد بن عبد الملك من أشدّ بني أمية بغضا لعمر بن عبد العزيز,وكان يتّهمه بالرياء وحبّ الثناء , فلمّا ولي الخلافة اشتد غيضه عليه,فلم يتمالك نفسه وبعث إليه برسالة يذمّه فيها,وينكر عليه مخالفة هدي من سبقه من الخلفاء ويتّهمه بالظلم وقطيعة الرّحم،فردّ عليه عمر بقوله:"إنّ أظلم منّي وأجور من ولّى عبد ثقيف –الحجاج بن يوسف–العراق,فحكم في دمائهم وأموالهم,وإنّ أظلم منّي وأجور وأترك لعهد الله,من ولّى قرة بن شريك مصر جلفا جافيا [424],وإن أظلم منّي وأجور وأترك لعهد الله,من ولّى عثمان بن حيان الحجاز,فأنشد الأشعار على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم" [425]

إنّ عمر بن عبد العزيز كان دقيق المعرفة بنفسيات قومه المتعلّقة بحبّ السلطان,فكان يعظهم ويخوّفهم بطش ربهم,فقد دعاهم يوما إلى مأدبة غداء، فلمّا حضر وقت الأكل همس في أذن الطبّاخ أن يؤجل إحضار الطعام ,فلما هموا بالانصراف عرض عليهم حساء من سويق [426]وتمر,فأكلوا بنهم حتى شبعوا منه, ثمّ حضر الطعام بعد ذلك، فأبوا أن يأكلوه من الشبع.فقال لهم واعظا:"ويحكم يا بني مروان ففيم التقحّم في النار"، ثمّ بكى وأبكى من كان حاضرا [427].وكان ابنه عبد الملك نعم المعين له في هذه المهمّة الصّعبة,فحدث أن جاؤوا إليه ووقفوا ببابه يرجونه إسناد بعض الولايات إليهم, فاستأذنه في الرّدّ عليهم نيابة عنه, فأذن له فخرج عليهم يقول:"إنّ أبي يقرئكم السّلام ويقول لكم:(إنّي أخاف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم)"[428].

---

[422]أضرع:أخضع وأذل,لسان العرب,ابن منظور,ج8,ص.222.

[423]العقد الفريد,ابن عبد ربه,ج4,ص437,قال محمود شاكر:"ولم يبق مع عمر من بني أميّة إلاّ ابن عمّه مسلمة بن عبد الملك"،التاريخ الإسلامي,محمود شاكر،ج4، ص.245.

[424]هوقرّة بن شريك بن مرثد العبسي المضري:أمير،ولي نيابة مصر في زمن الوليد الأموي،في سنة90.وكان جبارا صلبا مخوفا،تعاهد مئة من الخوارج على قتله ،فلما علم بهم قتلهم جميعا.واستمرّ في الإمارة بمصر إلى أن مات،عام96ه،الأعلام،الزركلي،ج5،ص.194.

[425]سيرة و مناقب عمر بن عبد العزيز , ابن الجوزي , ص157 ،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم، ص.152.

[426]سويق : ما يتّخذ من الحنطة والشعير،لسان العرب،ج10،ص170.

[427] المصدر السابق نفسه , ص163

[428]سورة يونس / 15. العقد الفريد , ابن عبد ربه،ج4،ص.438.

إن سياسة عمر بن عبد العزيز في إقصاء بني أمية من الحكم كان الهدف منها هو التغيير الجذري الذي كان يتطلّع إليه الناس , فقد كرهوا وملّوا رؤية هؤلاء القوم الذين ركبوا ظهورهم واستباحوا أعراضهم و نهبوا أموالهم,وهذا ما لم يهضموه عندما جلسوا إليه يوما في بيته يسألونه الولاية يقولون:"أما لنا قرابة ؟ أما لنا حق ؟"، فيقول لهم:"هيهات لكم هيهات أن أولّيكم أعراض المسلمين وأبشارهم "[429],فهو لا يثق بهم ولا يأتمنهم على حرمات المسلمين وممتلكاتهم, وقد صدقت نبوءته فيهم, ذلك أنه لمّا ولي بعده يزيد الخلافة صنع ما خافه عمر.وحاولوا الضغط عليه بعمّته فاطمة بنت مروان, فجاءته وكلّمته في حاجتهم ورغبتهم في الولاية , فما كان منه إلاّ أن دعا بدينار وقطعة لحم ومجمرة[430], فألقاه على الجنب فصعد منه الدّخان, ثم قال:"أي عمّة أما تأوين لابن أخيك من مثل هذا؟",فذكرت أنّهم يحذّرونه يوما من أيّامهم– ترهّبه بذلك–، فقال:"كلّ يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني الله شرّه", فلما يئست منه خرجت عليهم تقول:"أنتم فعلتم هذا بأنفسكم,تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جدّه"،فسكتوا[431].

ولمّا ضاقوا به ذرعا طلبوا إليه مغادرة دمشق فأذن لهم,ومنهم عنبسة بن سعيد بن العاص الذي دخل عليه ،فقال:"يا أمير المؤمنين إنّ من كان قبلك من الخلفاء كانوا يعطوننا عطايا فمنعتناها ولي عيال وضيعة,أفتأذن لي أن أخرج إلى ضيعتي لما يصلح عيالي؟فقال عمر:أحبّكم من كفانا مؤونته"[432]. وبهذه السياسة الحكيمة استطاع عمر أن يقي الأمّة شرّ هؤلاء القوم الذين لم يكن يردعهم عن إشعال الفتن والحروب رادع,فقد كانوا من قبل يسفكون الدماء الكثيرة من أجل مصالحهم والمحافظة على امتيازاتهم,و قد مرّ معنا في الفصل الأوّل كثيرا من تلك المعارك الدّموية التي لم يكن الداعي إليها إلا حبّ السّلطان والتشبّث بالملك,ويمكن القول بأنّ عمر بن عبد العزيز قد فدى أمّته بروحه فقد ذهب ضحيّة هذه السياسة التي لم ترضهم.

---

[429]تاريخ الخلفاء,السيوطي,ص189.

[430] العود الذي يتبخّر به،يوضع على النار, لسان العرب،ج4،ص.144

[431] صفة الصفوة , ابن الجوزي ، صنع فهرسه عبد السلام هارون،مؤسسة الكتاب الثقافية،بيروت،ط2، 1413هـ–1992م،ج2،ص72 , الكامل في التاريخ , ابن الأثير , ج5، ص64 ,65,سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز,ابن الجوزي ص160, 161.

[432]تاريخ الخلفاء,السيوطي,ص185، 186, التاريخ الإسلامي, محمود شاكر,ج4،ص244،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص67.

2-حلفاء بني أميّة:

أشرت في الفصل الأوّل إلى أهم قبيلتين متصارعتين,كانتا محلّ اهتمام وهوى خلفاء بني أمية,وهما: القبيلة اليمنية والقبيلة القيسيّة,وكان الولاة ينتمون إلى إحداهما,فربّما تحيّزوا لعصبيّتهم,فتقع بسبب ذلك حروب دامية تنتهي-أحيانا- بقتل الوالي نفسه,كما وقع مثلا لقتيبة بن مسلم المضريّ.

وبدلا من أن يعمل الخلفاء الأمويون على حسم هذا الخلاف,إذا بهم ينحازون إلى قبيلة دون أخرى, الأمر الذي زاد من اتّساع الهوّة بين العصبيتين,فالوليد بن عبد الملك أخذ جانب المضريّة وكان من أكبر عمّاله المضريين:الحجاج بن يوسف الثقفي وقتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم,ثم جاء بعده سليمان أخوه وكان حانقا على الحجاج وقتيبة لاعتراضهما على توليّته,فانحاز إلى اليمنية,وكان من أبرز ولاته يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي,ثمّ لمّا جاء عمر بن عبد العزيز حاول التوفيق بين العصبيتين, غير أنّ هذا الوفاق لم يلبث أن زال بعد وفاته,فقد أخذ يزيد بن عبد الملك جانب المضرية[433],وامتد هذا الخلاف إلى بلاد بعيدة عن أرض الخلافة كالأندلس,حيث نجد أنّ المضريين سكنوا طليطلة وسرقسطة واشبيلية وبلنسة وغيرها,أمّا اليمنيون فقد سكنوا غرناطة وقرطبة ومرسية وبطليوس,وكان النّزاع بينهما محتدما ممّا أضعف شوكة الحكم الإسلامي في تلك البلاد[434].

كان عمر بن عبد العزيز شديد الحساسيّة من هذه العصبيّة الجاهلية,التي جاء الإسلام للقضاء عليها مقررا:(إنّما المؤمنون إخوة)[435] ,و:<<مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ,إذا اشتكى منه عضو واحد ، تداعى له سائر الجسد>>[436].

وقد بلغ عمرا أن بعض أهل البادية من الأمراء يحاولون إشعال الفتنة وإذكاء روح العصبيّة بين القبائل التي ألفت انحياز الخلفاء إلى أحدها,فتقع بذلك حروب دامية,فما كان منه إلاّ أن بعث إليهم بكتاب يذكّرهم فيه بنعمة الإسلام عليهم,وينهاهم عن التعصّب الجاهلي,وممّا جاء في كتابه إليهم قوله:"... ثمّ إنّ ما هاجني على كتابي هذا أمر ذكر لي عن رجال من أهل البادية,ورجال أمّروا حديثا, ظاهر جفاؤهم , قليل عملهم بأمـــر الله اغتـــرّوا فـــيه بالله غرّة عظيمة(...) وذكـــر لي

---

[433] في التاريخ العباسي و الفاطمي , أحمد مختار العبادي ص 12،خلفاء الرسول, خالد محمد خالد , ص .767

[434] تاريخ الإسلام , حسن إبراهيم حسن , ج1 , ص.531

[435] سورة الحجرات/.10

[436] رواه مسلم في صحيحه،عن النعمان بن بشير، ج 4، ص1999،(كتاب الأدب-باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم)، رقم .2586

أنّ رجالا من أولئك يتحاربون إلى مصر وإلى اليمن وأنا أحذّر كلّ من سمع كتابي هذا ومن بلغه أن يتّخذ غير الإسلام حصنا,أو دون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ودون المؤمنين وليجة,تحذيرا بعد تحذير,وأذكّرهم تذكيرا بعد تذكير(...)نسأل الله أن يخلف فيما بيننا بخير خلافة في ديننا وألفتنا وذات بيننا والسّلام"[437].

إذن كان عمر بن عبد العزيز يريد بذلك تكوين قاعدة بشريّة صلبة وموحّدة تسند الدولة وتحميها من التمزّق,سواء كان ذلك باسم العصبيّة أو الحزبيّة أو أيّ اسم آخر[438].

وقد تعامل الخليفة الموهوب مع أكبر حليف لسلفه سليمان بن عبد الملك،وهو يزيد بن المهلّب،بذكاء شديد,فالرّجل كان على رأس إقليم واسع لا يستهان به,وتحت يده من الجيوش والأموال ما يستطيع به إمالة الكفّة نحوه,فلم يشأ أن يهيّجه إلاّ بعد سنة من حكمه,الذي ظهر به صدقه وعدله وشاع خبره بين الناس,ومنهم أهل خراسان أنفسهم,الذين هان عليهم فيما بعد حبسه واعتقاله,الذي أمر به عمر بن عبد العزيز سنة 100ه، فقد كتب إلى عامله بالعراق عدي بن أرطأة [439]بأن ينفذ إليه ابن المهلب موثقا,فحبسه عمر بحصن حلب,وأمره أن يرد الأموال التي أخذها ظلما إلى بيت المال.

وكان يزيد يبغض عمرا ويزعم أنه مراء,فلمّا ولي عمر ورأى حكمه وعدله عرف بأنّه بعيد عن الرياء ، وكان عمر قد قرأ كتابا لسليمان يخبره فيه يزيد بن المهلب لما تحت يديه من أموال طائلة,فلمّا طلبها منه أنكرها وزعم أنّه لم يذكرها إلاّ بغرض تخويف الأعداء بها, فلم يصدّقه عمر وأصر على إرجاعها إلى بيت المال ,وكانت تقدر بعشرين ألف ألف [440].وعمر بإصراره هذا لا يصفّي حسابا ما, ولا ينحاز إلى هوى أو عصبية معينة وإنما يريد أن يحمي الأمّة من سارقي أموالها.

---

[437]رجال الفكر و الدعوة في الإسلام , الندوي , ص 130، 131.

[438] في التاريخ الإسلامي , عماد الدين خليل , ص 72 , ولعلّه ا ستفاد ممّا قام به عمّه وصهره عبد الملك بن مروان حين (بذل محاولات دائبة لمصالحة القيسيين والمسح على جروحهم التي أثخنهم بها اليمانيون في معركة مرج راهط ، زمن أبيه مروان بن الحكم,وكيف أنّه بمصالحة هؤلاء تمكّن من حماية ظهره والتحرّك لمجابهة مشاكله في العراق وهو مطمئن إلى عرب الشمال : قيسيّهم ويمانيّهم),المرجع السابق نفسه, ص.80

[439]هو عدي بن أرطأة الفزاري،أبو واثلة:أمير،من أهل دمشق.كان من العقلاء الشجعان،قتله معاوية بن يزيد بن المهلب ، بواسط، في فتنة أبيه يزيد بالعراق،عام102ه ،الأعلام،الزركلي،ج4،ص.219

[440]الكامل في التاريخ، ابن الأثير,ج5,ص49، البداية والنهاية، ابن كثير,ج9,ص154، تاريخ اليعقوبي,ج2,ص302.

حمل هذا الموقف مخلّدا بن يزيد بن المهلب أن يستعفي عمر بن عبد العزيز من بعض المال على أن يتحمّل بقيته فرفض عمر إلاّ جميع المال,وقد شهد عمر شهادة خير في مخلّد هذا وقال:"هذا خير من أبيه",وما لبث إلاّ يسيرا حتى مات على طاعة الخليفة,فقال عمر:"مات فتى العرب",ورثاه بقوله:

بكّوا حذيفة لم يبكّوا مثله　　　　حتى تبيد خلائق لم تخلق[441]

وهذا من تمام عدله رحمه الله ، فإنّ من الظلم أخذ المرء بجريرة غيره ، قال تعالى:(ولا تزر وازرة وزر أخرى)[442].

رفض يزيد بن المهلب دفع الأموال إلى عمر, فألبسه جبّة صوف وأركبه جملا وقال : "سيروا به إلى دهلك"[443],وكانت جزيرة ينفى إليها الفسقاء واللصوص,فلما ساروا به نادى في الناس:أما لي عشيرة ؟" ، فدخل سلامة بن نعيم الخولاني على عمر فقال:"يا أمير المؤمنين اردد يزيد إلى محبسه فإنّي أخاف إن أمضيته أن ينتزعه قومه , فإنّهم قد عصبوا له", وهنا يوازن عمر بين مصلحته في نفيه ومصلحته في حقن دماء المسلمين، فيرجّح الثانية على الأولى, فيأمر بردّه إلى محبسه , الذي بقي فيه حتى بلغه مرض عمر الذي كان يعلم أنّه سوف يموت فيه , قال ابن كثير: "وأظنّه كان عالما أنّ عمر قد سقي سمّا"[444].

فتشجع يزيد للهروب وكان ذلك سنة 101ه,ولعله قد وجد في البيت الأموي من يمكّنه من الهروب, فخرج إلى البصرة وكتب كتابا إلى عمر بن عبد العزيز يقول فيه:"إنّي والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ، ولكنّي خفت أن يلي يزيد فيقتلني شرّ قتلة". فورد الكتاب وبه رمق , فقال: "اللهمّ إن كان يريد بهذه الأمّة سوءا ، فاكفهم شرّه ، واردد كيده في نحره"[445].

---

[441]محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية،محمد الخضري,ج2,ص186 ، 187 , الكامل في التاريخ , ابن الأثير,ج5, ص 49، 50، الأغاني ،الأصفهاني، تحقيق سمير جابر،دار الفكر،بيروت،ط2، 1993،ج10، ص.6714

[442] سورة الأنعام /64.

[443]جزيرة في بحر اليمن ،ومرسى بين بلاد اليمن والحبشة،بلدة ضيّقة حارّة،كان بنو أميّة إذا سخطوا على أحد نفوه إليها، معجم البلدان،الحموي،ج2،ص.492

[444] الكامل في التاريخ , ابن الأثير , ج 5 , ص 49 ، 50، البداية والنهاية, ابن كثير,ج9,ص155.

[445](وكانت أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي- ابنة أخي الحجاج بن يوسف ـــ زوجة يزيد بن عبد الملك , وكان يزيد قد عذّب آل الحجاج , فخاف إن ولي يزيد أن ينتقم منه) , وبالفعل فإنه لمّا (تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك غلب ابن المهلب على البصرة، فسار إليه مسلمة بن عبد الملك فقتله عام 102 ه)، أنظر الكامل في التاريخ,ابن الأثير,ج 5,ص57, 58، التاريخ الإسلامي,محمود شاكر, ج 4 ،ص 245.

الفرع الثاني : الخوارج.

خاض الخوارج عدّة معارك ضدّ بني أميّة،الذين عاملوهم بقسوة شديدة وقتلوهم بالظّن ,حتى أثخنوهم, فسكنوا طيلة خلافة الوليد وأخيه سليمان,فلمّا تولّى عمر بن عبد العزيز خرجوا,وقد غالى الخوارج في سلوكهم ضد مخالفيهم,فكانوا يقتلون كل من خالف عقيدتهم وفكرهم المنحرف,فاستعدوا عليهم الناس, فأبغضوهم ونشطوا لقتالهم,واتّسعت الهوّة بينهم وبين سائر الناس,حتى غدوا فرقة شاذّة معزولة,اتّخذت لنفسها مجتمعا منغلقا على نفسه،(ولقد كانت هذه المعيشة التي يعيشونها في بيدائهم دافعة لهم على الخشونة والقسوة والعنف,إذ النفس صورة لما تألف,ولو أنّهم عاشوا عيشة رافهة فاكهة في نعيم,أوفي نوع منه, لخفّف ذلك من عنفهم,و ألان صلابتهم ورطّب شدّتهم). وقد استولت على الخوارج فكرة التبرّؤ من عثمان وعلي وسائر الحكّام الظّلمة من بني أميّة,ولمّا طلبوا إلى عمر بن عبد العزيز أن يتبرّأ من قومه رفض ذلك, فخلعوا طاعته وناصبوه العداء,ولكنّ عمر الذي ألهمه الله معرفة طبائع ونفسيات هؤلاء القوم,والذي كان يكره بطبعه إراقة الدماء,ويجنح إلى السّلم دوما, سلك معهم سبيل الحوار والجدال الحسن,عساهم يدخلون فيما دخل فيه جمهور المسلمين,من الطاعة والتزام الجماعة[446],فكتب لذلك كتبا إلى عماله في سائر الأمصار,يطلب منهم أن لا يحرّكوا الخوارج ولا يهيّجوهم,اللهم إلاّ إذا سفكوا دما حراما,أو انتهكوا عرضا أو قطعوا طريقا, ومن ذلك كتابه إلى عامله على العراق,عبد الحميد بن عبد الرحمن [447],الذي أمره أن يتلطّف بهم ويدعوهم إلى الكتاب والسنة , ولما أن أعذر في دعوتهم , ورأى منهم تجاوزات واعتداءات في حقّ الرعية ,بعث إليهم بجيش قوامه ألفين فارس

وجعل على رأسه محمد بن عبد الله البجلي , وأمره أن لا يقاتلهم حتى يجادلهم بالحسنى , فرفضوا إلاّ القتال, فانهزم جيش عبد الحميد , فأرسل الخبر بذلك إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ,

---

[446] تاريخ المذاهب الإسلامية,محمد أبو زهرة ,ص 61, ثم ذكر أن زياد بن أ بيه (بلغه عن رجل يكنّى أبا الخير من الخوارج ,فدعاه وولاّه ورزقه أربعة آلاف درهم كل شهر , وجعل عمالته كل سنة مئة ألف , فكان أبو الخير يقول:" ما رأيت شيئا خيرا من لزوم الطاعة والتّقلّب بين أظهر الجماعة"), ثم قال أبو زهرة:" أنظر إلى النّعمة كيف ألانت من الطباع , وهذّبت من النفس , وجعلت من هذا الرجل سمحا رقيقا بعد أن كان متعصبا عنيفا", المرجع السابق نفسه , ص 61 ، التاريخ الإسلامي,محمود شاكر,ج 4,ص248 ,البداية والنهاية ,ابن كثير,ج9,ص.154

[447] هو عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب العدوي،أبو عمر:وال،من أهل المدينة،ثقة في الحديث.توفّي بحران في خلافة هشام،نحو115ه،الأعلام ، الزركلي ، ج3،ص286، 287.

فجهّز إليهم جيشا من الرّقّة بإمرة مسلمة بن عبد الملك , وكتب إلى عبد الحميد: " قد بلغني ما فعل أهل الشام فانتصر عليهم,وكسر شوكتهم[448].

إنّ هذا الذي عمله عمر بن عبد العزيز معهم,لم يكن ليفكّر فيه أصلا,لولا أنّهم ألجئوه إليه,بما استحلّوا به من أعراض ودماء ومقدّسات المسلمين وغيرهم من أهل الذّمّة,ومع ذلك أمر بردّ متاعهم من مال وكسوة وأغراض مختلفة إلى أهليهم.ولمّا خرجت بالموصل خارجة منهم,كتب إليهم,يدعوهم إلى التزام الطاعة والجماعة,مع التهديد والوعيد لهم بالعقوبة,إن هم تمادوا في غيّهم,ومما جاء في كتابة إليهم:"من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى العصابة الذين خرجوا,أما بعد:فإن الله يقول:(أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن),إلى قوله:(بالمهتدين)[449],وإني أذكركم الله أن تفعلوا كفعل كبرائكم,(الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدّون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط) [450]",ثم رفض أن يتذرع هؤلاء بإمامته الناس على غير سبيلهم ومنهجهم,فيقعوا في الفتنة والظلم,فقال لهم:"أفبذنبي تخرجون من دينكم وتسفكون الدماء,وتنتهكون المحارم".ثم ذكّرهم بأنّ آباءهم وسلفهم من الخوارج كانوا ضمن الإطار الإسلامي العام,فلم يخرجوا على أبي بكر وعمر,بالرغم من أنّهما بشران ولهما ذنوب وأخطاء،فكيف يسع أولئك ما لم يسعهم هم،ثم هدّدهم بقوله:"وإنّي أقسم لكم بالله،لوكنتم أبكارا من ولدي،فولّيتم عمّا أدعوكم إليه من الحق لدققت رقابكم،ألتمس بذلك وجه الله والدّار الآخرة،فهذا النصح ،فان استغششتموني فقديما ما استغشّ الناصحون"،فأبوا إلاّ القتال،وحلّقوا رؤوسهم وساروا إلى يحي بن يحي[451] والي الموصل,ومع ذلك ظل عمر رفيقا بهم,فنهى واليه عن الاعتداء وتجاوز الحق والعدل في عقابهم ، فبعث إليه بقوله : "من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى يحي بن يحي،

---

[448] الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ج4 ، ص 38 ، سيرة ومناقب عمر ،ابن الجوزي، ص 116.

[449] سورة النحل /125.

[450] سورة الأنفال / 47.

[451] هو يحي بن يحي بن قيس بن حارثة الغساني،أبو عثمان :قاض،عالم بالفتيا،ولد عام 64ه،له أحاديث،ثقة.كان من أهل الشام،وكان أبوه على شرطة مروان بن الحكم. ا شتهر بعلمه،وكان من الفصحاء البلغاء،مات عام 133ه ، (الأعلام ، الزركلي ، ج 8 ، ص176).

أمّا بعد : " فإنّـــــي ذكرت آيـــة في كتـــــاب الله : (ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين) [452]،وإن من العدوان قتل النساء والصبيان,فلا تقتلن امرأة ولا صبيّا ولا تقتلنّ أسيرا،ولا تطلبنّ هاربا ، ولا تجهزنّ على جريح إن شاء الله"[453].

بهذه السياسة التي جمعت بين اللّين والرحمة حينا والحزم والقوة حينا آخر،استطاع عمر أن يقضي على تلك الظاهرة الشاذة ، وأن يستميل الكثير من الجماعات المتطرّفة ، التي قال كثير من زعمائها حين رأوا عدله واستقامته : "ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل" [454]،ومن أولئك عمرو الربيعي أحد شعرائهم ، الذي بعث إلى عمر بأبيات من الشعر، يرجوه الالتحاق بهم ، ليكون واعظهم ومفتيهم فيما هم عليه من بدعة الخروج ، ومما جاء فيها:

قل للمولّى على الإسلام مؤتنفـــــا	وقد يرى أنه رثّ القوى،واهي
إذ رابه معشر عدوه مأكلـــــــــة	بنحوة الملك والإسراف والباه
إنّا شرينا بدين الله أنفسنـــــــــا	نبغي بذلك إليه أعظم الجـــاه
ينهي الولاة بحدّ السيف عن ســرف	كفى بذلك من زاجر ناهـــي
وإن قصدت سبيل الحق يا عمـــــرا	آخاك في الله أمثالي وأشباهي
وإن لحقت بقوم كنت واعظهـــــــم	في جور سيرتهم فالحكم لله

فلما قرأ عمر قصيدته ، أجابه بنحوها قائلا :

يا أيّها الرجل المهدي نصيحته	إن المحـــاسن والتوفيــــق بالله
إن كان أمر من السلطان تتكره	فماعرى الدين والإسلام بالواهي
هذا الكتاب،كتاب الله تقــــرؤه	مصدّق الوحي فينا آمر ناهـــــي
فقد يزلّ الذي يبغي الهدى رهقا	عند الشريعة ، وهو العالم الدّاهي
الملك،ياعمرو،ملك الله خالقــنا	والحكم،ياعمرو، مردود إلى الله

كانت هذه الكلمات الطيّبة من عمر،بمثابة البلسم الشافي،والدواء النّاجع لعلّة هذا الرجل،الذي ضلّ الطريق الحق،وهو يعتقد أنه نهج الاستقامة،فما كان منه إلا أن أقبل على أمير المؤمنين وهو يعلن توبته ودخوله فيما دخل فيه جميع المسلمين[455].

---

[452] سورة البقرة /190 ، سورة المائدة/87.

[453] سيرة ومناقب عمر ، ابن الجوزي ، ص 116، 117، الخليفة العادل ، ابن عبد الحكم،ص89، 90.

[454] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، ابن الجوزي ، ص86

[455] المصدر السابق نفسه، ص292، معجم الشعراء ، المرزباني ، تحقيق عبد الستار فراج،دار التراث العربي،بيروت،ط1، 1960م، ج1، ص98.

واتّخذ عمر إجراءات تهدئة معهم،ومنها السّماح لهم بالسير في الأرض،بشرط أن لا يعتدوا على الناس،ولا يفسدوا في الأرض،فكتب بهذا الشأن إلى عامله بالموصل، يقول:"... وإن كان رأي القوم أن يسيحوا في البلاد على غير فساد على أهل الذمة، ولا تناول أحد من الأمة ، فليذهبوا حيث شاءوا ، وإن هم تناولوا أحدا من المسلمين ، وأهل الذمة ، فحاكمهم إلى الله"[456].

ولم يقل – رضي الله عنه– حاكمهم إلى السيف، كما كان يفعل الخلفاء قبله، فقد كانوا يقتلونهم شرّ القتل، بمجرّد سبّهم وشتمهم إيّاهم.

وقد بلغ من تسامح عمر بن عبد العزيز مع الخوارج أن رضي بتولية عامله بخراسان لأحدهم وهو عمارة الطويل على إمارة من الإمارات ، و قد كان خارجيا متعصبا ،وأصاب دماء وأموالا ، ولكنه أعلن توبته ، بمجرد أن تولى عمر الخلافة ، وسمع أنه إمام عدل وهدى.

ولما تأكد أكثرالخوارج أن أمير المؤمنين صادق في محاورتهم، وحريص على إدماجهم في المجتمع، وأنّه لا يريد الانتقام منهم، أعلنوا توبتهم، ودخلوا في الطاعة والجماعة، زرافات ووحدانا، بل نصبّوا أنفسهم، في بلاد العراق والجزيرة خاصة، حماة للضعفا ء وحرّاسا للأمن وحربا على المفسدين ،ومن ذلك ما مدّوا به جماعات البربر من أهل المغرب ، المتذمّرين من حكم الظلمة ، بالسلاح الذي استطاعوا به الانقلاب على أولئك الطغاة[457].

أراد عمر بن عبد العزيز يوما أن يعطي للناس عموما, ولجلسائه وخواصّه درسا في أهمية الحوار وأثره على العقول والقلوب ، ذلك أنه لما دخل عليه نفر من الخوارج ، وذاكروه في مسائل تعصّبوا فيها لرأيهم ، وكفّروا بها مخالفيهم ، أومأ إليه بعضهم أن يأمر بقتلهم، فرفض وظلّ يتلطّف بهم و يرفق، حتى أخذ عليهم العهود والمواثيق ألاّ يعودوا إلى أعمالهم الإجرامية، في مقابل أن يرزقهم ويكســوهم ما بقي ، فرضــوا بذلك وخرجوا يشكــرونه ويثنــوا عليــه خيرا، فقال حينذاك– وهو يضرب ركبة أحد الجلساء–:"يا فلان إذا قدرت على دواء تشفي به صاحبك دون الكيّ، فلا تكوينّه أبدا"[458].

---

[456] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، ابن الجوزي، ص115 .

[457] تاريخ الإسلام ، حسن إبراهيم حسن ، ج1 ، ص 386، سيرة و مناقب عمر بن عبد العزيز،ابن الجوزي ، ص128/ص 138 ، راجع : (الخروج على الحاكم الجائر بين الجريمة السياسية وحقّ الأمة في مواجهة ا ستبداد الحاكم) ، مجلة الصراط ، أ.د محمد دراجي ، كلية العلوم الإسلامية،الجزائر،السنة الثانية،1421هــ–2000م،العدد3، ص272 وما بعدها.

وهكذا ظل يحاورهم و يناظرهم و يراسلهم [459]، بلا كلل ولا ملل، إلى أن وافاه أجله وهو على ذلك رحمه الله. و كان من أجلّ تلك المحاورات ما ناظر به رسولين من رسل أحد زعماء الخوارج و يدعى: بسطام[460]، من بني يشكر، وقد خرج هذا الرجل في ثمانين رجلا من قبيلة ربيعة، في بلدة جوخى[461]، من أرض الكوفة ، ولما أن سمع عمر بخروجه بعث إليه بكتاب جاء فيه : "بلغني أنّك خرجت غضبا لله ورسوله، ولست أولى بذلك منّي، فهلمّ إليّ أناظرك، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل الناس، وإن كان في يديك نظرنا في أمرنا" ، فوقع هذا الكلام في نفس بسطام موضع القبول والرّضى، فردّ على عمر: " قد أنصفت وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك" ، وهما رجل حبشي اسمه عاصم ، وكان مولى لبني شيبان والآخر رجل من بني يشكر، فقدما على عمر بخناصرة، فانتصب لحوارهما ، وكان على جانب كبير من العلم والفقه ، فبدآ حوارهما معه بثناء وجّهاه إليه ، لحسن سيرته وعدله في الرعيّة[462], وبعد ذلك سألاه إن كان هذا الأمر–أي الخلافة– قد نالها على مشورة من المسلمين ، أم اغتصبها بولاية العهد ، كما فعل سابقوه، فأجابهم عمر عن ذلك بقوله: "ما سألتهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها ، وعهد إليّ رجل كان قبلي– أي سليمان– فقمت ، ولم ينكره عليّ أحد ولم يكرهه غيركم(...) ,فإن خالفت الحقّ ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم" ، فرضيا قوله هذا ، ثم سألاه أن يتبرّأ من قومه الذين تولّوا قبله ، والذين سمّى أعمالهم مظالم وأقرّ بجورهم ، وطلبوا منه أن يلعنهم، فقال : "قد علمت أنّكم لم تخرجوا طلبا للدنيا ولكنّكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها ، إن الله عز و جل لم يبعث

---

[458] سيرة و مناقب عمر بن عبد العزيز،ا بن الجوزي ، ص 95، 96.

[459] ذكر المسعودي أن لعمر بن عبد العزيز أخبارا و مراسلات مع الخوارج وقد أوردها في كتابيه: (أخبار الزمان) و(الأوسط)، أنظر مروج الذهب ، ج3 ، ص 238.

[460] هو بسطام اليشكري المعروف بشوذب:ثائر جبّار،أذن يزيد بن عبد الملك في قتاله ،بعد موت عمر بن عبد العزيز،فهزم ثلاثة جيوش من أهل الشام،كل جيش في ألفين،وكان في ثمانين من أصحابه،وعظم أمره وخاف الناس شرّه،فجهّز مسلمة جيشا فيه عشرة آلاف مقاتل،بقيادة سعيد بن عمرو الحرشي،فأحاطوا بشوذب ثم قتلوه ، عام101ه ، الأعلام ، الزركلي ، ج2 ، ص.51

[461] بلد بالعراق و تنسب لاسم نهر شرقي بغداد ، معجم البلدان ، الحموي ، ج2 ، ص 179.

[462] الكامل في التاريخ ، ابن الأثير، ج5، ص 45، 46، تاريخ الأمم والملوك، ج4، ص62، التاريخ الإسلامي،محمود شاكر ، ج4، ص248 .

رسوله صلى الله عليه و سلم لعّانا ، وقال إبراهيم :(فمن تبعني فإنّه منّي ومن عصاني فإنّك غفور رحيم)[463] ، وقال عزوجل :(أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)[464]، وقد سمّيت أعمالهم ظلما وكفى بذلك ذماً ونقصا ، ثم بيّن لهما أنّ لعن أهل المعصية ليس بواجب ، وإلاّ لكان لعن فرعون ومن شابهه ،من الفرائض التي نتعبّد بها ربنا عزوجل ،وهذا ما لم يفعله الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ولا أحد من الصحابة والتابعين ، ثم سألاه إن كان الولاة قبله قد كفروا بظلمهم وفجورهم ، فبيّن لهما موضع الخطأ في ذلك، بأن أخبرهما بأنّ المعصية توجب الحد ولا توجب الخروج من الملة ، وفرق شاسع بين الكفر والفسوق ، فالأوّل يخلّد به صاحبه في جهنم إن مات عليه ، أمّا الثاني فإلى مشيئة الله عزوجل ، إن شاء عفا عنه بفضله ورحمته ، وإلاّ عذّبه بعدله ،ثم يخرجه من النّار إلى الجنّة ، وهذا عين معتقد أهل السنة والجماعة[465].

لمّا استبان الحق وعرف الرسولان أنهما على ضلال ، رغبا إلى عمر أن يعلن براءته ممّن سبقه من الحكّام الظلمة ، فذكّرهما بصنيع أبي بكر وعمر الذين يقرّان بإمامتهما ، حيث أنّ أبا بكر حارب أهل الردة وسبى ذراريهم واستحلّ أموالهم ، وأمّا عمر فقد ردّ سباياهم بفدية ، ومع ذلك لم يبرأ الثاني من الأوّل ، ثم ذكّرهما بصنيع أوائل الخوارج من أهل النهروان[466],الذين لم يكونوا يستحلّون دما ولاعرضا على خلاف من جاء بعدهم من غلاة الخوارج ، من الأزارقة الذين قتلوا جنينا وامرأته وهي حامل ، ومع ذلك لم يتبرّؤوا منهم ، فقال : "أفيسعكم أن تتولّوا أبا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة،وقد علمتم اختلاف أعمالهم ، ولا يسعني إلاّ البراءة من أهل بيتي والدين واحد ، فاتّقوا الله فإنّكم جهّال ، تقبلون من الناس ماردّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتردّون عليهم ما قبل، ويأمن عندكم من خاف عنده ، ويخاف عندكم من أمن عنده".

ولما لم تقم لهما حجة ، راحا يخطّئانه بعهده ليزيد بعده ، فقال اليشكري:" أرأيت رجلا ولي قوما وأموالهم فعدل فيها ، ثم صيّرها بعده إلى رجل غير مأمون ، أتراه أدّى الحقّ الذي يلزمه لله عز وجل، أو تراه قد سلم؟ "،قال:"لا"، قال :" أفتسلّم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنّه لا

463 سورة إبراهيم / 36 .

464 سورة الأنعام / 90.

465 راجع (مقالات الإسلاميين) للأشعري عند تعرضه لشرح معتقد أهل السنة والجماعة،وكتاب (الجنة والنار) للدكتور عمر سليمان الأشقر.

466 ا سم واد يقبل من نواحي أذربيجان إلى جانب العراق،الحموي،ج5،ص325.

يقوم فيه بالحق؟"، قال:"إنّما ولاّه غيري ، والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي- أي لهم أن يولّوه أو يعزلوه من بعدي-"، قال: "أفترى في ذلك من صنع من ولاّه حقا؟"، وهنا كانت الضّربة القاضية لعمر، ذلك أنه يعلم أن معاوية بن أبي سفيان ومن جاؤوا بعده إنّما اغتصبوا الإمامة من أهلها ، ولم يكتفوا بذلك بل جعلوها ملكا وراثيا ، والأصل أن تكون شورى بين المسلمين ، لا فضل في ذلك بين عربي أو أعجميّ، ولا بين أبيض وأسود ، لقوله صلى الله عليه و سلم: << اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي>>[467].وحين سمع عمر مقالتهما بكى ولم يردّ عليهما بأيّ شيء، اللّهمّ إلاّ أنّه طلب منهما أن ينتظرانه ثلاثة أيام ليدرس رأيهما في أمر العهد ليزيد ، ثم خرجا من عنده ، وقد تأثّر المولى الحبشي بما قاله عمر ، فأذعن للطاعة ولزم الجماعة، وتاب من عقيدته المنحرفة, وأما اليشكري فلم يعلن صراحة تراجعه عن فكره ، ولكنّه ترك الأمر مفتوحا بينه وبين الخليفة ، حتى يلقى أصحابه فيخبرهم بنتيجة حواره معه ، ولكن الله غالب على أمره ، فلم يلبث عمر بعد ذلك إلا يسيرا حتى أقعده المرض ، فمات بعد خمسة عشر يوما,وكان قبيل وفاته يقول:"أهلكني أمر يزيد وخصمت فيه,فأستغفر الله"[468]. وقد ذهب كثير من المؤرّخين إلى أنّ يزيد بن عبد الملك هو الذي أوعز إلى خادم عمر بأن يدسّ له السم ، لكي يصفو له الجوّ بعده[469].قال المودودي رحمه الله:"تلك كانت الواقعة التي خاف بنو أمية بعدها أن يقضى على الملك الوراثي فتكون الخلافة شورى"[470].

---

[467] رواه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك،ج6،ص2612،(كتاب الأحكام-باب أجر من قضى بالحكمة,رقم6723.

[468] الكامل في التاريخ ، ابن الأثير، ج5، ص 46 و ما بعدها ، البداية و النهاية ، ابن كثير، ج9، ص 154، الخلافة والملك المودودي، ص 126، الإمامة و السياسة ، ابن قتيبة، ج2 ، ص 273 ، 274، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، محمد الخضري، ج2، ص 182، 183،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص130وما بعدها .

[469] و هنا درس آخر من دروس المصالحة، طبّقه عمر على نفسه، فقد قال مجاهد:" قال لي عمر بن عبد العزيز- في مرض موته- ما يقول الناس فيّ؟ قلت: يقولون مسحور،فقال ما أنا بمسحور، وإنّي لأعلم الساعة التي سقيت فيها، ثم دعا غلاما، فقال له: ويحك، ما حملك على أن تسقيني السم؟قال: ألف دينار أعطيتها وعليّ أن أعتق ، قال: هاتها، قال: فجاء بها فألقاها في بيت المال، وقال: اذهب حيث لا يراك أحد "، تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص 197 .

[470] الخلافة والملك، ص 126، عمر بن عبد العزيز الرا شد المجدد، يوسف القرضاوي ،مكتبة وهبة،القاهرة،ط1، 1422هـ-2001م، ص 38.

الفرع الثالث : الشّيعة.

ناصب بنو أمية العداء لآل البيت، فقد كانوا يسبّون عليّا كرم الله وجهه على المنابر،وفي خطب الجمعة يختمونها بلعنه ، وكان عبد العزيز والد عمر يكره ذلك في نفسه ، ولكنّه لا يستطيع التصريح به ، وكان عمر يعرف ذلك منه فسأله يوما:"يا أبه، إنك تمضي في خطبتك ، فإذا أتيت على ذكر علي عرفت منك تقصيرا" ، قال:"أو فطنت لذلك؟" قال:"نعم"، فقال:"يا بني،إن الذين حولنا لو يعلمون من علي ما نعلم ، تفرّقوا عنّا إلى أولاده". ولمّا كان الإنسان ابن بيئته – كما قيل– ، فقد تأثّر عمر بهذه الثقافة المنحرفة ، فكان أحيانا –وقبل إمارته المدينة– ، ربّما تعرّض لعلي بسبّ أو شتم،فلما بلغ ذلك شيخه عبيد الله بن مسعود غضب لذلك أشدّ الغضب .ولما دخل عليه–يوما– أعرض عنه ، وقام يصلي ، فجلس عمر ينتظره ، فلما سلّم أقبل عليه مغضبا ، وقال:"متى بلغك أن الله سخط على أهل بدر وبيعة الرضوان،بعد أن رضي عنهم"، ففهمها عمر، فقال لشيخه:"معذرة إلى الله ثم إليك ، والله لا أعود"، فما سمع بعد ذلك يذكر عليا إلاّ بخير، بل صار يحسن إلى آله وشيعته ويعطف عليهم ، ويتوسّط لدى الخلفاء قبله ، فيقضي حوائجهم،ومن ذلك أن عبد الله بن الحسن [471]جاءه في حاجة له ,وقد كان رجل من الجند أصابه الطاعون ,فحثه عمر على الإسراع إلى أهله ، لئلاّ تصيبه العدوى [472].

وبمجرد أن آلت الخلافة إليه، كان أوّل ما بدأ به أن ترك لعن علي،وكتب بذلك مرسوما عاجلا، وبعث به إلى جميع ولاته ،في كل الولايات، وجعل مكانه قوله تعالى: (إِن اللهّ يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر يعظكم لعلّكم تذكّرون) [473],وقيل بل جعل مكانه قوله عز و جل: (ربّنا اغفر لنـــا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمـــان ولا تجعــل فـــي قلوبنا

---

[471] هو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب،الهاشمي القرشي،أبو محمد:تابعي.من أهل المدينة ولد عام 70ه ، قال الطبري:"كان ذا عارضة وهيبة ولسان وشرف".وكانت له منزلة عند عمر بن عبد العزيز،حبسه المنصور،عدة سنوات،من أجل ابنيه:محمد وإبراهيم.ونقله إلى الكوفة،فمات سجينا فيها ، عام145ه ، الأعلام ، الزركلي، ج4،ص.78

[472] الكامل في التاريخ ، ابن الأثير، ج 5، ص 42 ، البداية والنهاية ، ابن كثير، ج 9، ص 158، 159، سيرة و مناقب عمر بن عبد العزيز، ابن الجوزي، ص 97.

[473]سورة النحل/90.

غلاّ للذين آمنوا ربّنا إنّك رؤوف رحيم) [474],وقيل بل جمع بينهما [475].قال ابن الأثير:"فحل هذا الفعل عند الناس محلاّ حسنا ، وأكثروا مدحه بسببه"، وممّن أثنى عليه الشاعر المشهور كثيّر عزّة، فقال:

وليت فلم تشتم عليا ولم تخـــف بريا ولم تتبع مقالة مجـــرم
تكلمت بالحق المبين وإنـــما تبـين آيـات الهـدى بالتكـلّـم
وصدّقت معروف الذي قلت بالذي فعلت فأضحى راضيا كل مسلم
ألا إنما يكفي الفتى بعد زيغـــه من الأود البادي ثقاف المقـــوّم

فلما سمع عمر بهذه الأبيات قال:"أفلحنا إذا"[476].

وعلى خلاف سلفه، طفق عمر ينشر محاسن آل البيت، ويثني عليهم ويكرمهم ، أحياء وأمواتا، فهاهو يقول: "أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب عليه السلام"، وذلك حين تذاكر أصحابه الزّهّاد عنده ، و لما مات علي بن الحسين عام 99 ه،قال عمر يؤبّنه:"ذهب سراج الدنيا وجمال الإسلام وزين العابدين"[477].

ولم يكتف بالقول بل قرنه بالعمل، فكان يكرم أهل البيت بالعطايا والهبات،فكتب إلى عامله بالمدينة المنورة أن يقسم في ولد علي بن أبي طالب عشرة آلاف دينار، فرد عليه:"إنّ عليا ولد له في عدّة قبائل من قريش ،ففي أي ولده؟ "، فكتب إليه:"إذا أتاك كتابي هذا فاقسم في ولد عليّ من فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار، فطالما تخطّتهم حقوقهم"، وقال لرجل من ولد علي:"إني لأستحي من الله أن تقف ببابي ولا يؤذن لك"[478].

---

[474] سورة الحشر/ 10.

[475] مروج الذهب، المسعودي، ج3، ص 277.

[476] الشعر والشعراء ، ابن قتيبة الدينوري ، ،تحقيق دي جويه،ليدن،ط 2، 1902م، ج1، ص 575، الكامل في التاريخ ، ابن الأثير،ج5، ص42 ،43.

[477] هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب،الهاشمي القرشي،أبو الحسن،الملقّب بزين العابدين:رابع الأئمة الاثني عشر عند الامامية ، وأحد من كان يضرب بهم المثل في الحلم والورع،ولد بالمدينةعام38ه،وتوفي بها عام94ه.أحصي–بعد موته–عدد من كان يقوتهم سرّا،فكانوا نحو مئة بيت.وليس للحسين "السبط"عقب إلاّ منه ، الأعلام ، الزركلي ، ج 4 ، ص277,وقد ذكر أنه توفي عام 94ه.

[478] سيرة و مناقب عمر بن عبد العزيز ، ابن الجوزي ، ص 301 ،302 ، تاريخ اليعقوبي، ج 2 ، ص 305،مروج الذهب، المسعودي، ج3، ص 228، الطبقات الكبرى،ابن سعد، ج4 ،ص 66، البداية والنهاية ، ابن كثير ، ج9 ، ص 166.

إنّ بعض الناس ربّما أغراه حلم الحليم ، فتجرّأ عليه وواجهه بالخصومة ،فالموقف يقتضي– حينئذ– الحزم مع العفو والصبر ، فهذا الموقف وقع لعمر بن عبد العزيز، حين جاءه أبو الطفيل عامر بن واثلة[479],وكان من شيعة علي,فقال:"لم منعتني عطائي؟",فقال له:"بلغني أنك صقلت سيفك، وشحذت سنانك ، ونصلت سهمك ، وغلفت قوسك ، تنتظر الإمام القائم حتى يخرج,فإذا خرج وفاك عطاءك"[480].فقال:"إن الله سائلك عن هذا",فاستحيا عمر من هذا وأعطاه.

وكتعبير آخر عن مصالحة آل البيت,عمد عمر إلى إرجاع أرض فدك [481]إلى بني هاشم, فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق منها على صغارهم ويزوج من خراجها عزّابهم ، حتى إذا ولي مروان بن الحكم اقتطعها وقسمها بين ولديه الوليد وسليمان ، الذين تنازلا عنها لعمر بن عبد العزيز ، فلما ولي الخلافة ردّها على ما كانت عليه وقال: "فرأيت أمرا منعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة ليس لي بحقّ ، وإنّي أشهدكم أنّي قد رددتها على ما كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم".

لقد نال عمر بمثل هذه الأعمال الخالصة لوجه الله تعالى،رضا الجميع من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصّة ومن الناس عامّة ، وهاهـي واحدة مـن ذلك البيـت الشـريـف وهـي

---

[479] هو عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمرو،الليثي الكناني القرشي،أبو الطفيل:شاعر كنانة،وأحد فرسانها،ومن ذوي السيادة فيها.ولد يوم وقعة أحد،وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم تسعة أحاديث.خرج على بني أمية مع المختار الثقفي،مطالبا بدم الحسين،ثم خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث.توفي بمكة،عام 100ه،وهو آخر من مات من الصحابة ، الأعلام ، الزركلي ، ج 3 ، ص255، 256.

[480]والغريب الملفت للانتباه أن الدعوة العباسية بالرغم من أنها ظهرت على عهد عمر بن عبد العزيز ونشط دعاتها في بلاد الإسلام حينذاك ، وبالرغم من أن ذلك يعدّ خروجا على النظام العام وتهديدا لاستقرار الدولة الأموية،إلا أنّ كتب التاريخ في حدود إطلاعي لم تتعرّض إلى موقف عمر من ذلك، لا بالإيجاب ولا بالسلب، والسر يكمن –والله أعلم– في أنه لا يريد فتح جبهة جديدة للصراع، فتغاضى عن ذلك.

[481] قرية بالحجاز بينها و بين المدينة يومان، معجم البلدان ،الحموي،ج4، ص 238.

فاطمة بنت الحسين[482]تعبر عن حبها ووفائها لعمر بعد وفاته,فتقول:"لو كان بقي لنا عمر بن عبد العزيز ما احتجنا بعده إلى أحد"[483].

الفرع الرابع: آل الزبير

سبق وأن أشرت بشكل موجز ،في الفصل الأول، أنّ بني أمية خاضوا حروبا دامية مع الزبيريين حتى استحلّوا بسبب ذلك الحرم المكي ، وقتلوا فيه عبد الله بن الزبير عائذا به، و قد قتلوا قبله أخاه مصعبا، فترك ذلك في القلوب الضغائن والأحقاد، وكان الأمويون يتحسّسون من آل الزبير، فيحملون أيّ قول أوعمل منهم على سبيل الظّنّ والشّبهة،ومن ذلك أن الوليد بن عبد الملك وهو خليفة للمسلمين ، بلغه أنّ خبيب بن عبد الله بن الزبير يذمّ بني أمية، فبعث إلى عمر بن عبد العزيز، وكان حينها واليا على المدينة المنورة، يطلب منه أن يعاقب خبيبا، فجلده خمسين جلدة، ثم وضع سقاية ماء بارد على رأسه، وكان شتاء قارسا ، ثم تركه واقفا طوال اليوم على باب المسجد النبوي، وانتهى الأمر بموته من جرّاء ذلك(ظلما صارخا وعقابا غير شرعي ألبتة، اضطرّ إلى ارتكابه عمر بن عبد العزيز بصفته واليا، لكنه استقال بعد من الولاية، وتملّكه خوف شديد ورهبة كبيرة من الله، وتألّم ألما مرّا قاسيا)،ولمّا آلت إليه الخلافة،دعا آل الزبير فقسم فيهم قسما خاصا,فقال الناس :"دية خبيب "[484].وهذا الصنيع يدل على حسن فقهه لقوله تعالى:(فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان)[485],فالآية الكريمة اعتبرت أنّ القاتل بالرغم من جنايته أخ لوليّ المقتول، وهذا في القتل العمد ، كما ذكر ابن كثير في تفسيره، فما بالك إذا كان القتل خطأ ، أو ألجأت إليه طاعة أولي الأمر كما هو شأن عمر بن عبد العزيز في تلك الحادثة المؤسفة[486].

---

[482] هي فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب:تابعية،من راويات الحديث،روت عن جدتها"فاطمة"مرسلا،وعن أبيها وغيرهما،ولدت عام40ه.ولما قتل أبوها حملت إلى الشام مع أختها سكينة،ثم عادت إلى المدينة فتزوجها ابن عمها"الحسن بن الحسن بن علي"ومات عنها،فتزوجها "عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان"،ومات،فأبت الزواج من بعده إلى أن توفيت عام 110ه . من كلامها:"ما نال أحد من أهل السّفه بسفههم شيئا ولا أدركوا من لذّاتهم شيئا إلاّ وقد ناله أهل المر وآ ت فاستتروا بجميل ستر الله" ، الأعلام،الزركلي،ج5،ص130.

[483]الكامل في التاريخ ، ابن الأثير، ج5، ص65.

[484] الخلافة والملك، المودودي، ص 124، أنظر :(عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي) ، عبد الجبار ناجي، مجلة كلية الآداب في جامعة البصرة ، مطبعة النعمان،النجف الأشرف،العراق،السنة التاسعة،1396هـ-1976م،العدد10، ص 130، 131، سيرة و مناقب عمر بن عبد العزيز، ابن الجوزي، ص 60.

[485] سورة البقرة/ 178.

[486] مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني ،،شركة الشهاب،باتنة،1411هـ-1990م، ج1، ص.210

الفرع الخامس: القدريّة.

إنّ كثيرا من الحروب والفتن بدأت بكلمة أو كلمتين، فما بالك إذا تعلّق الأمر بفكر ومنهج تسنده جماعة متعصّبة ، ترى مخالفيها أعداء ، وتتحيّن كل فرصة لتصفيتهم ومصادرة أفكارهم بالسيف والسجن ، وقد حدث مثل هذا في تاريخ الإسلام ، فقد وجدنا المعتزلة فرقة بدأت بكلمات وأفكار –تكلم بها أوائل القدرية– شذّت بها عن جمهور المسلمين، ومع مرور الزّمن استطاع أولئك أن يستولوا على الحكم من خلال استمالتهم لبعض الحكام الذين تبنّوا أفكارهم ، فما كان من هؤلاء ، وقد توفّر لهم السلطان ، إلاّ البطش بالمناوئين لهم من أهل السنة ، وعلى رأسهـــم إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رحمه الله. أقول هذا لبيان مدى خطورة الفكر الشّاذ على جمهور الأمّة وأمن الدولة ، ذلك أن القدرية في عهد عمر بن عبد العزيز شغلوا الناس بمقالاتهم الضالة ، وأحدثوا بذلك فتنة وشرخا في البناء العقائدي والفكري للمسلمين ، وكان ذلك –كما أسلفت– بإيعاز ومكر من أهل الكتاب ، الذين حقدوا على الإسلام لمّا رأوه ينتشر ويتوسع ، فاتحا القلوب والحصون ، فأغاظهم ذلك أيّما غيظ، وملأ قلوبهم حسدا ، فلما لم يقدروا على مواجهته في ميدان السنان والسلاح ، اختاروا للمعركة ساحة أخرى ، برز فيها القلم واللسان ، فانطلى فكرهم الفاسد على ضعفة القلوب والعقول وأصحاب الأهواء من المسلمين ، وكان من أبرز القائلين بالقدر في خلافة عمر بن عبد العزيز : غيلان الدمشقي ، الذي أظهر القول بالقدر، فدعاه وناقشه في نحلته وقطع حجّته[487]،فقال غيلان:" يا أمير المؤمنين لقد جئتك ضالا فهديتني ، وأعمى فبصّرتني، وجاهلا فعلّمتني ، والله لا أتكلم في شيء من هذا الأمر"، فطلب منه عمر أن يعينه على القدرية ، فيردّهم إلى الجادة ، ولكنّ غيلانا اشترط لذلك أن يولّيه بيع الخزائن، وردّ المظالم ، فكان يبيعها وينادي عليها بقوله:" تعالوا إلى متاع الخونة ، تعالوا إلى متاع الظلمة ، تعالوا إلى متاع من خلف رسول الله صلى الله عليهوسلم في أمته بغير سنته وسيرته". كان هذا التصرّف وغيره قد راب عمر في شأنه ، فشعر بعدم صدقه في توبته، فدعا عليه قائلا:" اللهم إن كان صادقا وإلاّ فاصلبه ، واقطـــع يديـــه ورجليه"، وبالفعـــل فقد حدث ما توقّعـــه ودعا بـــه، فإنّـــه بمجـــرّد أن مـــات

[487]راجع فكر المعتزلة، ومحنة أحمد بن حنبل في كتاب ، تاريخ المذاهب الإسلامية،محمد أبو زهرة،ص124وما بعدها/ص480 وما بعدها. راجع نص مناظرة عمر لغيلان،المرجع السابق نفسه،ص112.

عمر حتى عاد غيلان إلى بدعته، فأخذه هشام بن عبد الملك في خلافته، فصلبه وقطع أربعته في دمشق [488].

وكان من رأي عمر في القدرية أن يستتابوا وإلاّ نفوا عن ديار المسلمين، أوعرضهم على السيف، بعد إقامة الحجّة عليهم ، قال عمر:"ينبغي لأهل القدر أن يتقدّم إليهم فيما أحدثوا من القدر، فإن كفوا وإلا استلت ألسنتهم من أقفيتهم استلالا "[489].

وكان يحثّ ولاته على محاورة القدرية، عن طريق العلماء ، الذين يبيّنون لهم مواطن الخطأ في معتقدهم ، فإن أصرّوا على ماهم عليه ، طلبت منهم التوبة ، ونظروا في ذلك أياما ليروا رأيهم ، فإن تشبّثوا بما هم عليه ، نفوا من ديار المسلمين. وهذا ما كتب به عمر إلى واليه بالبصرة عدي بن أرطأة : "أما بعد فإذا أتاك كتابي هذا فاستتب القدرية مما دخلوا فيه ، فإن تابوا فخل سبيلهم ، وإلاّ فانفهم من ديار المسلمين".

وظلّ عمر يكاتبهم ويراسلهم ليقيم عليهم الحجّة أمام الله وأمام الناس ، وليقيهم شرّ فكرهم المنحرف، ومن تلك الرسائل الموجّهة إليهم رسالة قال فيها:"... أما بعد ، فقد علمتم أنّ أهل السنة كانوا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة ، وسينقص العلم نقصا سريعا،ومنه قول عمر بن الخطاب وهو يعظ: إنه لا عذر لأحد عبد الله بعد البيّنة بضلالة ركبها حسبها هدى،ولا في هدى تركه حسبه ضلالة ، فقد تبيّنت الأمور، وثبتت الحجة وانقطع العذر" [490],ثم ساق نصوصا من القرآن تدحض حججهم الواهية ، منها قوله تعالى:(إنّا كاشفوا العذاب قليلا إنّكم عائدون) [491],ومعناها–في قول ابن مسعود–:"أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟ ، فلما أصابهم الرفاهية، عادوا إلى حالهم، وقد كان أصابهم الهلاك ، فطلبوا رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يستسقي لهم فاستسقى فسقوا"، وقد أورد هذا النص لبيان أنّ قدر الله نافذ في عباده،ولو ادّعوا أنهم سيغيرون سلوكهم وفكرهم إن أعطوا فرصة أخرى[492].

ثم استشهد بقوله تعالى:(...ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) [493],ومعناها:"...أي في طلبهم الرجعة,ولو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة, وإنهم لكاذبون في قولهم : (ياليتنا

---

[488]تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص 195، تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، ص 112 ، 113 .

[489]سيرة و مناقب عمر بن عبد العزيز ، ابن الجوزي ، ص 103 ، 104.

[490]المصدر السابق نفسه، ص105.

[491] سورة الدخان/ 15.

[492] تفسير ابن كثير،ج4،ص139.

[493]سورة الأنعام/ 28.

نردّ ولا نكذّب بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين) [494]،وبقوله تعالى:(وما تشاءون إلا أن يشاء الله ربّ العالمين)[495]: أي ليست المشيئة موكولة إليكم ، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى، قال سفيان الثوري:" لما نزلت هذه الآية :(لمن شاء منكم أن يستقيم) [496]،قال أبو جهل:"الأمر إلينا إن شئنا استقمنا ،وإن لم نشأ لم نستقم"،فأنزل الله تعالى:(وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين)"[497].

وبعد أن أورد هذه النصوص الشريفة لدحض حججهم ،قال:"إن المشيئة في أيّ ذلك، أحببتم من ضلال أو هدى(...)فبمشيئته له شاءوا ، وقد حرصت الرسل على هدي الناس جميعا، فما اهتدى إلاّ من هداه الله ، وحرص إبليس على ضلالتهم ، فما ضلّ منهم إلاّ من كان في علم الله ضالاّ"، ثم بيّن جهلهم في قولهم بأنّهم هم الذين هدوا أنفسهم بغير إرادة من الله ولا تقدير، ومع كل ذلك لم يتّهمهم بالكفر والزندقة ، شأن الكثير من المتعصّبين، في كل زمان، فربّما كفّروا مخالفيهم وفسّقوهم بأمور لا تمتّ إلى مسائل العقيدة بصلة، وإنما هي فروع في أبواب الفقه ، والتي اختلف فيها العلماء منذ زمن بعيد ولا يزالون.

وأنسب وصف نعتهم به هو الغلو والجهل،ذلك أن مقالتهم تفضي إلى ادّعاء الشريك لله في الملك، قال عمر:" لو كان شيء لم يسبق في علم الله و قدره ، لكان في ملكه شريك تنفّذ مشيئته في الخـــلق دون الله ، والله يقــــول:(حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان)[498]".

وقد أثمرت هذه المحاورات خيرا كثيرا، فترك كثير منهم هذا الطريق المسدود وثابوا إلى رشدهم، وسكن القول بالقدر سنوات طويلة ، حتى جاء المعتزلة فاستحيوا فكرهم الشاذّ وانطلقوا منه لتأسيس فرقهم فيما بعد[499].

---

[494] سورة الأنعام/27.

[495] سورة التكوير/29.

[496] سورة التكوير/28.

[497] مختصر تفسير ابن كثير،الصابوني،ج3، ص129/ص 609.

[498] سورة الحجرات/ 07. قال ا بن كثير:"المراد بالفسوق الذنوب الكبار ، والعصيان جميع المعاصي"، مختصر تفسير ابن كثير،الصابوني،ج3،ص361

[499] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز,ابن الجوزي,ص106

الفرع السادس: الموالي و البربر.

كان الموالي يعاملون معاملة سيئة، قبل خلافة عمر بن عبد العزيز، وخاصة في عهد الحجاج بن يوسف,الذي كان يختم على بيادرهم كي يعرفوا فيؤدوا الجزية,شأنهم في ذلك شأن أهل الذمة,وقد بقيت مفروضة عليهم برغم دخولهم دين الإسلام ، ولم يقتصر على ذلك بل فرض عليهم الإقامة الجبرية لتسخيرهم في أعمال الفلاحة والسقي ، كما حرموا من المساواة السياسية والاجتماعية مع سائر العرب، فحرموا من الوظائف الكبرى في الدولة، ومنعوا العطاء الذي كانوا يستحقونه نظيرا لالتحاقهم بالجيش.

وإن هذه التفرقة العنصرية الإسلام منها براء ، ولكن الانحراف الحاصل في حكم بني أمية هو الذي أفرز هذه السلوكات والمعاملة الشاذّة التي أنكرها الخليفة الراشدي عمر بن عبد العزيز، فعمل على نقضها جميعا، وعاد إلى هدي الرسول صلى الله عليه وسلم و صحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين ، في إكرام الموالي ، فأعاد إليهم حقوقهم الأدبية والمادية ، فاستقضى لذلك الشأن الحسن البصري على قضاء البصرة،وكان مولى ومن كبار العلماء والزّهّاد ، وكان عمر يستنصحه كثيرا.

وكان الموالي في المشرق، وتحديدا في خراسان،هم أساس ونواة الدولة العباسية فيما بعد، فقد كان أولئك يضمرون الحقد الدفين للعرب، وذلك بسبب بغضهم لبني أمية،خلا عمر بن عبد العزيز الذي كانوا يجلّونه و يعظّمونه حيّا وميّتا، والدليل أنهم لما انقضوا عام 132ه على الأمويين ، نكّلوا بهم ونبشوا قبورهم وأحرقوا جثثهم ، إلا قبر عمر فإنهم لم يتعرضوا له ، بل أمروا بحراسته وتعظيمه ، وكأنّهم بذلك يردّون الجميل ، ويعلنون اعترافهم بشرعية حكمه.

وأما البربر في المغرب، فقد كان دأبهم الخروج مع الناقمين على حكم الأمويين بسبب ما لقوه هم أيضا من ظلم أولئك الولاة الطاغين ، وعلى الأخصّ يزيد بن أبي مسلم ،الذي سامهم الخسف والذّلّ[500].

لقد وجد عمر في هذا الميدان تركة ثقيلة ، فتعامل معها بصدر رحب وإخلاص منقطع النظير ، فهاهو ذا يرفع الخراج عمّن أسلم من أهل خراسان من الموالي، ويفرض لهم العطاء بالتساوي مع إخوانهم العرب ، وهاهو يدعو البربر إلى الدخول في الإسلام ،عن طريق الوالي

[500] تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة ،ص 115.ج بيدر الجرين:الموضع الذي تجمع فيه الحنطة وتداس،لسان العرب، ابن منظور ، ج4،ص50.

الجديد ، الذي عيّنه خلفا ليزيد ، فسار فيهم سيرة العدل فأحبّوه وتعلّقوا به ، ذلكم هو:إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر[501].

وحين زادت أعطيات الجند المحاربين عشرة عشرة جعل العربي والمولى على السّواء [502].

ولمّا همّ واليه على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي [503] أن يضرب الموالي لتمردهم وعدم انضباطهم بالنظام العام ، أرسل إليه عمر:"لا تضرب مؤمنا ولا معاهدا إلا في الحق، واحذر القصاص، فإنّك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتقرأ كتابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها"، وحين زعم أنّ أهل خراسان لا يصلحهم إلاّ السيف والسوط ردّ عليه بقوله: " كذبت، بل يصلحهم العدل والحق، فابسط ذلك فيهم، والسلام".

ولمّا تمادى هذا الوالي في عصبيته نحو الموالي ، وحرمناهم من العطاء مثل العرب، قرّر عمر عزله [504].

وكان البربر في المغرب قد استرقّت بناتهم بعد الهزيمة مع الأمويين، فأعاد عمر البنات اللاّئي لم يتزوجن إلى أهليهن كتعبير عن مصالحتهم ، وكان هو نفسه يمتلك واحدة منهم،فلما ولي الخلافة سألها عن أصلها ومن أين اجتلبت فقالت:"يا أمير المؤمنين:إن أبي أصاب جناية ببلاد المغرب، فصادره موسى بن نصير، فأخذت في الجناية، وبعث بي إلى الوليد، فوهبني الوليد إلى أخته فاطمة زوجتك فأهدتني إليك" ، فقال عمر: "إنا لله وإنا إليه راجعون، كدنا والله نفتضح ونهلك" ، ثم أمر بردّها مكرمة إلى بلادها وأهلها"[505].

---

[501] هو إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي،أبو عبد الحميد:وال،كان فقيها فاضلا ورعا.وهو أحد العشرة التابعين.مخزومي قرشي بالولاء.أسلم على يديه جمهور كبير من البربر.وتوفي بالقيروان ، عام 132ه ، الأعلام ، الزركلي ، ج1،ص319.

[502] الخلافة الأموية، عبد المنعم الهاشمي ، ص335، في التاريخ الفاطمي والعباسي ، أحمد مختار العبادي ، ص14 وما بعدها.

[503] هو الجرّاح بن عبد الله الحكمي،أبو عقبة:أمير خرا سان،وأحد الأشراف الشجعان، دمشقي الأصل والمولد،ولاه يزيد بن عبد الملك إمارة أرمينية وأذربيجان،ثم عزله هشام عام 108ه،ثم أعاده عام 111ه،فانصرف إلى الغزو والفتح ، فاستشهد –غازيا– بمرج أردبيل ، عام112ه،قتله الخزر،الأعلام،الزركلي،ج2،ص115.

[504] تاريخ الخلفاء ، السيوطي ، ص194 ، رجال الفكر والدعوة ، الندوي ، ج1، ص126، 127،تاريخ اليعقوبي ، ج2 ، ص302، الخلافة الأموية ، عبد المنعم الهاشمي ، ص340.

[505] الإنسان العربي والتاريخ ،أنور الرفاعي ، ص261 ، 262 ، البداية والنهاية ، ابن كثير ، ج9، ص165.

لقد أنسى عمر أهل المغرب بإصلاحاته السياسية والاجتماعية ،التي ذكرت جزءا يسيرا منها ، ما فعله بنو أمية بهم من الظلم والتعصب العرقي ضدهم.

وكان هذا الإنجاز الذي يعدّ امتدادا لحركة الفتح الإسلامي، حدّا فاصلا في تاريخ البربر الطويل، إذ عجزت الحضارات القديمة ، التي وصلت إلى بلاد المغرب منذ أقدم العصور، وهي الإغريقية واللاتينية عن إدخال البربر في نفوذها،(واقتصر تأثيرها على بعض مدن مبعثرة على طول الشريط الساحلي لشمال إفريقية ، ولكن بعد طرد الروم من المغرب العربي واستقرار الفتح الإسلامي فيه ، دان البربر جميعا بالدين الإسلامي)[506].

المطلب الثاني : التعايش السّلمي.

الإسلام دين يحترم أهل الديانات السماوية السابقة، ويشدد النّكير على من آذى أحدا منهم بقول أو عمل، بل ويأمر ببرّهم وصلتهم،ماداموا على عهدهم،لم يغدروا ولم يخونوا.قال تعالى:(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحبّ المقسطين)[507].وحتى من ناصب المسلمين العداء,وأعلن عليهم الحرب,فالإسلام يأمر أتباعه بأن لا يبدؤوهم بقتال ، حتى يعرضوا عليهم الإسلام ، فإذا ما فرض عليهم القتال فهناك عندئذ توجيهات سامية وأخلاق عالية يأمر بها مقاتليه ، منها تحريم ضرب الوجه والمثلة ، وعدم الإجهاز على الجرحى ومنع قتل النساء والشيوخ والأطفال، وكذا من لم يقاتل ، والذين فرّغوا أنفسهم في دور العبادة ، كل هؤلاء مستثنون من القتل ، وهذا يدلّ على مراعاة الإسلام لحقوق الإنسان ، وفي أشدّ الأوقات حرجا.وقد جاءت النصوص الشرعية لتبني جسور التواصل بين المسلمين وغيرهم من شعوب الأرض ، على اختلاف نحلهم ومللهم ، منها قول تعالى:(يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) [508],وقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم السفراء إلى ملوك العالم,بعد أن استقرت مؤسسات الدولة الإسلامية في المدينة المنورة.فأرسى بذلك:(القواعد الأساسية والمبادئ الأصولية

---

[506] قادة فتح المغرب العربي ، محمود شيت خطاب ، ج2، ص.168.

[507]سورة الممتحنة /8.

[508] سورة الحجرات/13.

للتعايش الذي يجب أن يسود كل الفئات والمجموعات التي يتكوّن منها النسيج الاجتماعي للمجتمع الإسلامي، بقطع النظر عن أجناسهم وأعراقهم وألوانهم ومعتقداتهم)[509].

الفرع الأول : أهل الذّمّة

الذمّي هو غير المسلم الذي رضي بالرعوية والتبعية الإسلامية،بموجب عقد مع الدولة الإسلامية،يسمّى عقد الذمة [510]،وبموجبه يتمتع بجملة من الحقوق،منها حرية العبادة والمعتقد،فلا يجوز إكراهه على الإسلام، لقوله تعالى:(لا إكراه في الدين) [511]، ولأهل الذمة إظهار شعائرهم الدينـــــــية ، كإخـــــــراج الصّلبان ودقّ النـــــواقيس في مناسباتهم الدينية ، ولهم حقّ التجنّس بجنسية دار الإسلام ، وبذلك يمكن توليتهم في مناصب الدولة المختلفة،كوزارة التنفيذ وجباية الخراج والجزية، وفي مقابل هذه الحقوق ، يجب على الذمي دفع الجزية ، وهي مبلغ من المال نظير حمايته وأمنه ، وعدم مشاركته في العمليات العسكرية خارج أرض الإسلام[512].

وقد وردت كثير من الأحاديث والآثار الإسلامية التي ترعى هذه الحقوق ، وتوجب على المسلمين صيانتها وأداءها ، ومنها:

1- قوله صلى الله عليه وسلم:<< ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه وكلّفه فوق طاقته أوأخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة >>[513].

3- وقوله : << من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما>>[514].

---

[509] أهل الذمة في الحضارة الإسلامية ، حسن الممّي ، دار الغرب الإسلامي،بيروت،ط1، 1998م، ص10.

[510] الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام ، عبد الكريم زيدان ، مؤسسة الرسالة،بيروت،ط2، 1408هــ-1988م، ص31.

[511] سورة البقرة / 256.

[512] المرجع السابق نفسه، ص 66 وما بعدها، النظام المالي في الإسلام ، جمال لعمارة ، دار النبأ،الجزائر، 1996م، ص23 وما بعدها.وقد قسّم العلماء الوزارة إلى وزارتين : وزارة التفويض ، وهي ما يقابل رئاسة الوزراء اليوم ، وهذه لا يجوز أن يتولاها غير المسلم،وزارة التنفيذ، وهي الوزارة العادية في الحكومة المركزية ،أنظر (مواطنون لا ذميون) لفهمي هويدي، ص165.

[513] رواه البيهقي في سننه الكبرى ، عن عبد الله بن عمر بن العاص ،ج9،ص205،(كتاب الجزية-باب لا يدخلون مسجدا)، نقد المنقول"في الأحاديث الباطلة"،الزرعي،تحقيق حسن السماعي سويدان،دار القادري،بيروت،ط 1، 1411هــ،1990م ،ص 114،وقد ذكر بأنه ضعيف.

[514] رواه البخاري في صحيحه،عن عبد الله بن عمرو،ج6،ص2533،(كتاب الديات-باب إثم من قتل ذميا بغير جرم)،رقم6516.

4- وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل الوافدين عليه من الأقاليم ، من أهل الذمة عن أحوالهم ، خشية أن يكون أحد من المسلمين قد أفضى إليهم بأذى ، فيقولون له: "ما نعلم إلا وفاء"، أي بمقتضى العقد الذمّي بينهم وبين المسلمين ، وهذا يستوجب أن كلاً من الفريقين قد وفّى بما عليه .

5- وكان علي بن أبي طالب يرعى ذلك بقوله : "إنّما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا".

6- ولما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه شيخا من أهل الذمة يمدّ يده بالسؤال ، ساءه ذلك ، ففرض له ولأمثاله عطاء من بيت المال ، ثم قال:"ما أنصفناه ، إذ أخذنا منه الجزية شابّا ثم نخذله عند الهرم".

والحقّ الذي يذكر في هذا المضمار، أنّ بني أمية قد تسامحوا تسامحا منقطع النظير مع أهل الذمة فقد(قرّبوا المسيحيين إليهم ، واستعانوا بهم ، واسندوا إليهم بعض المناصب العالية ، وقد جعل معاوية بن أبي سفيان: سرجون بن منصور الرّومي المسيحي كاتبه وصاحب أمره)[515].

وقد وقّع المسلمون مع النصارى عام 98 ه بالشام عقدا يقتضي أن يلبسوا لباس المسلمين بلا تمييز بين الطائفتين .

ولقد اختار عبد الملك بن مروان رجلا منهم مؤدّبا لأخيه عبد العزيز، فلما أن ولي هذا الأخير استصحبه معه إلى مصر، وكان من خاصة جلسائه ،واغتنى بصحبته أموالا طائلة, ومع كل هذا التسامح الأموي الكبير،إلاّ أنّه وجد من العمال الظّلمة،كالحجاج بالعراق،وأسامة بن زيد التنّوخي بمصر،الذين كانوا يذلّون أهل الذمة ويمعنون في احتقارهم،كما أشرت آنفا.

ولمّا أن ولي عمر بن عبد العزيز، نهى عن إذلالهم.قال مبشّر بن الفرات:"كنت عاملا لعمر بن عبد العزيز، فكنت أختم على بيادر أهل الذمة،فجاءني كتاب عمر بن عبد العزيز أن لا تفعل،فإنه بلغني أنها كانت من صنائع الحجاج،وأنا أكره أن أتأسّى به". وكان يدافع عنهم،ويأمر عمّاله وشرطته أن يدفعوا عنهم الظلم،وبلغ به الأمر أن كتب إلى ولاته كتبا يعلّمهم فيها حقوق أهل الذمة وما ينبغي لهم شرعا، لكي يحسنوا معاملتهم ، ولا يتجاوزوا حدود الشرع في ذلك ، ومنها قوله:

---

515 غير المسلمين في المجتمع الاسلامي ، يوسف القرضاوي ، ص 11 وما بعدها ، أهل الذمة في الحضارة الإسلامية ، حسن الممّي، ص 110.

"فمن أسلم من نصراني أو يهودي أو مجوسي من أهل الجزية اليوم،فخالط عامّة المسلمين في دارهم،وفارق داره التي كان بها،فإنّ له ما للمسلمين وعليه ما عليهم،وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه"[516].

وممّا حفظه أهل الذمة لعمر بن عبد العزيز،أنّه أمر بهدم جزء من المسجد الأموي،كان الوليد قد اغتصبه من النصارى،حين أمر بهدم جزء من كنيستهم ليضمّ إلى المسجد على كره منهم،الأمر الذي دفع بعلماء المسلمين حينذاك أن يناشدوا أحبار النصارى في التنازل عن ذلك الحق الذي عزم الخليفة على إنفاذه، فرضوا بذلك،فعوضهم عمر بموضع آخر يدعى الغوطة، فبنوا عليه كنيسة القدّيس توما[517].

وحين طلب منه أمراء بني أمية الخروج من بلاد الشام،أذن لهم واشترط عليهم أن لا يتعرّضوا لأهل الذمّة بأذى،وإلاّ ستنالهم العقوبة الصارمة .

وكان عمر شديد الحرص على إدخالهم في دين الإسلام،وقد أنفق في ذلك أموالا طائلة يتألّفهم بها،وينفّذ بذلك ما أمر به عزوجل في قوله تعالى:(..والمؤلّفة قلوبهم)[518], ،حين وجّه ولاة الأمر إلى منحهم نصيبا من مال الزكاة.

ومن ذلك أنه أعطى قائدا نصرانيا ألف دينار تألّفه بها على الإسلام.

ونشط في دعوتهم عن طريق ولاته وعماله بجميع الأمصار،حين حثّهم وعزم عليهم في هذا الشأن،(وقد قيل إنّ الجراح بن عبد الله عامله على خراسان أدخل في الإسلام نحوا من أربعة آلاف شخص ،كما قيل أنّ عمر كتب إلى ليو الثالث ملك الروم يدعوه إلى الدخول في الإسلام).

وهنا يظهر أثر الحاكم في التغيير والإصلاح والمصالحة، فماذا يكون عمل الجرّاح لو كان واليا لرجل كالحجاج،إنّه سيمضي في إرضاء سيده،فيسيء بذلك إلى سمعة الإسلام والمسلمين.

لقد دخلت هذه الدعوات المباركة على نفوس أهل الذمة،وخاصة النصارى منهم بردا وسلاما فصاروا يضيفون في كتبهم كلمات التبجيل والتقديس إلى اسم الرسول وإلى أسماء الخلفاء

---

[516] المرجع السابق نفسه،ص 68، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز،ابن الجوزي،ص 129،الخلافة الأموية،عبد المنعم الهاشمي،ص342،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم ، ص98.

[517]خلفاء الرسول ،خالد محمد خالد،ص768، 769، تاريخ الشعوب الإسلامية،كارل بروكلمان، ص150.

[518]سورة التوبة/60.

الراشدين كلما عرضوا لذكرهم،ويستنزلون فيما بعد كلمات الرّحمة والغفران على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز[519].

ومن بين أهمّ الإجراءات التي فرضها عمر في هذا الاتجاه،أن فرض من بيت مال المسلمين لأهل الذمة، الذين عجزوا عن تأمين معيشتهم لكبر أو عجز،وكتب إلى عامله عدي بن أرطأة:"ثمّ انظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنّه وضعفت قوّته وولّت عنه المكاسب،فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه"[520].

وقد كان بنو أمية قد اقتطعوا أموال وأراضي أهل الذمة ظلما وعدوانا،فلما تولّى عمر ردّها عليهم. روى ابن الجوزي قال:"لما فرغ عمر من دفن سليمان،دخل بيته يتبوّأ مقيلا،فاستحثّه ولده عبد الملك على رد المظالم ،فخرج ولم يقل،وأمر مناديه أن ينادي:ألا من كانت له مظلمة فليرفعها،فقام إليه رجل ذمّي من أهل حمص،أبيض الرأس واللحية،فقال:يا أمير المؤمنين أسالك كتاب الله،قال:وما ذاك؟ قال:العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي-والعباس جالس-،فقال له: يا عبّاس ما تقول؟ قال: أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك،وكتب لي بذلك سجلاّ،فقال:ما تقول يا ذمّي؟قال:يا أمير المؤمنين:أسألك كتاب الله عزوجل،فقال عمر:كتاب الله أحقّ أن يتّبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ،أردد عليه يا عباس ضيعته،فردّها عليه"521.

وخفّف عمر عن أهل الذمة الضرائب التي تؤخذ عن تجارتهم،فأخذ عن كل عشرين: دينارا واحدا، وإذا بلغت عشرة دنانير لم يأخذ منها شيئا،وأما الخراج المأخوذ عن أراضيهم فقد أعفاهم منه في حال دخولهم الإسلام .

وأما ماورد بشأن تمييزهم بزي معين،فإن الحاجة دعت إليه،وذلك حين بلغه عن قوم منهم جمعوا سلاحا كثيرا يريدون به طعن الدولة من الظهر.

ومن تمام تواضعه وصلته إياهم أنه كان يجيبهم إلى دعوتهم إياه للطعام،فيأكل معهم ويعطيهم من طعامه الكثير،فعن الأوزاعي قال:"وكان ينزل بأهل الذمة فيقدّمون إليه من الحلبة والبقول وأشباه ذلك،ممّا كانوا يصنعون من طعام،فيعطيهم أكثر من ذلك،ويأكل منه".

---

[519] تاريخ الإسلام،حسن إبراهيم حسن ،ج 1، ص 329،الخلافة الأموية،عبد المنعم الهاشمي،ص 342،الطبقات الكبرى،ابن سعد،ج4،ص31/ ص62 ، مجلة كلية الآداب في البصرة ، ص126.

[520] أحكام أهل الذمة،ا بن قيم الجوزية ، تحقيق وتعليق طه عبد الرؤوف سعد،دار الكتب العلمية،بيروت،ط 1، 1415هـ-1995م،ج1،ص45.

[521] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، ص 147، 148.

وقد كسب عمر من كل ذلك حبّ أهل الذمة وتقديرهم له،فلما مرض مرضه الذي مات فيه،سارع إليه أحد أطبائهم وكبير أساقفتهم يداويه،ولمّا مات بكوا عليه[522].

***عمر بن عبد العزيز وموضوع الجزية:**

إن إصلاحات عمر في هذا الشأن كانت في مصلحة الإسلام أكثر منها في مصلحة بيت المال،فقد وضع الجزية عمّن أسلم من أهل الذمة،وكان من أثر ذلك أن زاد إقبالهم على الإسلام،فتأثّر بيت المال بذلك، فنقصت موارده المهمة من الجزية،فكتب إليه عمّاله يطلبون منه أن يعيد فرض الجزية على من أسلم، لتعويض خسائر خزينة الدولة،ومن أولئك عامله على مصر الذي استأذنه في فرض الجزية من جديد على من أسلم من أهل الذمة، فردّ عليه عمر بقوله:"...فضع الجزية عمّن أسلم قبّح الله رأيك،فإنّ الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا،ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الإسلام عن يده".

وكان ولاته في كل الأقاليم يشكون من ذلك،حتى عمدوا إلى اتّهام أهل الذمة بالنفاق،وبأنّهم ما دخلوا الإسلام إلاّ هروبا من دفع الجزية،ولذلك الغرض أراد عامل خراسان أن يمتحنهم بالختان،فلمّا سمعه عمر نهاه قائلا: " إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم داعيا ولم يبعثه خاتنا"[523].

وهاهو عامله بالعراق أيضا يشكو من هذه الظاهرة،فيكتب كتابا إليه يستأذنه في فرض الجزية،فيردّ عليه بقوله:"فهمت كتابك،والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا،حتى نكون أنا وأنت حرّاثين،نأكل من كسب أيدينا". وهنا يظهر أن وظيفة الدولة في الإسلام هي الدعوة،وأن أولى أولويات الحاكم المسلم هو نشر الإسلام حتى يدخل الناس كلّهم فيه.

ويبدو أنّ الجرّاح عامل خراسان ندم على إسلام أهل الذمة،فضرب بتعليمات الخليفة عرض الحائط،وراح يفرض الجزية على من أسلم،فارتدّ بسبب ذلك كثير من أهل الذمة،فلما بلغ عمر فعله عزله وولى مكانه عبد الرحمان بن نعيم القشيري،وقال: "إنّ الله إنّما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم داعيا،ولم يبعثه جابيا"[524].

---

[522] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، ابن الجوزي ، ص 213/ص 352، خلفا ء الرسول ، خالد محمد خالد ، ص 770،769،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص160

[523] تاريخ الإسلام ، حسن إبراهيم حسن ،ج 1،ص328،رجال الفكر والدعوة،الندوي،ج 1،ص120،الكامل في التاريخ،ابن الأثير،ج5،ص51.

[524] سيرة ومناقب عمر,ابن الجوزي,ص141,البداية والنهاية,ابن كثير,ج9,ص.155

ومكث عمر مدة خلافته يخفف الجزية عن أهل الذمة،حتى وصل بها إلى ما كانت عليه في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة دينار،وذلك حين فرضها على نصارى أيلة–وهو في تبوك،وجرى الخلفاء الراشدون على ذلك الهدي،حتى جاء بنو أمية فزادوا فيها زيادات فاحشة،أرهقت كاهلهم وورّثت في قلوبهم الضغائن،ولذلك حمدوا فعل عمر فأحبّوا الإسلام من خلاله ودخلوا فيه أفواجا[525]

الفرع الثاني : المستأمنون[526]

المستأمن–بكسر الميم–:طلب الأمان و–بفتح الميم–:من صار آمنا،وفي الاصطلاح الحربي[527], وهو غير المسلم التابع لدولة غير إسلامية،إذا دخل إقليم الدولة الإسلامية،بإذن منها،وهذا الإذن يسمّيه الفقهاء: الأمان المؤقت،فالمستأمن إذن يقابل الأجنبي في الاصطلاح القانوني الحديث.والمستأمن في دار الإسلام يتمتّع بكثير من الحقوق العامة،فقد اعتبره الفقهاء بمنزلة ومرتبة أهل الذمة في بلاد المسلمين.

ومن تلك الحقوق جواز دخول دار الإسلام،ولو كان بين دولته ودولة الإسلام حرب،وذلك بطبيعة الحال بعد قرار الحاكم المسلم عند طلب ذلك منه،بل ويجب –حينئذ– دخوله إذا كان الغرض هو سماع كلام الله وتعلّم شرائع الإسلام،لقوله تعالى:(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه)[528],وفي مقابل ذلك تشدد عليهم الحراسة ,لئلا تكون زيارتهم لغرض التجسّس أو نشر الرّذيلة أو الدّعوة إلى دينهم،وفي هذا الإطار حدّد الفقهاء مدّة إقامتهم في أرض الإسلام من سنة إلى عشر سنوات،والحقّ أنّ الأمر متروك إلى مصلحة الدولة الإسلامية،كما أنه يجب على الدولة الإسلامية أن تعمل على حمايته،ولا تسلمه لدولته التي هرب من جورها وظلمها،وذهب الفقهاء إلى حدّ مقاتلتها من أجله،إن هي أرادت ذلك عنوة،ذلك أنّ(الوفاء بمقتضى الأمان واجب على دار الإسلام،وتسليمه غدر به وعدم وفاء،لا رخصة فيه فلا يجوز).

---

[525] الخلافة الأموية،عبد المنعم الهاشمي،ص342،تاريخ الشعوب الإسلامية،كارل بروكلمان،ص150.

[526] أنظر الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام ،عبد الكريم زيدان ، ص 74ومابعدها ،قال ابن منظورعن المستأمن هو:"غير المسلم يعيش في بلاد غير المسلمين، والذين لاصلح بينهم وبين المسلمين"لسان العرب ، ج1، ص 303.

[527] يرى كثير من الفقهاء والمفكرين المسلمين ، في العصر الحالي ، ضرورة ا ستبدال مصطلح دار الحرب بدار الدعوة، وهذا أنسب والله أعلم.

[528] سورة التوبة /06.

ويجوز تنقّله في دار الإسلام،إلاّ إلى الحرم فيمنع عليه وعلى الذمي سواء،ولا يكره على تبديل دينه ولو كان وثنيّا،ويجوز إعانته من بيت مال المسلمين لسدّ حاجته، كما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، حينما بعث لأهل مكّة بمال،حين أصابهم القحط،بالإضافة إلى جملة من الحقوق الأخرى،كحق الملكية وبناء أسرة و حقّ التوارث....[529].

وقد حدث أنّ أهل سمرقند كانوا من المستأمنين الذين قبلوا الصلح عن غير رضى وطواعية،حين غزاهم قتيبة بن مسلم ولم ينذرهم بقتال فقالوا لعاملهم سليمان بن أبى السّرح:"إنّ قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأذن لنا فليفد منّا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا،فإن كان لنا حق أعطيناه،فإنّ بنا إلى ذلك حاجة"،فأذن لهم،فوجّهوا منهم قوما إلى عمر بن عبد العزيز،فلمّا علم ظلامتهم كتب إلى سليمان يقول له:"إن أهل سمرقند قد شكوا ظلما أصابهم،وتحاملا من قتيبة عليهم،حتى أخرجهم من أرضهم،فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي،فلينظر في أمرهم،فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم". فقضى أن يخرج المسلمون من سمرقند،وبالفعل بدؤوا يجمعون أغراضهم ويعتذرون إليهم،وما إن رأى أهل سمرقند عزمهم على الخروج،حتى طلبوا إليهم الإقامة معهم،وقالوا:"قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمنّاهم".وبهذا قضى عمر على ذلك الاحتقان الموجود لديهم،وأفرغ ما في نفوسهم من الضغائن، وبهذه المصالحة الكريمة عاش الفريقان في سلام ووئام[530].

---

[529] الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام,عبد الكريم زيدان,ص.74.

[530] الكامل في التاريخ,ابن الأثير,ج5,ص60,محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية,محمد الخضري,ج2,ص181.

الفرع الثالث : الحربيّون.

وهم من لم يعقدوا الصّلح مع المسلمين،وتركوا الباب مفتوحا على كل الاحتمالات،إما بالحرب أو السّلام، وكان الجوّ مشحونا جدّا بين الدولة الإسلامية وغيرها من دول الكفر حينذاك،وكانت سوق الجهاد والفتوحات نافقة،وحماس الجماهير المسلمة للغزو منقطع النظير،وقد عوّل بنو أمية خلال سني حكمهم على الغزو والإغارة على الكفار،وخاصّة على عهد الوليد بن عبد الملك.

وبمجرد أن ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة أعاد النظر في سياسة المواجهة هذه،وآثر السّلم وحقن دماء المسلمين، ومن ثمّ تفرّغ لمصالح المسلمين وإصلاح شؤونهم الداخلية،واستعاض عن فتح الحصون بفتح القلوب والعقول للإسلام،عن طريق الكتب والرسل التي بعثها إلى شعوب وملوك العالم –حينذاك– بغرض الدخول في دين الإسلام.قال:"وأمّا من كان اليوم محاربا فليدع إلى الإسلام قبل أن يقاتل،فإن أسلم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم".

وقد جمّد عمر بن عبد العزيز جميع الأعمال العسكرية،وفسح الطريق للكلمة والحوار،وبسط يد التعاون من أجل بناء عالم يسوده السّلم و الاستقرار والفضيلة،فكان أوّل عمل قام به،أن بعث إلى قادة جيوشه الموجودة خارج البلاد الإسلامية، فأمرهم بالقفول وترك القتال [531].

–بعث إلى ابن عمه مسلمة بن عبد الملك المرابط بأرض الرّوم يأمره بالعودة،وكان مسلمة قد أقسم– قبل ذلك– أن لا يعود إلاّ بالفتح أو الشهادة،فأصاب المسلمين من ذلك بلاء شديد ومجاعة،(وقد وجّه عمر إلى مسلمة بأرض الروم خيلا عتاقا وطعاما كثيرا،وحثّ النّاس على معونتهم)،وكان عدادها خمسمائة فرس،وأمّرعمرو بن قيس على الجيش الخارج، ليعين المرابطين على العودة إلى بلاد الإسلام،وقد فرح الناس بذلك فرحا شديدا.

–كما أمر في هذا الاتّجاه سكّان طرندة من المسلمين أن يعودوا إلى ملطية خوفا من إغارات الروم عليهم، وأخرب طرندة،واستعمل على المسلمين هناك جعونة بن الحارث[532].

---

[531] في التاريخ الإسلامي، عماد الدين خليل ،ص72/ص77.

[532] البداية والنهاية،ابن كثير،ج9،ص154.

– ولم يغز عمر بالمسلمين إلاّ صائفة واحدة وذلك عام 100 ه،وجعل على رأسها عمر بن الوليد بن هشام المعيطي،وعمر بن قيس الكندي من أهل حمص،ولعلّ ذلك كان لمصلحة تأمين الحدود الإسلامية، وتخويف العدو المتربّص والطّامع دائما في استرجاع ما غنمه المسلمون من الأراضي،وعلى رأسها دمشق عاصمة الخلافة الإسلامية نفسها،وهذا يدخل ضمن التّكتيك والإستراتيجية الحربية،التي يقدّرها أهل الخبرة بطبيعة الحال .

–وأمر عمر الجيوش الإسلامية المرابطة بأرض آسيا الصّغرى بالقفول أيضا وذلك،(رغبة في الانصراف إلى الإصلاح الداخلي،وتحقيق مثل الحياة السياسية التي عمرت وجدانه منذ شبابه الأول في المدينة)،فقد كان رجلا يحبّ السّلم ويكره الدّماء والظّلم.

– وكتب إلى عامله الجديد على خراسان عبد الرحمان بن نعيم الغامدي، (يأمره بإقفال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم إلى مرو،فعرض ذلك عليهم،فأبوا عليه فكتب إلى عمر أنّهم قد رضوا بالمقام،فحمد عمر ربّه على ذلك)،وذلك لأنه كان يشعر أنّه مسؤول عن أمنهم وحياتهم.

– أمّا في بلاد الأندلس،فلم يستطع عمر أن يكبح جماح قادته فيها،وخاصة السّمح بين مالك الخولاني،الذي كان متحمّسا كثيرا لفتح فرنسا،التي أوغل فيها من خلال اختراقه لجبال البرانس وزحفه على مقاطعتي سبتمانيا و بروفانس ثم إغارته على أكيتانيا،محاصرا بذلك مدينة تولوز(طلوشة)،فقابله (دوق أكيتانيا) بجيش كبير، ونشبت بين الفريقين معركة عظيمة قتل فيها السمح وأكثر رجاله[533].

وبالموازاة مع هذه الحملة التي تبنّاها عمر لإقفال المسلمين من الأراضي المحرّرة،وجّه دعوات للملوك والزعماء يدعوهم إلى الإسلام،ويعدهم بأن يقرّهم على ما بأيديهم، وأن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ،وقد سبق أن بلغتهم سيرته العظيمة وعدله في رعيته،فأسلم حليشة بن داهر ملك السند،وتسمّى الملوك بأسماء عربية،كما دخل كثير من أهالي الأندلس وبلاد ما وراء النهر [534] في الإسلام.

[533] قادة فتح المغرب العربي،محمود شيت خطاب،ج 2،ص283 ،تاريخ الإسلام،حسن إبراهيم حسن،ج 1،ص320، التاريخ الإسلامي،محمود شاكر ،ج4،ص250،تاريخ الشعوب الإسلامية،كارل بروكلمان،ص149.

[534] يراد به ماوراء نهر جيحون "أمودارية"، شرق خراسان،فيها مناطق : الصغد ، وفرغانة ، والختل ، والشاش .. وأشهر مدنها: سمرقند ، وبخارى، وطشقند ، وترمذ..، أطلس الحديث النبوي من الكتب الصحاح(أماكن وأقوام) ، شوقي أبوخليل، دار الفكر،دمشق،ط4، 1426هـ–2005م،ص328.

وزعم اليعقوبي أن أهالي التّبت وفدوا على والي خراسان ، الجراح بن عبد الله الحكمي،يسألونه أن يبعث إليهم من يعرض عليهم الإسلام ، ويبين لهم أحكامه، فوجّه إليهم السّليط بن عبد الله الحنفي،كما وجّه عبد الله بن معمر اليشكري إلى بلاد ما وراء النهر،وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد وجّه عمر بن مسلم الباهلي عاملا إلى السّند،فأوصاه بالرفق بأهاليها وتشجيعهم على اعتناق الإسلام،فأقبل في ولايته عدد كبير من أبناء السند على الإسلام،وكان بينهم ابن الملك داهر ويدعى جاي سنك،كما وجّه رسالة أخرى إلى ملك الروم يدعوه فيها إلى الإسلام[535] .

وكان من أثر هذه الصحوة المباركة التي تزعّمها الخليفة الراشد،أن أسلم الطبيب الحكيم ابن أبجر،(وكان طبيبا عالما وماهرا ويتولى التّدريس بالإسكندرية،وقد نقل مركز تدريسه إلى أنطاكيّة وحرّان واستطبّه عمر بن عبد العزيز واعتمد عليه في صناعة الطب)[536].

أما عن معاملته الأسرى،فقد بلغ من التّسامح منتهاه،فقد فدى رجلا من العدو وردّه إلى أهله،ونهى عن نكاح زوجات الأسرى،وكتب إلى أحد عمّاله:"أن لا تقاتلنّ حصنا من حصون الروم، ولا جماعة من جماعاتهم حتى تدعوهم إلى الإسلام"،ونهى عن قتل النساء والصبيان والأسرى والجرحى في الحروب، وورد أنّه لم يقتل إلاّ أسيرا واحدا من جنود التّرك لأنه قد أمعن في قتل المسلمين،وذلك حينما أغار الترك على أذربيجان،فقتلوا خلقا كثيرا من المسلمين،فوجّه إليهم حاتم بن النعمان الباهلي،فقتل أولئك الترك،ولم يفلت منهم إلاّ اليسير،وبعث منهم أسرى إلى الخليفة وهو بخناصرة،وكان عددهم خمسين أسيرا[537].

وبالرغم من كل هذا التسامح الذي لم يشهد التاريخ مثله إلاّ في القليل النادر،فقد كانت حرمات المسلمين عند الخليفة عمر بن عبد العزيز أعظم، ومن ذلك أنه كان يفدي الأسير المسلم الواحد بعشرة من أسارى الروم، وكانت يقظته شديدة ،ذلك أنه لما بلغه أن ملك الروم هدّد أحد الجنود المسلمين بأنّه إن لم يرتدّ عن الإسلام إلى المسيحية فسوف تسمل عيناه،بعث إليه بلهجة حادّة:"أمّا بعد،فقد بلغني ما صنعت بأسيرك فلان،وإني أقسم بالله لئن لم توصله إليّ من فورك لأبعثنّ إليك من الجند ما يكون أوّلهم عندك وآخرهم عندي".

---

[535] دراسات في تاريخ العرب–تاريخ الدولة العربية–،السيد عبد العزيز سالم،ج 2،ص362 ، تاريخ اليعقوبي،ج2، ص302، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز،ابن الجوزي ،ص289.

[536]الإنسان العربي و التاريخ ، أنور الرفاعي ، ص 263، 264.

[537] المرجع السابق نفسه ، ص 261 ،البداية و النهاية، ابن كثير،ج 9 ،ص 152، الطبقات الكبرى ، ابن سعد،ج4،ص31.

وقد وجد على عهده من مستأمني بلاد الروم من يعيش بين ظهراني المسلمين، وكانوا عيونا لأهل بلدهم و جمعوا لذلك سلاحا كثيرا يريدون به الثورة من داخل بلاد الإسلام، فما كان من عمر إلا أن صادر أسلحتهم وأصدر أمرا بأن يتزيّوا بزيّ خاص يعرفون به،وكان ذلك القرار أمرا طارئا ومعزولا اقتضته مصلحة وأمن البلاد و العباد حينذاك[538].

---

[538] خلفاء الرسول ، خالد محمد خالد ، ص 769/ص 779 .

المبحث الثالث : الإصلاح الاجتماعي في خلافة عمر بن عبد العزيز.

شهد المجتمع الإسلامي قبل خلافة عمر بن عبد العزيز عدّة أحداث سياسية واجتماعية، أثّرت سلبا على توجّهه في جميع المجالات : الإداريّة والاقتصاديّة والفكريّة، فظهرت على الواقع سلوكات شاذّة من الحكّام و المحكومين على السّواء، لا تمتّ إلى الإسلام بصلة، وهو منها براء ،فعزم عمر على تغيير ذلك الواقع بالرجوع إلى هدي السلف الصالح،وخاصة جدّه الفاروق.

إنّ الإصلاح الذي تنقلب فيه الأمور رأسا على عقب ليس أمرا سهلا، فأصحاب الامتيازات يتمسّكون بامتيازاتهم،وعادات الناس المكتسبة وتقاليدهم الموروثة لا تبدّل بجرّة قلم، أو بحياة خليفة يخالفها في الرأي، ولكنّ عمرا نجح حيث كان مقدرا له الفشل، وانتزع اسمه من بين حكّام بني أمية، ليضاف إلى قائمة الخلفاء الراشدين و يقارن بهم [539].

ولذلك عدّ ما قام به من قبيل التّجديد الذي بشّر به النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف ، الذي سبق ذكره. ذلك أنّ الأمة تحتاج إلى من يذكّرها بمقوّمات مجدها وعزّها،ويرتقي بها في مدارج التطوّر والسيادة،وهذا ما عبّر عنه أحد معاصري ،عمر بن عبد العزيز وهو ميمون بن مهران حين ذكر:"إنّ الله كان يتعاهد الناس بنبيّ بعد نبيّ،وإنّ الله تعاهد الناس بعمر بن عبد العزيز"،وعدّه الحسن البصري:المهدي المنتظر،فقال:"إن كان مهدي فعمر بن عبد العزيز،وإلاّ فلا مهدي إلاّ عيسى بن مريم" [540].

لقد وجد الأمة الإسلامية في حالة من الجهل والظلم والانحراف ما هزّ كيانه وجعله يعزم على إصلاحها في كلّ المناحي ولكنّه آثر– قبل ذلك– أن يبدأ بنفسه ليكون قدوة لغيره.

المطلب الأوّل : عمر و التّغيير الذّاتي

إن شعوره بالمسؤولية ورهبته من الله وعذاب الآخرة، جعلاه يتبنّى التغيير والإصلاح بدءا من نفسه، ثمّ أهل بيته، ولذلك نجده منذ أيّامه الأولى للخلافة يسارع إلى طلب الخطّة الشّاملة التي سار عليها جدّه عمر بن الخطاب[541],وذلك من أحد أحفاده ,وهو سالم بن عبد الله بن عمر،حين قال له:" اكتب لي سيرة عمر حتى أعمل بها" ، فقال له سالم: "إنّك لا تستطيـــع ذلك" ، قال : "ولـــم؟ " ،

---

[539] الإنسان العربي و التاريخ ، أنور الرفاعي ، ص260.

[540] تاريخ الخلفاء، السيوطي ،ص186، 187، الفتن ،نعيم بن حمّاد ،ج 1 ، ص 372.

[541] هذا في الوقت الذي كان عبد الملك بن مروان يرفض فيه مجرّد ذكره، فكان يقول:"أنهى عن ذكر عمر، فإنّه مرارة للأمراء،مفسدة للرّعيّة"،أنظر قادة فتح المغرب العربي، محمود شيت خطاب، ج2 ،ص 135 .

قال:"إنّك إن عملت بها كنت أفضل من عمر،لأنّه كان يجد على الخير أعوانا، وأنت لا تجد من يعينك على الخير" [542]. وقد رئي وجهه متغيّرا وممتقعا عصر اليوم الذي استخلف فيه،استثقالا لأمر الخلافة،ورهبة من الله عزوجل.

إنّ أمامه تحديات كبرى وعقبات كؤودا، تبدأ أوّلا بنفسه التي ألفت حياة التنعّم، ثم بأهل بيته:زوجته فاطمة التي تقلّبت هي أيضا في نعيم الملك وأولاده الذين ورثوا عن آبائهم عادات الملوك وأخلاقهم التي تأبى حياة التقشّف، ثم بمحيطه الأمويّ، الذي أمسك أصحابه بزمام الأمور، ولن يسمحوا بالتغيير الذي يتّجه إلى غير مطامعهم وغاياتهم الشخصية، وأخيرا بالمجتمع الكبير الذي أورثه الحكّام الظّلمة بؤسا في العيش وهضما في الحقوق فاستسلم لحياة الخضوع واللامبالاة، فظهرت فيه المباذل والسّلوكات الشاذة،البعيدة كلّ البعد عن هدي الإسلام وسلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان رضي الله عنهم أجمعين.

وهاهي ذي فاطمة زوجته تصف حالته النفسية،عشيّة تولّيه الخلافة،فتقول:"دخلت عليه وهو في مصلاّه و دموعه تجري على لحيته،فقلت:أحدث شيئ ؟ فقال: "إنّي تقلّدت أمر أمّة محمّد، فتفكّرت في الفقير الجائع و المريض الضائع والغازي والمظلوم والغريب الأسير والشيخ الكبير وذي العيال الكثير والمال القليل و أشباههم في أقطار الأرض، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة، وأنّ خصمي دونهم محمد صلى الله عليه و سلم إلى الله، فخشيت أن لا تثبت لي حجّتي عند الخصومة، فرحمت نفسي فبكيت"[543].

فكان هذا أوّل تعبير عمليّ على جديّة الإصلاح،الذي عزم على أن يبدأه بنفسه، ثم نظر في كل أمر لا يتّفق مع الإسلام: دقّ أو عظم إلاّ تركه وأبدله بما أمر به الله ورسوله، ومن ذلك:

-رفضه الخلافة: ذلك أنّه لما نودي على اسمه خليفة للمسلمين، صعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه، ثم أعلن لجمهور المسلمين أنه قد تنازل عنها لهم، يضعونها حيث يشاءون، فما كان منهم إلاّ أن صرخوا بصوت واحد:"قل أمرنا باليمن والبركة".

-رفضه لمظاهر الملك وألقاب السلطان ، ومنها رفضه أن يقال له:" يا خليفة الله"،

[542] البداية و النهاية ، ابن الكثير ، ج 9، ص 146 ، الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، ج 4 ،ص 23،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص125، 126.

[543]الكامل في التاريخ ،ابن الأثير ، ج5 ، ص 65 ،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص170، 171 .

وتخصيصه بالدعاء من دون سائر المسلمين في الخطب والمناسبات، وأن يقام له ويبدأ بالسلام ... وكذا رفضه لمراكب الخلافة حينما صفّت له ليختار منها ما يشاء،بل ويأمر بها فتباع جميعها، ويجعل ثمنها في بيت مال المسلمين،و منها أنّه عاد بمجالس الخلافة –التي أشبهت مجالس الأباطرة– إلى بساطتها الأولى، وأباح دخول الناس عليه بغير إذن، واستغنى عن الحجبة والحرس الكثير [544].

– ردّه المظالم التي ورثها واكتسبها من غير وجه حق ،وقد اعترف أمام الملأ بأنّها كانت مكاسب غير مشروعة،وقد حان الوقت لردّها إلى أصحابها وإلى بيت المال،فقال:"...أمّا بعد فإنّ هؤلاء القوم–أي خلفاء بني أميّة–كانوا قد أعطونا عطايا،والله ما كان لهم أن يعطوناها،وما كان لنا أن نقبلها،وإنّ ذلك قد صار إليّ،ليس عليّ فيه دون الله محاسب،ألا وإنّي قد رددتها وبدأت بنفسي وأهل بيتي".وأشهد على ذلك مستشاره الوفيّ مزاحم ،وأمره بتسجيل وتوثيق كل المظالم التي ردّها، وعمد إلى تلك السجلات التي فيها مكاسبه وإقطاعاته، فخرقها وتبرّأ ممّا فيها، ولم يترك إلاّ عينا بالسويداء[545],كان قد استنبطها بعطائه,وأرضا ببدا وجزين من بعلبك،والباقي رده إلى بيت المال[546].

وكان من بين المظالم التي ردها أيضا:

– فص خاتم كان قد أعطاه إياه الوليد بن عبد الملك، و كان من غنائم أرض المغرب.

– الجواري ردّهن إلى أهلهن و بلادهنّ، وكذا العبيد حرّرهم لوجه الله تعالى.

– فضول اللباس والعطور،باعها كلّها بثلاثة وعشرين ألف دينار فجعلها في السبيل.

– أرض حرث لأبناء بلال بن رباح،كانوا قد باعوها إيّاه،فظهرت بها معادن،فقالوا:"إنّما بعناك أرض حرث و لم نبعك المعادن"،وجاءوا بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم لهم في جريدة،فقبّلها عمر ومسح بها عينيه،وقال لقيّمه:"أنظر ماخرج منها وما أنفقت وقاصصهم بالنّفقة وردّ عليهم الفضل"[547].

---

[544] رجال الفكر و الدعوة ، الندوي ، ج1، ص 117 ،سيرة و مناقب عمر، ابن الجوزي ، ص89 ،الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج 4 ،ص21 /ص54 ،خلفاء الرسول، خالد محمد خالد، ص 738 ،الكامل في التاريخ ، ابن الأثير، ج 5،ص 41.

[545] موضع على ليلتين من المدينة على طريق الشام، معجم البلدان،الحموي،ج3،ص286.

[546] التاريخ الإسلامي، محمود شاكر ،ج4، ص244.

[547] سيرة و مناقب عمر، ابن الجوزي، ص 151 و ما بعدها.

-ضيعة لأحد رجال مصر،من حلوان،كان أبوه عبد العزيز قد اغتصبها منه ظلما وعدوانا، فأغلظ لعمر القول، فقال له:"نازعني منازعة كريمة ولا تشتم عرضي،فإنّ لي فيه شركاء:إخوة وأخوات، وهؤلاء لا يرضون أن أردّ لك الضيعة بغير القضاء،والرّأي أن تذهب للقاضي"،وهنا يظهر مدى احترام و تقديس عمر لمنصب القضاء،ذلك أنه تعلّم من سلفه أنّ القضاء يجب أن يعلو على كل منصب،ولو كان مركز الخليفة نفسه.

ولما ذهب الرجل إلى القاضي وعرض قضيته عليه حكم له بالضيعة،فقال عمر للقاضي:"قد أنفقنا عليها ألف درهم"،فقال القاضي:"قد أخذتم منها بقدر ما أنفقتم عليها،فردّوها إلى صاحبها"،فقال عمر:"بارك الله عليك أيّها القاضي"، ثم قام فرد الأرض للمصري [548].

-ما كسبته زوجته من الحليّ والجواهر والثياب النفيس،ومن ذلك ثوبها الذي نسجه لها أبوها من الذهب ونظمه لها بالدّرّ والياقوت،وكانت قيمته مائة ألف دينار،فقال عمر:"إن اخترتني،فإنّي آخذ الثوب،فأجعله في بيت المال،وإن اخترت الثّوب فلست لك بصاحب"،فقالت:"أعوذ بالله يا أمير المؤمنين من فراقك،لا حاجة لي بالثوب"[549].

إن كل هذا الذي عمله كان أمام أعين الناس،الذين حمدوا فعله وشكروه عليه،على خلاف قومه من بني أمية،فقد كرهوه وكرهوا إصلاحاته هاته ، التي فضحتهم وكشفت سوءاتهم .وكان عمر يعلم شهوة السلطان في نفوس الناس،فكره أن يتملّق إليه المتملقون، فنادى في خطبة له :"أيّها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس،وإلاّ فليفارقنا:

1 يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها.
2 ويعيننا على الخير بجهده.
3 ويدلّنا من الخير على ما لا نهتدي إليه.
4 ولا يغتابنّ عندنا أحدا .
5 ولا يعرضنّ فيما لا يعنيه.

فانصرف عنه الشعراء والخطباء،وثبت معه الفقهاء والزّهّاد[550].

---

[548] الخلافة الأموية، عبد المنعم الهاشمي، ص 326 و ما بعدها.

[549] العقد الفريد، ابن عبد ربه، ج 4،ص435، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، محمد الخضري ، ج 2،ص185 ، الإمامة والسياسة ، ابن قتيبة ، ج2، ص.271.

[550] الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي ،إعداد فريق البحوث الإسلامية ، تقديم راغب السرجاني ، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة،القاهرة،ط1، 1426هـ-2006م،ج1،ص199.

وبهذا تشكّل لعمر فريق من العلماء المخلصين والوعّاظ الصادقين،من أمثال رجاء بن حيوة وميمون بن مهران ومحمد بن كعب وغيرهم،فدلّوه على نقاط الضعف في الدولة والمجتمع،وأشاروا عليه بأفكار الإصلاح،فنتج عن ذلك خير عظيم لصالح الإسلام والمسلمين، بل وللناس كافّة من غير المسلمين.

ومن كان بعيدا عن مركز الخلافة،طلب عمر مشورته عن طريق البريد،ومن أشهر العلماء والزهاد الذين انتفع بوعظهم الحسن البصري الذي ما فتئ يعظه عن طريق البريد[551].

وبهذه الإجراءات الحازمة والمستعجلة،استطاع عمر أن يضع رجليه على أرض صلبة،مكّنته من الانطلاق بثقة واطمئنان في عمليّة التغيير الواسعة والإصلاح الشامل.

وكان عمر فقيها بسنن الله في التغيير،فلم يشأ أن يحمل الناس على الحقّ جملة واحدة،فيتركوه جميعا، وذلك لما يعلمه من طبائع النفوس التي يصعب عليها- وربّما يستحيل- ترك ما تعوّدت عليه وألفته من الأفكار والسلوكات.

ولذلك رفض طلب ولده عبد الملك ،الذي ألحّ عليه أن يستعجل في محاسبة الناس وحملهم على سنن الحق،مهما كلّف ذلك من ثمن،ولو كان في ذلك الهلاك ، قال عبد الملك:"يا أبت مالك لا تنفذ الأمور،فو الله ما أبالي لو أنّ القدور غلت بي وبك في الحق"،فقال له عمر:"لا تعجل يا بني، فإن الله ذمّ الخمر في القرآن مرتين وحرّمها في الثالثة،وأنا أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعونه جملة ،فيكون من ذلك فتنة"، وكان يخشى أيضا من الفتنة فربّما إن فعل ذلك،عمد الحمقى وعبّاد الدنيا إلى إيقاد نار الحروب والقلاقل،لئلاّ تسلب منهم امتيازاتهم،وليرضى الناس بعد ذلك بالعافية والأمن، وينصرفوا عن المطالبة بحقوقهم المغتصبة،قال عمر لابنه:"يا بنيّ إن بادهت [552]الناس بما تقول،أحوجوني إلى السيف،ولا خير في خير لا يحيا إلاّ بالسيف"،فكرّر ذلك[553].

بل ويذهب بعيدا في فقهه ذاك ،حيث يرى أن استمالة الناس بالهبات والعطايا سبيل إلى قبول الحق،كما فعل ذلك مع الخوارج ،الذين روّضهم بالحوار حينا وبالمنح المالية وإعطاء المناصب

---

[551] راجع تلك المراسلات في كتاب سيرة ومناقب عمر ابن الجوزي ، ص165 وما بعدها.

[552]استقبال الناس بأمر مفاجئ،أنظر لسان العرب،ابن منظور،ج13،ص475.

[553] العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، ج4 ، ص 438 ، الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ج5 ، ص 66 ، عمر بن عبد العزيز الرا شد المجدد ، يوسف القرضاوي ، ص 20.

أحيانا أخرى، وكفّ بذلك الأمّة الشرور و الفتن،فقال يوما:"ما طاوعني الناس على ما أردت من الحق، حتى بسطت لهم من الدنيا شيئا"[554].

المطلب الثاني : الإصلاح الإداري و التشريعي.

إنّ تصور عمر بن عبد العزيز للإصلاح الإداري كان مبنيّا على خلفية عقائدية،ولذلك فإنّه ما إن استلم مقاليد الأمور حتى قام بسلسلة من الإجراءات،لجعل الإدارة منسجمة مع أداء دورها العقائدي والأخلاقي، ولذلك وجدناه يقوم بتصفية معظم الكوادر الإدارية القديمة،ويستبدلها بعناصر جديدة،تمتاز بالكفاءة و العلم والخلق الحسن،ولها قبول عند جمهور المسلمين ، بغضّ النظر عن ولاءاتها الحزبية وانتماءاتها العرقية،كما أنّه يقوم بفتح أبوابه للمظلومين وذوي الحاجات،حتى يردّ مظالمهم ويقضي مآربهم،كل ذلك بالموازاة مع إصداره لجملة من المراسيم التشريعية،التي تلزم الولاة وتحثّهم على تنفيذ السياسة العمرية الجديدة... وكان من نتائج ذلك أن ساد الأمن جميع ربوع الدولة الإسلامية،وعادت روح المحبة والوئام بين أبناء المجتمع الإسلامي،وعادت للإسلام هيبته وسلطانه في قلوب الناس وواقعهم ، فعمّ الخير والوفاء[555].

الفرع الأول : التطهير الإداري.

كانت أكبر مشاكل المجتمع الإسلامي مع أولئك الولاة والحكام الظلمة،الذين ساموه الخسف والصّغار، وأوردوه موارد الهلكة،فهام على وجهه كالقطيع الذي فقد راعيه. ولقد انتبه عمر إلى هذه المعضلة، فراح يرجع للناس ثقتهم في أنفسهم وفي ولاتهم،من خلال إجراءات العزل التي طالت الظلمة منهم، والتعيينات التي مسّت أهل القوّة والأمانة،ومن ذلك أنّه:

– استعمل على إفريقية والمغرب إسماعيل بن عبد الله المخزومي ,وكان رجلا حسن السيرة ,وأسلم في ولايته خلق كثير من بلاد البربر,وعزل عنها يزيد بن أبي مسلم وكان جبّارا,من ولاة الحجاج، وقد أبغضه العرب والبربر على السواء,ولمّا أراد أن يشارك المسلمين جهادهم في الصّائفة ضدّ الروم,ردّه عمر بن عبد العزيز من دابق وقال:"ليس بمثله يستعين المسلمون في قتال عدّوهم"،فرجع إلى طرابلس, وكان عطاؤه من بيت مال المسلمين ألفين ,فردّه عمر إلى ثلاثين .

---

[554] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، ابن الجوزي ، ص 108.

[555] في التاريخ الإسلامي ، عماد خليل ، ص 92، 93.

– واستعمل رجلا آخر,وكان يجهل أنّه من رجال الحجّاج,فلمّا بلغه ذلك عزله,فجاءه يعتذر إليه بقوله:"لم أعمل له إلاّ قليلا", فقال عمر:"حسبك من صحبة شّر يوم أو بعض يوم".

– وكان عبد الله بن الأهتم من قرابات عمر بن عبد العزيز,وكان الجرّاح –والي خراسا ن خلفا ليزيد بن المهلب الّذي عزله عمر عنها– قد استعمل ابن الأهتم على بعض الأقاليم,ليرضي بذلك أمير المؤمنين,فأمر بعزله لعدم كفاءته[556].

– وعزل عن إمرة مصر عبد الملك بن أبي وداعة وولّى عليها أيّوب بن شرحبيل .

– وولّى على الجزيرة عمر بن هبيرة .

– وأبقى على المدينة المنوّرة والي سليمان عليها من قبل,وهو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ،وكان رجلا خيّرا فاضلا,وعلى مكّة المكرمة ولّى عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد.

– وعزل عن الأندلس الحرّ بن عبد الرحمان الثقّفي,وكان قد تولاّها عام 97ه,وولّى عليها السمح بن مالك الخولاني.

– وعلى البصرة عيّن عدي بن أرطأة الفزاريّ,وعلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمان بن زيد بن الخطّاب[557].

– ومن إجراءاته المهمّة في هذا المضمار نفيه لآل الحجّاج إلى اليمن,لبغض الرّعية من أهل العراق لهم.

– وكان أسامة بن زيد التنّوخي –عامل سليمان على خراج وصدقات مصر– جبّارا عنيدا,وقد أوصاه سليمان بالغلظة على أهل مصر,فقال:"أحلب الدرّ حتى ينقطع والدّم حتى ينصرم",وكان يقطع الأيدي بدون أمر و لاعلم من الخليفة,ويشقّ أجواف الدّواب ويطرحها للتماسيح،فلما ولي عمر أمر بحبسه وتقييده في أحد محابس فلسطين،ولمّا تولّى يزيد ردّه على مصر.

---

[556] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز , ابن الجوزي , ص 126/ص129 ,البداية والنهاية , ابن كثير ج9 , ص152.

[557] الكامل في التاريخ ,ابن الأثير ,ج 5, ص 43 , 44 ,التاريخ الإسلامي ,محمود شاكر ,ج 4,ص247,البداية والنهاية , ابن كثير,ج9,ص 154.

- كما عزل رئيس حرس الخلفاء قبله,وهو خالد بن الريّان وكان ظلوما غشوما,وولّى بدله عمرو بن مهاجر الأنصاري,وكان رجلا صاحب صلاح وتلاوة قرآن[558].

-ولمّا بلغه عن عامل له كثرة شكاوى الناس ضدّه، أبرق إليه:"قد كثر شاكوك وقلّ شاكروك،فإمّا عدلت وإمّا اعتزلت والسّلام).

ولإنجاح هذه الإجراءات عمل عمر على رفع رواتب عمّاله إلى ثلاثمائة دينار،فلما سئل عن ذلك أجاب:"أردت أن أغنيهم عن الخيانة"[559].

وكان يستحثّ عمّاله على إنجاز مشاريع الإصلاح والتنمية،حتى ما عاد يكفيهم عمل النهار،فسهروا الليل، ومن أجل ذلك زهد الناس في طلب الولاية،اللّهم إلاّ نفرا من مرضى القلوب الذين لا يهمّهم في سبيل الشّهرة وكسب المال مدح ولا ذم.

جاء رجل من هؤلاء إلى عمر- وكان من أهل العراق- يقال له :هلال بن أبي بردة، يهنّئه بالخلافة ويتملّق بذلك إليه،عسى أن يظفر بشيء من حطام الدنيا،فقال:"من كانت الخلافة يا أمير المؤمنين شرّفته،فقد شرّفتها،ومن كانت زانته فقد زنتها،وأنت والله كما قال مالك بن أسماء:

وتزيدين طيّب الطـــــيب طيبا　　　إن تمسّيـــــه أين مثلك أينا؟

وإذا الدرّ زان حســـــــن وجوه　　　كان للدرّ حسن وجهك زينا[560]

فما كان من عمر إلاّ أن أبقاه عنده أيّاما،يريد بذلك امتحان صدقه،فأظهر صلاة وعبادة ونسكا،ولمّا رابه أمره، دسّ من يقول له:"إن عملت لك في ولاية العراق،ما تعطيني؟"،فضمن له مالا جليلا، فأخبر عمر بذلك فنفاه وأخرجه، ثم نادى: " يا أهل العراق إنّ صاحبكم أعطى مقولا ولم يعط معقولا،وزادت بلاغته ونقصت زهادته".

ومن حنكته وحسن سياسته الإدارية أنّه لم يكن ليولّ أحدا حتى يسأل عنه أهل الخبرة والدراية بالوظائف، وبمن يصلح لها من الرجال ،من ذلك أنّه استشار أحد الخبراء،ويدعى أبا مجلز في رجلين هما: عبد الرحمان بن عبد الله القشيري ،وعبد الرحمان بن نعيم، فقال أبو مجلز عن الأوّل:"يكافىء الأكفاء ويعادي الأعداء،وهو أمير يفعل ما يشاء ،ويقدم إن وجد من يساعده"،وقال

---

[558]التاريخ الإسلامي ، محمود شاكر ، ج4، ص245 ، الخلافة الأموية ، الهاشمي ، ص311وما بعدها.

[559] مروج الذهب:المسعودي ،ج3،ص230،التاريخ الإسلامي ،محمود شاكر،ج4،ص244.

[560]معجم الأدباء ،ياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس،دار الجيل،بيروت،ط 2، 1993م ،ج4،ص2018،خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب،عبد القادر البغدادي ، ج9 ، ص4420.

عن الثاني:"يحبّ العافية والتأنّي وهو أحبّ إليّ". فولّى عمر الأوّل الخراج لما يقتضيه من المضاء والعزيمة ،وكانت شخصيته تصلح لذلك،وولّى الآخر الصّلاة والحرب حبّا في العافية وتجنّبا لإراقة الدماء ،وكانت نفسيته تتلائم مع عمله ذلك[561].

أراد عمر بن عبد العزيز بهذه الإجراءات أن ينسي الناس عهد الظلم والقسوة الذي مرّعليهم،ويفتح أمامهم باب الأمل والعمل، فوجّه بهذه المناسبة دعوة إلى عمّاله يأمرهم فيها بالإصلاح والإحسان والعدل،بقدر ما كان يعمل من سبقهم بالظلم والفجور والعدوان.

ولكي يعفي نفسه من المسؤولية أمام الرعية خطب فيهم بقوله:"إنّي قد ولّيت عليكم رجالا،لا أقول إنّهم خياركم، ولكنّي أقول إنّهم خير ممّن هم شرّ منهم(...)وأيّ عامل من عمّالي رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم،وقد صيّرت أمره إليكم،حتى يراجع الحقّ وهو ذميم"،وحينما ضغط عليه بنو عمومته وعاتبوه من أجل أن يولّيهم،غضب غضبا شديدا، وهمّ أن يذهب إلى المدينة المنوّرة وأن يجعل أمر الخلافة شورى بين أهل المدينة .وكان أشهر من أساء سمعة بني أمية الحجاج بن يوسف،الذي أبغضه عمر بن عبد العزيز بغضا شديدا لظلمه حتى قال فيه: "لو أن الأمم تخابثت يوم القيامة ،فأخرجت كل أمة خبيثها,ثم أخرجنا الحجاج لغلبناهم"[562]، وهذا يدلّ على نزاهة عمر وتفضيله الحق على مداهنة الكبراء من أجل البقاء في الحكم.

الفرع الثاني : العدل في الحكم

العدل –كما قيل بحق– أساس الملك ولحمته وسداه،ولذلك نجد أنّ كل الشرائع السماوية والقوانين الوضعية توصي به وتحثّ عليه،وميزة العدل في الإسلام أنّه عدل مطلق عام وشامل،والمتتبّع للتاريخ الإنساني عموما والإسلامي على وجه الخصوص، يجد أنّ كل دولة لم تقم على مبدأ العدل، لا يكون لها ذكر حسن مهما قدّمت من إنجازات،كما أنّها لا تعمّر طويلا إذا شاع فيها الظلم563.والنصوص الشرعية في هذا المجال كثيرة ومستفيضة منها:

---

[561] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز،ابن الجوزي ،ص 134،الطبقات الكبرى ،ابن سعد،ج4،ص28،الكامل في التاريخ،ابن الأثير، ج5،ص52.

[562] طبقات ابن سعد ، ج 4 ، ص 26 ، خلفاء الرسول ، خالد محمد خالد ، ص 741/ ص 744 ، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، ابن الجوزي ، ص 130.

[563] نظام الحكم في الإسلام ،محمد يوسف موسى ، دار العصر الحديث للنشر والتوزيع،بيروت،ط3، 1408هـ–1988م،ص192، صفحات مشرقة ،الصلابي، ج1 ، ص460 .

1- قوله تعالى:(وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصّاكم به لعلّكم تذكّرون).[564]

2- وقوله عزوجل :(وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)[565].

3- وقوله :(يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين)[566],والآية الكريمة تأمر بالعدل ولو كان في غير صالحنا وصالح أقرب وأحب الناس إلينا وهم الوالدان.

4- و يأمرنا الله بالعدل ولو مع أعدائنا ومخالفينا في الدين والمعتقد،فيقول:(ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتّقوا الله إن الله خبير بما تعملون).[567]

5- وقال صلى الله عليه وسلم :<< ما من أمير عشيرة إلاّ يؤتى به يوم القيامة مغلولا، حتى يفكّ عنه العدل أو ينفقه الجور>>[568].

6- وقال صلى الله عليه وسلم :<< الله مع القاضي ما لم يجر، فإذا جار برئ الله منه وألزمه الشيطان >> [569].

كان عمر بن عبد العزيز حريصا على تطبيق العدل،فكان يطلب من أهل الحكمة والرأي أن يصفوا له العدل،وكان من أولئك العالم الجليل محمد بن كعب القرظي الذي قال له:"سألت عن أمر حسن،كن لصغير المسلمين أبا،ولكبيرهم ابنا،وللمثل منهم أخا،وعاقب الناس بقدر ذنوبهم،على قدر أجسامهم،ولا تضربنّ لغضبك سوطا واحدا تتعدى، فتكون عند الله من العادين)[570].

طبّق عمر هذه الوصيّة على نفسه ثم على عمّاله،فكان شديدا عليهم إذا بدر منهم ظلم للرّعية.

---

[564] سورة الأنعام / 152.

[565] سورة النساء /58.

[566] سورة النساء /135.

[567] سورة المائدة /08.

[568] رواه البيهقي في سننه الكبرى،عن أبي هريرة،ج3،ص129،(باب كراهية الإمامة جملة)،رقم5128.

[569] المصدر السابق نفسه،عن عبد الله بن أبي أوفى،ج10،ص134،(باب إنصاف القاضي في الحكم).

[570] الخلافة الأموية ، عبد المنعم الهاشمي ، ص 328 .

– كتب إليه الجرّاح:"إنّي قدمت خراسان فوجدت قوما قد أبطرتهم الفتنة،فأحبّ الأمور إليهم أن يعودوا ليمنعوا حق الله عليهم،فليس يكفّهم إلاّ السّيف والسّوط ،فكرهت الإقدام على ذلك إلاّ بإذنك"،فكتب إليه عمر:" يا ابن أمّ الجرّاح أنت أحرص على الفتنة منهم،لا تضربنّ مؤمنا ولا معاهدا سوطا إلا في الحقّ، واحذر القصاص،فإنّك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصّدور،وتقرأ كتابا (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها)[571]".

وكان الانتصار للحقّ والفضيلة همّ عمر بن عبد العزيز، فلم يقتص أبدا ممّن شتمه أو انتقصه، شأن الخلفاء قبله،حدث أن اقتحم رجل مسجد المدينة المنورة،شاهرا سيفه، يسبّ أمير المؤمنين،فأمسك به الوالي،ثم بعث إلى عمر يستأذنه في قتله–وقد كان همّ بقتله– فردّ عليه عمر قائلا:"والله لو أنّك قتلته لقتلتك به(...) فإنه لا يقتل أحد بشتم أحد،إلاّ رجل شتم نبيّا"،وحين سبّ أحدهم معاوية بن أبي سفيان،ضربه عمر ثلاثة أسواط،و لم يزد على ذلك،وقد ذكر إبراهيم بن ميسرة أنّه ما رأى عمرا ضرب أحدا غير هذا في خلافته كلها[572],وهذا من إنصافه وحسن فهمه لطبيعة النفوس،فإنّها إن ألفت الضرب هانت، وما عاد للترغيب والترهيب دورهما في التربية. وقد مرّ معنا أنّه ساوى بين العرب والموالي في العطاء،مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم:<<الناس كأسنان المشط>>[573].

لقد كانت خلافة عمر كلّها رحمة وعدل ومراعاة لحقوق الناس،فلم يشك أحد في ظلامة إلاّ ردّها عليه،ولو كان المظلوم غير مسلم وخصمه أمير من الأمراء،كمسلمة بن عبد الملك،الذي خاصمه أهل دير من النصارى،على ناعورة [574],وكان مسلمة متكئا,فقال له عمر:"لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يديّ،ولكن وكّل بخصومتك من شئت،وإلاّ فجاثي القوم بين يدي"،فوكّل مولى له بخصومته،وبعد سماع الطرفين ،قضى عمر بالنّاعورة لأهل الدير[575].

---

[571] سورة الكهف/49.

[572] العقد الفريد، ابن عبد ربه، ج4، ص 436، خلفاء الرسول، خالد محمد خالد، ص 747، طبقات ابن سعد، ج4، ص60، تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص190.

[573] رواه القضاعي في مسند الشهاب،عن أنس بن مالك، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط 2، 1407هـ–1986م،ج1،ص145،رقم195.

[574] الدولاب،لسان العرب،ابن منظور،ج5،ص222.

[575] سيرة و مناقب عمر بن عبد العزيز، ابن الجوزي، ص 111.

وكانت امرأة من أهل مصر تدعى(فرتونة السّوداء)،قد شكت إلى عمر اللصوص الذين كانوا يسرقون دجاجها،فطلبت منه أن يعلي جدار بيتها،فما كان منه إلاّ أن بعث إلى واليه بمصر:أيوب بن شرحبيل يأمره أن يبحث عنها ويحقّق طلبها.ثم كتب كتابا بخطّ يده إليها، ونصّه:"من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء،سلام الله عليك،أمّا بعد فقد بلغني كتابك وما ذكرت فيه من قصر حائطك، حيث يقتحم عليك ويسرق دجاجك،وقد كتبت إلى أيّوب بن شرحبيل آمره أن يبني لك الحائط،حتى يحصنه ممّا تخافين إن شاء الله"،وهذه الحادثة تنمّ عن تقوى كبيرة وحساب للنّفس شديد،وإلاّ فما شأن امرأة سوداء ودجاج وحائط[576].

وبلغ من شفقته أن راعى حقوق البهائم،فأمر عمّاله بأن لا يحمّلوها مالا تطيق،فأمر ألاّ يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل.ومنع تسخير الناس في المصالح العامّة،وأمر لكلّ عامل بأجرة،نظير عمله .

إنّ هذه السياسة العادلة،التي سلكها عمر مع رعيته،أثمرت أطيب الثمار وأينعها،فساد بسبب ذلك الأمن و السلم في ربوع البلاد الإسلامية كلها،بعد أن كان الرّعب والنّهب سيدا الموقف.حدّث يحي الغساني–والي الموصل–قال:"لمّا ولاّني عمر بن عبد العزيز الموصل قدمتها،فوجدتها من أكثر البلاد سرقة ونقبا،فكتبت إليه أعلمه حال البلد وأسأله:آخذ النّاس بالظنّة وأضربهم على التّهمة،أو آخذهم بالبيّنة وما جرت عليه السّنّة، فكتب إليّ أن آخذ الناس بالبيّنة وما جرت عليه السنة،فإن لم يصلحهم الحقّ فلا أصلحهم الله"،قال يحيى: "ففعلت ذلك،فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلّها سرقة ونقبا". وفي عهده انتصب الخوارج حماة للأمن، بعد أن كانوا مصدرا للخوف والإرهاب[577], بل لقد أمنت بعدله الشاة من خطر الذئب ،حتى غدا يرعى معها في خصيب واحد،ولم ينقضّ عليها إلاّ بعد وفاة عمر،ولقد استدلّ الناس على ذلك بوفاته،قال ابن قتيبة:"و ذكروا أنّ رجلا من أهل المدينة قال:وفد قوم من أهل المدينة إلى الشام، فنزلوا برجل في أوائل الشام موسّع عليه،تروح عليه إبل كثيرة،وأبقار وأغنام،فنظروا إلى شيء لا يعلمونه،غير ما يعرفون من غضارة العيش،إذ أقبل بعض رعاته فقال:"إن السّبع عدا اليوم على غنمي، فذهب منها الشاة، فقال الرجل:" إنا لله و إنا إليه راجعون"[578]، ثم جعل يأسف أسفا شديدا، فقلنا بعضنا لبعض:"ما عند هذا

[576] خلفاء الرسول ، خالد محمد خالد، ص 733/ ص 774،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص74، 75.

[577] سيرة و مناقب عمر بن عبد العزيز، ابن الجوزي، ص107. خلفاء الرسول، خالد محمد خالد، ص 774/ص780.

[578] سورة البقرة/156.

خير، يتأسف و يتوجع من شاة أكلها السبع فكلّمه بعض القوم، قال له:" إن الله تعالى قد وسع عليك،فما هذا التوجّع والتّأسّف؟ قال:إنّه ليس مما ترون،ولكن أخشى أن يكون عمر بن عبد العزيز قد توفّي الليلة،والله ما تعدّى السّبع على الشّاة إلاّ لموته،فأثبتوا ذلك اليوم،فإذا عمر قد توفّي في ذلك اليوم".

وإلى جانب الأمن تحرّر الناس من قيود الصمت،الذي لازمهم طيلة حكم الأمراء الظلمة من بني أمية،الذين صادروا حرّيتهم في التعبير،وكتموا أنفاسهم وأخرسوا ألسنتهم عن النّطق بكلمة الحقّ.قال القاسم بن محمد – بمجرد أن تولّى عمر–:"اليوم ينطق كلّ من كان لا ينطق"[579].

الفرع الثالث : ردّ المظالم

استغل ولاة وأمراء بين أمية مراكزهم في السّلطة ليبتزّوا أموال وعقّارات الناس،حتى استغنوا من ذلك و أثروا ثراء فاحشا،وظلّ الأمر على ما هو عليه، حتّى ولي عمر الخلافة،فكان أهمّ وأوّل شيء بدأ به هو ردّ المظالم والحقوق،فبدأ بنفسه وأهل بيته، ثم عرّج على أمراء وأتباع الأمويين فنزع ما بأيديهم ممّا ليس لهم بحقّ.

يروي ابن الجوزي أنّ عمر بن عبد العزيز سهر في شأن سليمان بعد وفاته،ولمّا أن جاءت القائلة من اليوم الموالي، ذهب يتبوّأ مقيلا، فلمّا أسند ظهره للفراش،قام ولده عبد الملك على رأسه يحثّه على ردّ المظالم،و يحذّره من فجأة الموت،فما كان من عمر إلاّ أن قام وضمّ ولده إلى صدره وقبّله بين عينيه ،ثم قال – وهو يبكي–:"الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني على ديني"،فخرج ولم يقل،ثمّ أمر مناديه أن ينادي:"ألا من كانت له مظلمة فليرفعها،فتدافع الناس إليه،كلّ يطلب حقّه،فجعل عمر لا يدع شيئا كان في يد سليمان في أهل بيته من المظالم إلاّ ردّها مظلمة مظلمة[580].ثم توجه إلى الرعية فجعل يقتص للمظلوم من الظالم،وظل هذا دأبه حتى آخر يوم من حياته وبسبب ذلك فرغت كثير من الخزائن التي كانت مملوءة بأموال المظلوم ،ومنها بيت مال العراق. ولم يكن عمر – في هذا المضمار – يحقّق كثيرا ولا يؤكّد في طلب البينة،لما كان يعلمه من جور الحكّام قبله ،وكان إذا لم يجد صاحب الحقّ حيّا أعطى حقّه لورثته.

---

[579] الإمامة والسياسة،ابن قتيبة، ج2، ص 277، في التاريخ الإسلامي، شوقي أبو خليل، ص 318، طبقات ابن سعد، ج4، ص 26، تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص 190.

[580] سيرة و مناقب عمر، ابن الجوزي، ص 86،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص69.

جاء رجل يطلب أجرته التي منعها إيّاه بنو أمية،فعدّ عمر حقّه منذ اليوم الأوّل الذي حرم فيه أجره إلى يومه فأعطاه إيّاه،وهو يعتــذر إليه ،ثمّ فرض له عطاء جديدا أوفر مما سبق [581].وكان بعض العمّال يستغلّون مبدأ طاعة أولي الأمر ،فيبتزّون أموال الناس وإقطاعاتهم،ومن ذلك أنّ رجلا جاء إلى عمر يطلب أرضا له،كان أحد الولاة قد اغتصبها منه،فاستدعى الوالي فقال حين حضر:"إنّه كتب إليّ الوليد بن عبد الملك،وطاعتكم فريضة"،فقال عمر:"كذبت،لا طاعة لنا عليكم إلاّ في طاعة الله"،وأمر بالأرض فردّت إلى صاحبها[582].

وجاءه بعض الأعراب يطلبون أرضا لهم، كان الوليد قد انتهبها فردّها عليهم،ثم قال:"البلاد بلاد الله،والعباد عباد الله،من أحيا أرضا ميّتة فهي له". ولمّا شكا إليه رجل كان له زرع قد مرّ عليه جيش المسلمين فأفسده،عوّضه عنه بعشرة آلاف درهم[583].

ومع هذا الحزم الشّديد إلاّ أنّه وجدت تجاوزات من بعض العمال،الذين ربّما ألفوا الظلم،ولم يعد يحجزهم عنه سوى تقوى الله ومراقبة الضمير ،فقد جاء رجل من أذربيجان يشكو عاملها إلى عمر ويزعم أنّه أخذ منه اثني عشر ألف درهم،فكتب إليه أن يردّها عليه في الحين[584].

ولم يكن هذا العدل الواسع والتسامح الكبير ليوقع خليفة المسلمين في شباك من يصطادون في الماء العكر، ويتحيّنون الفرص لنيل مالا يحلّ لهم،فقد وجد أنّ رجلا طالبه بعنبرة[585]عظيمة, قد تنازل عن جلّ ثمنها لسليمان بن عبد الملك –نفاقا وتزلّفا–،فلمّا عرضها عمر أمام الناس،هرول هذا الرجل مسرعا،وهو يقول: "عنبرتي ياأمير المؤمنين"،قال:وما شأنها؟"،قال:"بعتها من سليمان بن عبد الملك بسبعة آلاف درهم،وهي خير من ثمانية عشر ألف درهم"،قال: "ويحك،أخافوك؟"،

---

[581]طبقات ابن سعد، ج4، ص 24 و ما بعدها،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص129.

[582]العقد الفريد ، ابن عبد ربه، ج 4، ص 434، قال عبد المنعم الهاشمي:" وردّ إقطاعات البيت المالك، فكانت تقدّر بنصفه أو ثلثيه"،الخلافة الأموية،الهاشمي ، ص 325، ومعنى ذلك أنهم تركوا خزينة الدولة شبه فارغة، ومع ذلك لم يمرّ سوى وقت قصير حتى امتلأت بفضل الله و ببركة الصدق والعدل.

[583] سيرة وماقب عمر بن عبد العزيز ، ابن الجوزي ،ص117/ص147.

[584] البداية والنهاية،ابن كثير،ج9،ص 178.

[585] وعاء المسك،لسان العرب،ابن منظور،ج12،ص544.

قال:"لا"،قال:"أكرهوك؟"،قال:"لا"،قال:"أغصبوك؟"، قال:"لا"،قال:"فماذا ؟"، قال:"عنبرتي يا أمير المؤمنين"،قال:"تأخّر فلاحقّ لك"[586].

الفرع الرابع : الخدمات الاجتماعية.

مضى عمر وعلى خط مواز مع سياسة التطهير الإداري وإشاعة العدل ،في تأمين العيش الكريم لرعيته،فلم تمرّ إلا أشهر قلائل من حكمه المبارك،حتى استطاع أن يقضي على الفقر وكل مظاهر البؤس.

-كان ناس في المدينة المنورة يسألون،ويبيعون الخبط للمسافرين،فلما ولي عمر قاموا واستغنوا عن ذلك.

-وكان أهل البصرة يعيشون الأمرّين من جرّاء تلك الفتن والأحداث التي مرّت عليهم طيلة سني الحكم الأموي،فقد كان هذا المصر بؤرة للنزاعات والقلاقل،فتأثّر كثير من سكّانه في أجسادهم ومعاشهم،فخفّف عمر آلامهم،فأعطى لكل إنسان ثلاثة دراهم،وأعطى الزّمنى خمسين، ورزق المفطومين.

-وكان من فقهه السياسي والاجتماعي وجوب وضرورة أن يكون لكل مواطن مسكن يأويه، وخادم يكفيه مهنته، ومركب يقضي عليه حاجته، وأثاث يملأ بيته،كلّ ذلك ولا دين عليه،وعطاؤه من بيت المال ثابت ومكفول [587].

وكان مناديه في كل يوم ينادي: أين الغارمون؟ أين النّاكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟ حتى أغنى كلاً من هؤلاء، وشاع الأمن والخير وسعد الناس .وصدقت نبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم حين بشّر بهذا الزّمن السّعيد ، في قوله: << ليتمّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت،ما يخاف إلاّ الله والذئب على غنمه>>[588].

أراد عمر بن عبد العزيز أن يصدر قرارا يفصل فيه بين المنحة العائلية للصّغار القصّر،والتي كانت تسمّى منحة العيال،والمنحة التي يستفيد منها البالغون الكبار،التي كانت تسمّى منحة الذّرّيّة،فسأل عن ذلك نافع مولى عبد الله بن عمر،وكان من العلماء الكبار،فأخبره عنه، فقال: "عرضني رسول الله صلى الله عليه وسلم في القتال يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة، فلم يجزني،

---

[586] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، ابن الجوزي ، ص.119

[587] في التاريخ الإسلامي،عماد خليل،ص97، 98، الخلافة الأمويّة،عبد المنعم الهاشمي،ص 232 ومابعدها.

[588] رواه البخاري في صحيحه،عن خباب،ج 3،ص1398،(كتاب فضائل الصحابة-باب ما لقي النبي وأصحابه من المشركين بمكة)،رقم3639.

فلمّا كان يوم الخندق عرضني وأنا ابن خمسة عشر،فأجازني"،فقال نافع لعمر:"إنّ هذا الحدّ بين الكبير والصغير".

–وأعطى المفقودين عطاء خاصّا،وجعل له حسابا جاريا في بيت المال،حتى يظهر أصحابه،فإن علم بوفاتهم أخذه وكلاؤهم.

–وتأسّى في هذا الميدان النبيل بأبيه عبد العزيز،الذي اشتهر بخدماته الاجتماعية الواسعة،فعمل عمر الخانات[589] بطريق خراسان،وأعطى ابن السبيل،ووفّر له مقاما مريحا في كل بلد من بلاد الإسلام الفسيحة، وكفل اليتامى،ورصد مالا خاصّا لمن أراد الحجّ فأعطاه منه.

–وعندما طلب إليه حجبة البيت الحرام أن يزوّدهم بمال لكسوة الكعبة،كما كان يفعل الخلفاء قبله،قال:"إنّي رأيت أن أجعل ذلك في أكباد جائعة،فإنّه أولى بذلك من البيت"،هذا في أمر مشروع،فما بالك بالسّفهاء من الحكّام الذين يصرفون أموال الأمّة فيما يضرّ معنويا وماديا،وربّما مات الناس من الجوع أو البرد.

–وراعى عمر حقّ العميان،فعيّن من يقضي حوائجهم ويوصلهم إلى غاياتهم،فجعل لكلّ أعمى قائدا بأجر يقوده[590] .

بهذه الإجراءات الحازمة والعاجلة سادت الثقة والطمأنينة أرجاء المجتمع الاسلامى من أقصاه إلى أقصاه،فتعاون الجميع في مشاريع الإعمار والتنمية ،وانساق الحكّام والمحكومون في جبهة واحدة،غايتها رضى الله عز وجل والفوز بالجنة.ولم تسجل في عهده أية احتجاجات أو خروج على النظام العام.قد جفّف عمر بحنكته وإخلاصه جميع منابع التوتّر والفتن.

الفرع الخامس : إصلاح الإعلام

كانت وسائل الإعلام في ذلك الزّمان تتمثّل فيما يبثّ من خطب ودروس في المساجد والمجامع،أو ما يعلم به عن طريق الرسائل والبريد.ولكنّ أهمّ وسيلة إعلامية كان الحكّام يعتمدونها في نقل أفكارهم وشهواتهم ومآثرهم للجمهور من الشعب هي الشّعر،ولذلك تدافع الشّعراء على

[589]ج خان:الحانوت(فارسي معرب)،وقيل:الذي للتجار،لسان العرب،ابن منظور،ج13،ص146.

[590]طبقات ابن سعد،ج 4،ص30،الكامل في التاريخ،ابن الأثير،ج 5،ص61،خلفاء الرسول ،خالد محمد خالد،ص 765،سيرة ومناقب عمر،ابن الجوزي،ص114، الخلافة الأموية،عبد المنعم الهاشمي،ص343.

أبواب الملوك والأمراء يمتدحون ويتزلفون،وكثيرا ما كانوا ينافقون ويكذبون، همّهم الوحيد في ذلك هو ما يعطون من أموال وهدايا،وإذا ما خرجوا إلى الناس

ذكروا لهم شرف الحكّام وحرصهم على خدمة الرعية وعطفهم عليهم،وصدق فيهم قول الله عز وجل:(والشّعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنّهم في كلّ واد يهيمون)[591].

وكان عمر بن عبد العزيز يعرف طبائع الشعراء ويجيد الشّعر و يحفظ الكثير من القصائد،وكان الشعراء على عهده إمّا مادحين بغير حقّ وإمّا هاجين بغير حقّ أيضا،وهم في كلتا الحالتين يحرمون الرّأي العام معرفة الحقيقة ورؤية الصّدق،وذلك بما ينشرونه من أضاليل وأكاذيب يشوّهون بها الحقائق ويسترون بها العيوب،(والآن يأتيهم رجل عظيم لا حاجة له إليهم،فليست له عداوات يحتاج للشّعر في تأجيجها،وليس له طموح يحتاج للشعر في قرع الطّبول له،وليس له شهوات يحتاج للشعر في تزيينها،ولا يحتاجه لتبريرها،وليس له بالسّلطة ولع،فيحتاج للشّعر في حمايتها واستبقائها،ثم إنّه لا وقت لديه،ولا وقت لدى أمّته لهذا الأمر العريض الذي ملأ به الشعراء ساحة العصر الأموي كلّه.وهكذا جمع عزمه وطرد الشعراء عن بابه(...)وراح يشرف بنفسه على إمداد الرأي العام بكل الصدق،وبكل الحقيقة،عن طريق منشوراته التى كان يرسلها للولاة،ويبعث بها إلى شتّى الأقطار)[592].وصدق فيه المثل الشعبي:"اللي ما في كرشو التبن ما يخاف من النار".

صادف أن اجتمع الشعراء على بابه،واستأذنوا عدي بن أرطأة في الدخول عليه،فقال عمر لعدي:"من بالباب منهم؟"،قال:"عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة"،قال عمر:"أليس يقول:

ثمّ نبّهتها فهـــــبّت كعابا   طلقة ما تبين رجع الكـــلام

ساعة،ثمّ إنّها بعــــــد قالت   ويلتا!قد عجلت يا ابن الكرام

أعلى غير موعد جئت تسري   تتخـــطّى إلى رؤوس النيام؟"

ثمّ قال:"فلو كان عدوّ الله فجر إذ فجر كتم على نفسه،لا يدخل والله عليّ أبدا" [3]،وهنا يشير عمر إلى توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم في تحريم المجاهرة ووجوب السّتر،وذلك في قوله: << القائل الفاحشة والذي يسمع في الإثم سواء >>[593].ثم طلب عمر من عدي أن يذكر له غيره،فـــقال:"همـــام غـــالب"،يعـــني الفـــرزدق ، قال عمر: " أولـــيس يقـــول:

---

[591]سورة الشعراء/224، 225.

[592] خلفاء الرسول،خالد محمد خالد،ص749. سيرة ومناقب عمر ،ابن الجوزي،ص220، 221.

[593]رواه الهيثمي في مجمع الزوائد،عن علي،ج8،ص91،(كتاب الأدب–باب ما جاء في الغيبة والنميمة).

هما دلّتاني من ثمانين قامـــــــــة كما انقضّ باز أقتم الرّيش كاسره

فلمّا استوت رجلاي في الأرض قالتا أحيّ يرجى،أم قتيـل نحــــاذره"

ثم قال:"لا يطأ والله بساطي،فمن سواه بالباب؟"،قال:"الأخطل"،قال:"ياعدي،أليس الذي يقول:

ولست بصائم رمضان طوعـــا ولســـت بآكل لحم الأضاحي

ولست بزائر بيتا بعيـــــــــدا بمكـــّة أبتغي فيه صلاحي

ولست بقائم كالعبد أدعــــــو قبيل الصبح،حيّ على الفلاح

ولكنّي سأشربها شمــــــــــولا وأسجد عند منبلج الصبـــاح"

وهذا كلام يفوح بالكفر والخروج عن ثوابت الدين والأمة،ولذلك رفض عمر أن يدخل عليه ، واكتفى بهذا الموقف للتحذير من زيغه وضلاله ، وكان من حقّه أن يؤدّبه بحبس أو ضرب ، ولكن سماحته وذكاءه أبتا عليه ذلك ، وصدق في موقفه ذلك فكثير من النّاعقين واللاّدينيّين الذين يملؤون الدنيا صخبا،بما ينشرونه من أكاذيب وشبهات،يكون الصّمت والتّجاهل تجاههم في كثير من الأحيان هو الحلّ الأنجع.

ثمّ قال عمر لعدي:"فهل بالباب سوى من ذكرت؟"،فقال:"نعم، الأحوص"،قال:"أليس هو يقول:

الله بيني وبين سيّدها يفرّ منّي بها وأتبعه"

ثمّ قال:"فمن ههنا أيضا؟"،قال:"جميل بن معمّر"،قال:"يا عدي،أليس هو الذي يقول:

أيا ليتنا نحيا جميـــعا،وإن مـــتّ يوافق في الموتى ضريحي ضريحها

فما أنا في طول الحياة براغـــب إذا قيل قد سوّي عليها صفيحــــــها

فلو كان عدوّ الله تمنّى لقاءها في الدنيا ليعمل بعد ذلك صالحا،والله لا يدخل عليّ أبدا"[594]،ثم قال:"فهل سوى من ذكرت أحد؟"،قال:"نعم،جرير بن عطية"،قال:"أما أنّه الذي يقول:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعي بسلام

فقال عمر:"فإن كان لابد فهو"،وذلك لأنه رجل قد تعفّف عن الحرام،فأذن له عمر بالدخول،فدخل وهو يقول:"

إنّ الذي بعث النّبيّ محمــدا جعل الخلافة للإمام العـــادل

وسع الخلافة عدله ووقـــاره حتّى ارعوى،وأقام ميل المائل

إني لأرجو منك خيرا عاجلا والنفس مولعة بحبّ العاجــل"

---

[594] سيرة ومناقب عمر،ابن الجوزي ، ص221 .

وكان عطاؤه قبل خلافة عمر بن عبد العزيز يربو عن أربعة آلاف دينار،عدا ما يتبعها من الهدايا والكسوة، فما كان من عمر إلاّ أن رفض طلبه،وقال لاحقّ لك في بيت المال،فذكر له بأنه ابن سبيل،فأعطاه أربعة دنانير من خالص ماله،فأخذها وقال:"والله لهي أحبّ ما اكتسبته إليّ من مال".وصدق فإنّ للحلال راحة في النفس وسعادة في العيش.ولمّا خرج من عنده سأله الشعراء عنه،فقال:"جئتكم من عند خليفة يعطي الفقراء ويمنع الشعراء،وإنّني عنه لراض"،ثمّ أنشد يقول:"

رأيت رقى الشّيطان لا تستفزّه وقد كان شيطاني من الجنّ راقيا"[595]

وحين لاحظ جرير بأنّ بطانة عمر بن عبد العزيز من القرّاء والفقهاء والزّهّاد،يئس من وصله وأنشد:"

يا أيّها القارىء المقضي حاجته هذا زمانك إنّي قد خلا زمني[596]

وبهذا الهدي العمري الصّادق،ظهرت للناس الحقائق،وتميّز الحقّ من الباطل،وعلم القاصي والدّاني فداحة ما كانوا يعيشونه من أوهام وأباطيل،كان الشعراء أظهر من وقفوا وراءها.

الفرع السادس : إصلاح التّشريع

لم يكن عمر ليولّ قاضيا إلاّ إذا توفّرت فيه هذه الشّروط الخمسة: العفّة والحلم والعلم والاستشارة وعدم المبالاة بملامة الناس،وكان من أشهر قضاة عمر على البصرة :الحسن البصري وإياس بن معاوية :الذكي المشهور، وعلى الكوفة استقضى عامر الشعبيّ،وكان من أكبر الفقهاء.

ومن بين أهم المراسيم التي أصدرها عمر في خلافته:

* مرسوم يقضي بعدم قطع أيدي أهل السرقة والقصاص من القتلة،إلاّ بعد عرضه عليه شخصيّا،وقد كان الولاة قبله يقتلون ويقطعون،بلا حسيب ولا رقيب،قال:"ولا يعاقب امرؤ بالقتل أو قطع اليد دون سؤالي والرجوع إليّ".

*مرسوم يقضي بإصلاح السجون ،وذاك بجعلها مدرسة لتثقيف العقول وتربية النفوس على الفضائل، ليخرج منها الجناة وقد استقامت سلوكاتهم.وفي هذا المجال فرّق بين سجن النساء

[595] المصدر السابق نفسه،ص 222، 223، تاريخ الخلفاء ،السيوطي، ص 195،الإمامة والسياسة،ابن قتيبة،ج2، ص272، 273.

[596] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز،ابن الجوزي ،ص 113.

والرجال،وأجرى الجراية على جميع المسجونين،ومنع التّعذيب والتّقييد،ونهى أن يبيت المساجين في قيودهم،إلاّ أن يكونوا مطلوبين بدم[597].

* مرسوم يقضي بمنع اللّهو والغناء والنّياحة.

* مرسوم يقضي بمنع دخول الحمامات إلا بمئزر.

* مرسوم يقضي بعدم ملاحقة المعارضين السياسيين والفكريين،وعدم التضييق عليهم،فقال:"وإنّ الرّجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم،ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق".

*مرسوم يقضي بعدم تتبّع عورات الفسقة وأهل الفجور،فقال:" من وارت البيوت فاتركه"،لقوم بلغه أنّهم يشربون الخمر.

* مرسوم يخفّف من عقوبات التأديب والتّعزير،فقد نهى أن يزاد على ثلاثين سوطا في العقوبات، سوى الحدود.

* مرسوم يقضي باسترجاع الأراضي المغتصبة والتي لا سجلّ لها إلى بيت مال المسلمين.

* مرسوم يمنع اتّخاذ الحجّاب أمام الولاة ، لئلاّ يحرموا الناس من قضاء حوائجهم.

وبالجملة فقد عمد عمر إلى كلّ ما خالف الكتاب والسنة والمصالح العامّة،فنقضه واستبدله بما يريح الأمّة ويخفّف من أعبائها . وبذلك قضى على مظاهر البيروقراطية والمحسوبية والرشوة،فأحبّه الناس وتعلّقوا به، وقال هو نفسه في ذلك: "قرّة عين الملوك في استفاضة الأمن ، وظهور مودّة الرّعيّة لهم ، وحسن ثنائهم عليهم"[598].

---

[597] تاريخ اليعقوبي ، ج 2 ، ص 305 ، الخلافة والملك المودودي ، ص 126، الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ،ج 5 ، ص61،الخلافة الأموية، عبد المنعم الهاشمي ، ص 343 ، سيرة ومناقب عمر ، ابن الجوزي ، ص 109 ، قال أنور الرفاعي:"وهذا يشبه قوانين أكثر الدول العصرية ، بحيث لا ينفّذ حكم الإعدام إلاّ بعد محاكمة،وبعد تصديق رئيس البلاد عليها"، الإنسان العربي والتاريخ ، ص261.

[598] طبقات ابن سعد ،ج 4،ص 36 وما بعدها ،سيرة ومناقب عمر ،ابن الجوزي،ص 125،تاريخ الخلفاء ، السيوطي ، ص 185، مروج الذهب، المسعودي،ص 228،خلفاء الرسول،خالد محمد خالد،ص780.

المطلب الثالث : الإصلاح المالي و الاقتصادي.

يعتبر الإسلام المال عصب الحياة وقوامها،وضرورة من أهم الضرورات،التي يبنى عليها اقتصاد الأمة.

ولقد جاءت النصوص الشرعية لتحفظ المال من كل ما يفسده،إن على مستوى الكسب أو على مستوى الإنفاق والصّرف.

-قال تعالى :(ولا تؤتوا السّفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيما)[599]،وفي معـــنى هذه الآية الكريمة يقول ابن كـــــــثير:" ينهى سبحانه وتعـــالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعـــلها الله للناس قيـــاما،أي تقوم بها معايشهم من التّجارات ومن ههنا يؤخذ الحجر على الســـفهاء"[600].وفي إعطاء الأموال لمن لا يحسن التّصرّف يعدّ شرعا وعقلا من قبيل التبذير والإفساد.

وقال عز وجل:(فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله)[601],وفي النص الكريم دعوة إلى كسب المال من أهمّ وأفضل الوجوه المشروعة، وهو العمل وبذل الجهد ،وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: << ما أكل أحد طعاما قط ،خيرا من أن يأكل من عمل يده>>[602].

إذن فالإسلام يشجّع على تعمير الأرض بكل أنواع النشاط :التجاري منه والصناعي والزراعي ، وكذا الفكري الذي يعدّه الإسلام أعظم وأقدس أنواع الإنفاق،ومن أحسن ممّن يجهد فكره وعقله في هداية الناس إلى الحق وكشف الغوامض لهم.

وقد فقه الصحابة الكرام وتابعوهم عن ربهم ونبيّهم هذه الإرشادات العظيمة،فمشوا في مناكب الأرض يتّجرون ويزرعون ويعمّرون، فلم تمض سوى أعوام قليلة حتى بنوا أعظم دولة،دانت لها ممالك الأرض جميعا .

ولكنّ الذي يؤسف له في هذا أنّ جل حكام بني أمية قد انحرفوا عن هدي السّلف الصّالح،فجعلوها

---

[599] سورة النساء/ 5.

[600] مختصر تفسير ابن كثير،الصابوني،ج1،ص358.

[601] سورة الجمعة/10.

[602] رواه البخاري في صحيحه،عن المقدام،ج 2 ،ص 730،(كتاب البيوع-باب كسب الرجل وعمله بيده)،رقم1966.

هرقلية كسروية،واتّخذوا الأبّهة والتّرف والسّرف المالي مظاهر للملك،وتوارث القوم هذه العادات الخبيثة،وكان منهم عمر بن عبد العزيز نفسه ،الذي رأيناه – قبل خلافته – يسرف في الإنفاق،حتى خشي أن يعجز ماله عن كسوته ومعيشته.

الفرع الأول : بيت المال بين الإيراد والصّرف

المال مال الله،والإنسان مستخلف فيه،قال تعالى:(وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين)[603],(والنظام المالي في الإسلام ينظم إيرادات الدولة في حدود نفقاتها العامة،لمسايرة الحاجات المادية للمجتمع الإسلامي ، تحقيقا للعدالة الاجتماعية في شتى صورها ومختلف مجالاتها،باعتبارها هدفا أسمى للنظام)[604]. وقد نظر عمر بن عبد العزيز إلى المال على أنه أمانة يجب أداؤها إلى مستحقّيها،فكان مع رعيّته كوليّ الطفل العزيز المحضون،يعتبر ماله وديعة لا ينفق منه إلا عن ثقة ويقين.واتّخذ في سبيل تحقيق ذلك إجراءات حاسمة وحازمة.

فنجد أنّ أوّل ما بدأ به أن باع ما زاد على نفقات الدولة ثم ردها على بيت المال ومن ذلك:الأثواب والسّتور التي كانت تبسط للخلفاء قبله،وكذا مراكب الخلافة،واكتفى ببغلته الشهباء،وقال لمزاحم:"هذه البراذين والخيل وهذه السّرادقات والحجر وهذه الفرش والرّياش،ضمّها إلى بيت مال المسلمين"[605],واكتفى بالقليل الضروري.

ولمّا أن رأى أن المال الذي أنفق على بناء المسجد الأموي لم يكن في موضعه المشروع،وأنّ خزينة المسلمين قد تأثّرت من وراء ذلك،همّ أن يتدارك هذه الخسائر،فينزع الفسيفساء ويكتفي بالحبال عن السّلاسل الذهبية، التي علقت فيها المصابيح،ولكن الذي أثناه عن عزمه ذاك،ما قاله أحد زوّار المسجد الأموي من النصارى الرّوم،حين رأى إلى عظمة هندسته:"إنّا معشر أهل رومة نقول أنّ بقاء العرب قليل،فلمّا رأيت ما بنوا علمت أنّ لهم مدّة لا بدّ أن يبلغوها". ولمّا اتّصل هذا بمسامع عمر،قال:"إنّي أرى مسجدكم هذا غيظ على الكفار وترك ما عزم عليه"[606].

---

603 سورة الحديد/7.

604 النظام المالي في الإسلام ، جمال لعمارة ،ص9.

605 صفة الصفوة ، ابن الجوزي ، ص 67 ، الخلافة الأموية ، عبد المنعم الهاشمي ،ص 322، 323، رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، الندوي ، ج1 ، ص119.

606 تاريخ الإسلام ، حسن إبراهيم حسن ، ج1، ص527 .

إنّ فقه الموازنة لديه جعله يرجّح ذلك الرأي،الذي كان سديدا إلى أبعد الحدود،فربّما طمع الأعداء في بلاد المسلمين فانتهبوها،وحين ذلك لا يكون هناك داع للحديث عن المال والاقتصاد.

ومن أجل تخفيف نفقات بيت المال،عمد عمر إلى إعفاء كثير من الحرس والشرطة،وكانوا ستمائة رجل، كلّهم كانوا في خدمة القصر الملكي،وقال لهم:"إنّ لي عنكم بالقدر حاجزا،وبالأجل حارسا،من أقام منكم فله عشرة دنانير،ومن شاء فليلحق بأهله".

وقضى على المهرجانات التي تكلّف الخزينة أموالا ضخمة،ومن ذلك مهرجان سباق الخيل،الذي كان بنو أميّة يقيمونه في عاصمة الخلافة دمشق،وكان أصحابها يقدمون بها من أقطار بعيدة،ولم يسمح إلاّ بواحدة منها،حين تكلّف أصحابها في جلبها أوّل مرّة [607].

واتّبع سياسة التقشّف فيما يخصّ النفقات الحكومية ،في الإدارة وغيرها،مثل الإنارة الخاصّة بالولاة والكتابة على الأوراق،المتعلّقة بالرسائل والتعليمات الإدارية وغيرها،ولذلك رفض تزويد والي المدينة المنورة بالقراطيس والشّمع الكثير حين طلب إليه ذلك،وقال له:"أدقّ قلمك،وقارب بين سطورك،واجمع حوائجك، فإنّي أكره أن أخرج من أموال المسلمين ما لا ينتفعون به والسلام". أمّا فيما يخصّ الشمع،فقد كتب إليه:

" ...وجاء في كتابك تذكر أنّ من كان قبلك من أمراء المدينة كان يجرى عليهم رزق من شمعه،ولعمري يا ابن أمّ حزم،لطالما مشيت إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظّلمة،لا يمشى بين يديك بالشمع، ولا يوجف خلفك أبناء الأنصار،فارض لنفسك اليوم ماكنت ترضى به قبل اليوم" [608].

واتّبع عمر سياسة رشيدة في الإنفاق،فبدأ بأصحاب الحاجات وأهل الضرورة،فلما أن انتعش بيت المال،زاد أرزاق النّاس وأعطياتهم،ولم يبخل عليهم بما فتح الله به من النّعمة والخير الكثير،ولعلّ هذا ممّا استفاده من عمّه عبد الملك ومن الصّحابي الجليل عبد الله بن الزبير،ذلك أنّ الأوّل كان سخيّا بالمال،فلم يضنّ به على الرعية،فطال ملكه وحمده الناس،وأمّا الثاني فلبخله بالمال زال ملكه سريعا ،وانفضّ عنه الناس، بل وتمالئوا عليه مع بني أمية فخلعوه ثم قتلوه.

---

[607] تاريخ الخلفاء ، السيوطي ، ص 190 ، سيرة ومناقب عمر ، ابن الجوزي ، ص 87 ، 88.

[608] الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص72، 73، سيرة ومناقب عمر،ابن الجوزي،ص121وما بعدها.

ولم يكن يهمّ عمر في سبيل ذلك أن يفرغ بيت المال ، مادام أنّه يصرف في وجوهه المشروعة، فقد(كتب إليه بعض عمّاله:إنّك أضررت ببيت المال،فقال عمر:اعط ما فيه فإذا لم يبق فيه شيء فاملأه زبلا)،وكتب إلى عمّاله في هذا الشأن أن:"فادوا بأسارى المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع مالهم"،وهذا يدلّ على لطفه وعطفه برعيته.
ورصد لمن يساهم في إصلاح المجتمع الإسلامي بقول أو عمل ، مابين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار: مكافئة له[609].

الفرع الثاني: عمر وسياسة الضرائب

كان الولاة قبله يزيدون في مقدار الضرائب المفروضة على الناس ظلما وعدوانا،كلّما شعروا بنقص بيت المال،ولا يهمّهم في ذلك إن أعسر الناس وعجزوا عن السّداد،ومن لم يسدّد ما عليه عوقب أشدّ العقاب، الأمر الذي أدّى إلى التململ الاجتماعي ، وكثرة حركات الخروج على النظام أدرك عمر هذا الواقع المأسوي فعمل على إصلاحه وإرجاعه إلى عهد جده عمر بن الخطاب،الذي حدّده بأربعة عشرة قيراطا [610],وشدد على أخذها برفق وتسكين لأهل الأراضي ،وكتب إلى أحد عمّاله:"ولا تأخذنّ أجور الضرّابين ولا هديّة النّوروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفتوح ولا أجور البيوت ولا دراهم النّكاح ،ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض"ا بعث عامله عروة بن محمد إلى اليمن،نقل إليه شكاوى سكّانها من الضرائب التي أثقلت كاهلهم،فأمره أن لا يأخذها إلاّ ممّن قدر عليها،وطابت نفسه بها،ووضع عنهم المكوس،التي وصفها بقوله:"وأمّا المكس فإنّه البخس الذي نهى الله عنه،فقال:(ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين)[611]،غير أنّهم كنّوه باسم آخر"[612].

---

[609] رجال الفكر والدعوة ، الندوي ، ج 1 ، ص 123 ، سيرة ومناقب عمر ، ابن الجوزي ، ص 125/ص 142،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص140.

[610] تاريخ الإسلام ، حسن إبراهيم حسن ، ج1 ، ص 475.

[611] الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، ج 5 ، ص 61 ، وقد كانت تلك أسماء لما يؤخذ في ذلك الزمان، كضرائب وهدايا مفروضة للأمراء والخلفاء ، ولكن عمر رفض أخذها.

[612]سورة هود /85.

[613] رجال الفكر والدعوة ، الندوي ، ج1،ص 121 ، طبقات ابن سعد ، ج4 ، ص27.

الفرع الثالث : الإنعاش الاقتصادي.

إنّ هذه السياسة العادلة جعلت الناس يتعلّقون بالخليفة،ويثقون به وبعمّاله،فأقبلوا على دفع زكواتهم،التي كانوا يرفضون دفعها للحكّام قبله،فاغتنى بيت المال كثيرا من ذلك، وطفقوا يؤازرون خليفتهم في مشاريع الانماء والإعمار،فلم يمرّ وقت طويل، حتى انتعش اقتصاد الأمّة، وفاضت الخيرات على بيت المال.قال أحد الولاة وهو عمر بن أسيد:"إنّما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا،لا والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم،فيقول:اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله،قد أغنى عمر بن عبد العزيز النّاس".ومن هذا يتبيّن دور الزكاة في خلق التّوازن بين أفراد المجتمع،وفي تحريك عجلة التنمية،حيث يصبح الفقراء والمساكين عناصر فاعلة في المجتمع،وبمرور الزمن تستغني تلك الشريحة عن مال الزكاة،وذلك بدخولها معترك التنمية والإنتاج[614].

وفتح عمر طريق التجارة الحرّة برّا وبحرا،وجعل المكاييل والموازين واحدة في الدولة الإسلامية [615],وقام بعدة إجراءات أخرى لتسيير عملية التنمية والإنعاش ،واهتم بالفلاحة ،فشق الأراضي وحفر الآبار وردّ الاقطاعات إلى أصحابها،وترك العمل فيها حرّا للجميع،فعمّت بذلك البركة،ونزل الغيث من السماء غزيرا،وتحقق قول الله تعالى:(ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السّماء والأرض)[616].

وبهذا الذي تحقّق من رفاه وأمن ،تكون خلافة عمر بن عبد العزيز(حجّة تاريخية على من لا يزال يردّد ترديد الببغاء للكلمات والأصوات:إنّ الدولة التي تقوم على الأحكام الإسلامية والشريعة عرضة للمشاكل و الأزمات,وعرضة للانهيار في كلّ ساعة,وأنّها ليست إلا حلما من الأحلام , ولا يزال هذا التاريخ يتحدّى هؤلاء ويقول:(هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) [617].إن هذه الفوائد المادية والرفاهية العامّة من بركات الحكومة الإسلامية الصحيحة,ونتائجها الطبيعية، وهي فائدة لا يستهان بها)[618].

---

[614] الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص128، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، ابن الجوزي ، ص 114 ،115،مبادئ الاقتصاد وعوامل التنمية في الإسلام ، رشيد حيمران ،دار،هومة،الجزائر،2003م،ص 66،النظام المالي ، جمال لعمارة،ص 38.

[615] رجال الفكر و الدعوة , الندوي ,ج1 , ص121, 122،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص.101

[616] الخلافة الأموية , عبد المنعم الهاشمي ,ص 333.

[617] سورة الأعراف/ 96 .

[618] سورة البقرة/ 111, سورة النمل/ 64 .

المطلب الرابع : الإصلاح الثقافي والتربوي.

لم يقتصر تجديد عمر بن عبد العزيز على إصلاح نظام الحكم ,وتحويل الملك إلى خلافة راشدة,ولم يكتف بكفاية حاجات الناس المادية والأمنية,بل تعدّاه إلى نواح كان لها الأثر البعيد في حياة الناس واهتماماتهم،وساعده على ذلك كونه رجل علم ودعوة،يعرف علل النفوس وخلل الأفكار،فعمل على تنوير العقول وتزكية القلوب،حتى استقام أمر الأمة على الحق.

الفرع الأول : الإصلاح الثقافي.

اتخذ عمر عدة إجراءات في هذا الاتجاه،وكان من أظهرها:

1- تدوين السنّة :

السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي،وضياعها يعني ضياع الإسلام نفسه،ولذلك التفت عمر إلى إحيائها وتمييز صحيحها من موضوعها،وقد أراد أن يكون له فضل السبق في هذا المجال، كما كان لجده الفاروق فضل السبق في جمع القرآن، فإنّه هو الذي أشار وألحّ على أبي بكر الصديق بأن يجمعه [619],وقد هم عمر بن الخطاب أيضا أن يجمع السنة،ولكنه تراجع عن ذلك.(أخرج البيهقي عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنة، فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم فأشاروا عليه بكتابتها،فطفق يستخير الله فيها شهرا،ثم أصبح يوما وقد عزم الله له،فقال:"إنّي كنت أردت أن أكتب السنن،وإنّي ذكرت قوما كانوا قبلكم،كتبوا كتبا،فأكبّوا عليها وتركوا كتاب الله،وإنّي والله لا ألبّس كتاب الله بشيء)[620].

و ظلّ حال السنة على ما هو عليه،حتى جاء عمر بن عبد العزيز،فأكرمه الله عزوجل بتدوينها،وقد كان حرصه على ذلك راجع لسببين:

1-القضاء على الموضوعات.

2-تطبيق الأحكام الشرعية تطبيقا صحيحا[621].

---

[619] التشريع والفقه في الإسلام،منّاع القطّان،ص.129

[620] المصدر السابق نفسه، ص 222.

[621]تاريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، ص 259، (و الجمع هنا هو التدوين، و هو أخصّ من الكتابة، أما كتابة السنة المطهرة فبدأت في عصر النبوة)، أنظر هامش كتاب رجال الفكر والدعوة للندوي، ج1، ص 127.

ولتنفيذ هذا الأمر،كتب عمر بن عبد العزيز إلى كلّ عمّاله بأن يجمعوا ما صحّ من الأحاديث النبوية الشريفة ويبعثوا بها إليه،ومنهم والي المدينة أبو بكر بن محمد بن حزم،وكان من كبار العلماء بالسنة،فقال له:"أنظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم فاكتبه،فإنّي خفت دروس العلم وذهاب العلماء"، وأكّد على مجاميع عمرة بنت عبد الرحمان الأنصارية والقاسم بن محمد بن أبي بكر لأهميتهما.

وما إن تجمّعت لديه عدّة دفاتر من تلك الأحاديث المنتقاة ،حتى أرسل منها نسخا إلى الأمصار والولايات الإسلامية كلها[622].

2- نشر العلم والمعرفة:

رشّح عمر لهذه المهمّة الجليلة رجالا أكفاء،اشتهروا بغزارة العلم وصدق النّيّة،وكان من أبرزهم الحسن البصري ،الذي أشار به عمر على والي البصرة،حين بعث إليه هذا الأخير يسأله عن أمر من أمور الدين، قال:"حسبك بالحسن،فسله لي و لك وللمسلمين،فرحم الله الحسن،فإنّه من الإسلام بمنزل كذا و كذا،ولا تقرئنّه كتابي هذا"،خشية أن يدخله شيء من الغرور والعجب.

ولئلاّ تكثر الاجتهادات وتتضارب الآراء حول المواضيع التي تستدعي الفتوى،فقد عيّن عمر مجلسا للفتوى يتكوّن من كبار العلماء في عصره،وهم:جعفر بن ربيعة،ويزيد بن أبي حبيب،وعبيد الله بن أبي جعفر ،فكان لا يفتي أحد سواهم،وهذا الصّنيع يعدّ من حسن التدبير وفقه الواقع،فلطالما تشاجر الناس و تنازعوا بسبب تعدد المشارب والمرجعيات الفقهيّة والعقائديّة.

ومن أجل تثقيف الناس وتعليمهم أمور دينهم،أمر ولاته بفتح المساجد والمدارس لحلق العلم،التي عيّن لها من يوثق بعلمهم و صلاحهم،و أكّد في هذا المضمار على علوم وهدي السلف من الصحابة الكرام لفضلهم وسبقهم.

كما بعث إلى البوادي والحواضر الإسلامية المختلفة العلماء والدعاة لنشر الإسلام وتعليم اللغة العربية للأعاجم خاصة،ومن أولئك:

- يزيد بن أبي مالك و الحارث بن محمد لتعليم الناس في البدو[623].

---

622 رجال الفكر و الدعوة، الندوي، ج 1، ص127، دراسات في تاريخ العرب ، السيد عبد العزيز سالم، ج 2، ص423.

623 الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ج 5،ص65، البداية و النهاية ، ابن كثير، ج 9، ص 152، رجال الفكر والدعوة، الندوي،ج1، ص128، تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص191.

– الفقهاء العشرة[624]الذين بعثهم عمر إلى الشمال الإفريقي لتعليم البربر دينهم،وقد أشرت إليهم سابقا ،فهؤلاء لما وصلوا إلى هذه البلاد تحمسوا كثيرا للدعوة والتعليم، فالتفّ الناس حولهم يستفتونهم ويتربّون على أيديهم،ولكي يوحّدوا الناس على كلمات جامعة ،كتبوا رسالة تعليمية وإرشادية جاء فيها:(...فإنّ أهل العلم بالله وبكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم يعلمون أنّه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل إلى عشر آيات: آمرة وزاجرة،ومبشّرة ومنذرة ومخبرة،ومحكمة ومتشابهة،وحلال وحرام وأمثال،فآمرة بالمعروف وزاجرة عن المنكر،ومبشرة بالجنة،ومنذرة بالنار،ومخبرة بخبر الأولين والآخرين،ومحكمة يعمل بها،ومتشابهة يؤمن بها،وحلال أمر أن يؤتى،وحرام أمر أن يجتنب،وأمثال واعظة)،وكان لهؤلاء العشرة آثار هامّة في الفقه والحديث ونشر الإسلام بين البربر،وساعد هؤلاء ولاة الأمور هناك على ترسيخ دعائم الحكم العمري الراشد،وقاوموا فكريا شذوذ الخوارج حتى أفحموهم وردوهم عن غيهم[625].

– ولكي يكفّ عمر هؤلاء العلماء والدّعاة عن همّ العيش وجمع الرزق،أجرى عليهم العطاء من بيت المال،كلّ رجل منهم مائة دينار.

–وكان الخليفة عمر نفسه عالما وخطيبا،يؤمّ الناس في الجمعة والأعياد والمناسبات،فيستغل كل ذلك لنشر العلم وإحياء السنة وإماتة البدعة[626].

–أمّا فيما يخصّ العلوم الأخرى،غير الدينية،فقد وجدت له اهتماما خاصّا بالطب وترجمته إلى العربية،وقد(وضع في مصلاّه كتابا في الطب عنوانه <أهرن القسّ ابن أعين>،وقد ترجمه ماسرجويه الطبيب البصري – و كان سريانيا – إلى العربية،وأمر عمر بنشره بين الناس لينتفعوا به)[627].

---

[624]انظر ترجمتهم في:صفحات مشرقة ، الصلابي،ج1،ص463 وما بعدها.

[625] المرجع السابق نفسه، ج 1،ص 468، تاريخ المغرب و حضارته، حسين مؤنس ، دار العصر الحديث للنشر والتوزيع،بيروت،ط1، 1412هـ–1992م، ج1، ص127.

[626] سيرة و مناقب عمر ، ابن الجوزي ، ص110/ص 136،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص161.

[627] الإنسان العربي و التاريخ ، أنور الرفاعي،ص 264،في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية،أحمد مختار العبادي، دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية ،ص43.

الفرع الثاني: الإصلاح التربوي

كان الخلفاء والأمراء قبل عمر يشتغلون بالأمور الإدارية والمالية،ولم تكن تهمّهم العناية بأخلاق الجمهور وعقائدهم،أمّا هو فقد جمع بين الإدارة والإرشاد والسياسة والدعوة[628].

تجلى ذلك في حكم تربوية عديدة ساقها، تعكس ذكاء عقله وصدق قلبه وذوقه العالي الرّفيع،وقد توجّه بإرشادات تربوية إلى عمّاله يستحثّهم على العدل في الرعية والنصح لها،وإلى الجماهير من الناس يزكّي أخلاقهم ويسموا بأرواحهم إلى المعالي،كلّ ذلك من أجل إيجاد مجتمع تسوده الفضيلة والثقة والاطمئنان.

وقد وجدت لعمر في ميدان التوجيه التربوي تراثا لا بأس به [629], تمثل في خطب ومواعظ وكلام طيب في فنون شتّى ،وقد انتقيت من ذلك بعض ما يفي بالغرض،وجعلته تحت العناصر التالية:

1- قواعد في التربية:

لقد أوتي عمر الحكمة بفضل تقواه وإخلاصه لله ربّ العالمين،فتحقّق فيه قوله عزوجل:(واتّقوا الله ويعلّمكم الله)[630]،وقوله:(ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) [631]،وتحقق فيه ما وصف به جده الفاروق في الحديث الشريف:<<إن الله جعل الحقّ على لسان عمر وقلبه>>[632].

و من أهمّ الحكم التّربويّة التي نطق بها رحمه الله ما يلي:

1ـ وجوب حسن الظن بالناس:قال:"إذا سمعت كلمة من امرىء مسلم فلا تحملها على شيء من الشرّما وجدت لها محملا من الخير"،ذلك أن الأصل في الناس البراءة القولية والعملية،ثمّ إنّ الذي يؤوّل كلام الناس ولا يأخذ منه إلاّ احتمال الشرّ يصير معقدا فينفر منه الناس ويتحاشون الكلام معه إلا للضّرورة.

---

[628] راجع:(الإصلاح التربوي:العلاقة بين الرؤية الكونية والمنهجية والأداء التربوي)، مجلّة إسلامية المعرفة ، د.عبد الحميد أحمد أبو سليمان ، إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فيرجينيا ، واشنطن، السنة السادسة، 1421هـ-2000م،العدد22، ص101وما بعدها.

[629] راجع سيرة و مناقب عمر بن عبد العزيز، ابن الجوزي، ص 257 و ما بعدها.

[630] سورة البقرة/282.

[631] سورة البقرة/269.

[632] رواه ابن حبان في صحيحه،عن أبي هريرة،ج15،ص312،(كتاب مناقب الصحابة)،رقم6889.

2-وجوب حفظ اللسان:قال:"من عدّ كلامه من عمله قلّ كلامه"،وقال:"القلوب أوعية السّرائر والألسن مفاتيحها،فليحفظ كلّ امرىء منكم مفتاح وعاء سره" [633].إن كثيرا من الناس لا يأبهون بما يقولون،فربّ كلمات يتفوّهون بها،لا يلقون لها بالا،تفتح عليهم أبواب الشرّ والفتنة،وقد تشعل بينهم وبين غيرهم الضغائن ،وهنا يرشدنا عمر إلى أن نحفظ ألسنتنا ونزن كلماتنا قبل إخراجها.

3- وجوب الفزع إلى الله عز وجل واستخارته فيما أشكل على الإنسان، فلم يهتد إلى خير الأمور،قال:"الأمور ثلاثة: أمر استبان رشده فاتبعه،وأمر استبان ضرّه فاجتنبه،وأمر أشكل أمره عليك فرده إلى الله" [634], وبالفعل فإن كثيرا من الناس تجده يضرب أخماسا في أسداس ،ويضع يده على جبهته حائرا مضطربا،لا يدري أيّ الأمور يختار،وإذا حدث أن اختار أحدها ربّما ندم،فراح يعلّق فشله على غيره متطيرا ومتشائما،والمسلم الحقّ -في تصوّر عمر- هو من يتوكّل على الله بعد العزم والاستخارة،فيمضي في اختياره راضيا مطمئنّا،مهما كانت النتائج،ولعمر هنا فائدة أخرى حيث يقول:"ما كنت على حالة من حالات الدنيا فسرّني أنّي على غيرها"،وقد فسّرها بقوله:"مالي في الأمور هوى،سوى مواقع قضاء الله فيها"، وبقوله:"...وأنا أعوذ بالله أن تكون لي محبّة في شيء من الأمور تخالف محبة الله عزوجل،فإن ذلك لا يصلح لي في بلائه عندي الملك،وكان إذا عرض له شييء يكرهه قال:"مقدّر ما كان،وعسى أن يكون خيرا".[635]

4-وجوب استحقاق العقوبة العامّة عند الجهر بالمعصية:قال:"إن الله لا يعذّب العامّة بذنب الخاصّة،ولكن إذا عمل المنكر جهارا ،استحقّوا العقوبة كلهم"،وهنا يحذّر عمر أولياء الأمور خاصّة والرعيّة عامّة من انتهاك المنكرات في السّاحات العامة،فإنّهم إن لم يرعووا،وتركوا الحبل على الغارب،فسيحلّ البلاء وتشيع العلل والأدواء والأوبئة،فتأتي على الأخضر واليابس،ولا تفرّق بين صالح وفاسد،قال:"..فإنّه لم يظهر المنكر في قوم قط ثم لم ينههم أهل الصلاح منهم،إلا أصابهم الله بعذاب من عنده،أو بأيدي من يشاء من عباده،ولا يزال الناس معصومين من العقوبات والنّقمات ما قمع فيهم أهل الباطل،واستخفي فيهم بالمحارم (...)ولعمري إنّ من الجهاد في سبيل الله الغلظة

---

[633] تاريخ الخلفاء ، السيوطي، ص 192، سيرة و مناقب عمر بن عبد العزيز، ابن الجوزي، ص 304.

[634] العقد الفريد ، ابن عبد ربه، ج4، ص 436.

[635] سيرة ومناقب عمر ، ابن الجوزي ، ص 339 .

على أهل المحارم بالأيدي والألسن والمجاهدة لهم فيه،وإن كانوا الآباء والأبناء والعشائر،وإنما سبيل الله طاعته" [636]،وهذا ما استنكرته السيدة زينب بنت جحش، حين سألت النبي صلى الله عليه وسلم:"أنهلك وفينا الصّالحون؟"،قال:<<نعم،إذا كثر الخبث>>.[637]

5- فضل التفكّر في نعم الله عزوجل:قال:"الكلام بذكر الله عزوجل حسن،والفكرة في نعم الله أفضل العبادة،وهذا يدلّ على فضل العلم على العبادة،الذي أشار إليه قوله صلى الله عليه وسلم:<<فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم>> [638].ذلك أن العالم بلا علم قد يفسد أكثر ممّا يصلح،وقد يقع في مخالفات شرعية خطيرة يحسبها من صغائر الأمور،ولذلك جاء تعريفه للتقوى-في هذا السياق -على النّحو التالي:"ليس تقوى الله بصيام النهار وقيام الليل،والتّخليط فيما بين ذلك،ولكن تقوى الله ترك ما حرّم الله وأداء ما افترض الله-وهذا يتطلّب بالطبع علما وفقها-،فمن رزق بعد ذلك خيرا،فهو خير إلى خير".

6-فضل الرفق والعفو:قال: "إنّ من أحبّ الأمور إلى الله:القصد في الجدّة،والعفو عند المقدرة،والرّفق في الولاية،وما رفق عبد بعبد في الدنيا إلاّ رفق الله به يوم القيامة" [639], ولم يكن هذا منه كلاما استهلاكيا وشعبويّا،بل يعدّ برنامجا عمليّا طبّقه في حياته كلّها،كفرد وكمسؤول،وحمل عليه عماله وولاته،كما سبق وأن أشرت إليه.

---

[636]المصدر السابق نفسه، ص 300/ص302،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص.162.

[637] رواه البخاري في صحيحه،ج3،ص1221،(كتاب الأنبياء-باب قصة يأجوج ومأجوج)،رقم3168.

[638] رواه الترمذي في سننه،عن أبي أمامة الباهلي،ج5،ص50،(كتاب العلم-باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة)،رقم2685.

[639] سيرة ومناقب عمر ،ابن الجوزي، ص 265/ص269 .

2- توجيهات تربوية للقادة والولاة:

كان عمر حريصا أشدّ الحرص على اختيار الولاة وتذكيرهم الفينة بعد الفينة برقابة الله عز وجل لهم، ليظلوا على سنن العدل والهدى،ومن بين أهم تلك التوجيهات التّربوية الموجّهة إليهم:

1-التذكير بالموت والدّار الآخرة: كانت أغلب مواعظه تصبّ في هذا الاتّجاه، فنفسه قد امتلأت بالرهبة والجلال لله تعالى، فانطلت على شخصيته،وكان همّه الأكبر أن تتعلّق النفوس بذلك، فقد شكا إليه عنبسة بن سعيد بن العاص- وكان من أثرياء بني أمية- قلّة العطاء الذي منعه إيّاه،فقال:"أكثر من ذكر الموت،فإن كنت في ضيق من العيش وسّعه عليك،وإن كنت في سعة من العيش ضيّقه عليك"، وبالفعل فإنّ كثيرا من النّاس في هذا المجال بين طرفي نقيض:فإمّا رجل آتاه الله مالا –من حلال أو حرام- تجده يكرع من الشهوات ولاهمّ له إلاّ ما يملأ بطنه أو يمتّع فرجه، وهو عن الآخرة من الغافلين،وإمّا رجل قد عضّه الفقر فرأى الدنيا في عين إبرة،فضاقت نفسه ذرعا بالحياة ،وتمنّى قبل الرّحيل رحيلا.

2- وكتب إلى أحد عمّاله يذكّره بنعيم الأبد ويزهّده في نعيم الدنيا الزّائل:"اعمل للدنيا على قدر مقامك فيها، واعمل للآخرة على قدر مقامك فيها"،وشتّان بين المقامين والحياتين.

3- وكتب إلى أحد العمال:" أذكّرك طول سهر أهل النار في النار،مع خلود الأبد"،فجاء إلى عمر مسرعا يقول:"خلعت قلبي بكتابك يا أمير المؤمنين،والله لا أعود إلى ولاية أبدا"[640].

4-التحذير من الظلم: كان أبغض شيء إلى نفس عمر الظلم،لما رآه من أهل بيته الظلمة،وما ناله هو نفسه من ظلمهم في حياته،فكان يحذّر عمّاله منه،فكتب إلى عدي بن أرطأة:"إذا أمكنتك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق القادر عليك،واعلم أن مالك عند الله أكثر ممّالك عند الناس"[641].

5- فضل العلم: لقد تربّى عمر بن عبد العزيز في أحضان العلم والعلماء،فهو يدرك لذّة ذلك ، فأراد أن يشعر جلساءه وعماله بجلالة العلم،فقال لرجاء- وقد أشفق عليه لمّا رآه يسمر مع العلماء بعد عناء النهار-:"يا رجاء إن ملاقاة الرجال تلقح لأوليائها،وإنّ المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة،لا يضلّ معهما رأي ولا يقعد معهما حزم"،فأين موقع مجالسنا يا ترى في هذا الزمان؟ وخاصة من ذوي الشأن والرأي في أمّة الإسلام؟.

---

[640] تاريخ الخلفاء، السيوطي،ص 186،مسيرة ومناقب عمر،ابن الجوزي، ص 144،الموسوعة الميسّرة، تقديم راغب السرجاني،ج1،ص.200.

[641] العقد الفريد، ابن عبد ربه، ج4، ص436.

6- المحافظة على الصلوات: الصلاة صلة بين العبد وربه،وهي عماد الدين،ومن أضاعها كان لما سواها أضيع.وقد كان حكّام بني أمية يؤخّرونها عن مواقيتها،ولكنّ عمر أرجع للصّلاة قداستها وحرمتها،فكان يكتب إلى عماله أن:"اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلاة،فإن من أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشدّ تضييعا".وعندما بعث رجلا في مهمة عاجلة،أراد هذا أن يخرج يوم الجمعة،فنهاه عمر، وقال:"لا يحملنّك استعجالنا إيّاك أن تؤخّر الصلاة عن ميقاتها،فإنّك لا محالة مصلّيها،فإن الله قال لقوم: (أضاعوا الصّلاة واتّبعوا الشّهوات فسوف يلقون غيّا) [642],ولم تكن إضاعتهم أن تركوها ولكن أضاعوا المواقيت.

7- النهي عن اللغو: وذلك حين دخل عليه قوم من بني مروان فأكثروا عنده المزاح، فقال لهم:"إذا اجتمعتم فأفيضوا في كتاب الله،فإن تعدّيتم فعليكم بمعالي الحديث"،وقال لآخرين:"إيّاي والمزاح فإنه يبعث الضّغن وينبت الغلّ"[643].

إنّ الرجل الذي يحمل همّ الإسلام والمسلمين،وخاصة حين الهزيمة،لا وقت لديه للمزاح،ناهيك عن مسؤولية الإنسان أمام الله يوم القيامة عن كل ما تفوّه به،قال أحد الصحابة – وهو معاذ بن جبل- لرسول الله صلى الله عليه وسلم:"وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟"،فقال:<<ثكلتك أمك يا معاذ،وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم>>[644].

8- تحريم الخلوة بالأجنبية:قال النبي صلى الله عليه وسلم:<< واتّقوا النّساء فإنّ أوّل فتنة بني إسرائيل كانت في النساء>>[645].

---

642 سورة مريم/.59

643 الموسوعة الميسرة،تقديم راغب السرجاني،ص 200، سيرة و مناقب عمر،ابن الجوزي،ص 96/ص127،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص.136

644 رواه الترمذي في سننه،ج5،ص11،(كتاب الإيمان-باب ما جاء في حرمة الصلاة)،رقم2616.

645 رواه ابن حبان في صحيحه،عن أبي سعيد الخدري،ج 8،ص15،(كتاب الزكاة-ذكر الأخبار عما يجب على المرء من حفظ نفسه عن الدنيا وآفاتها وانبساطه في الأموال)،رقم3221.

وقال:<<لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم>> [646]، والرجل بطبعه يميل إلى المرأة والعكس،والمال والسلطان من أعظم ما ييسر ويدفع إلى نيل شهوة الجنس،ولذلك خشي عمر بن عبد العزيز على عماله،فربما أغراهم السلطان بفعل ذلك،فقال- يعظ أحد جلسائه وخواصه-:<<لا تخل بامرأة لا تحلّ لك،وإن أقرأتها القرآن،ولا تجالس ذا هوى- وهو من يغري بالحرام- ،فيلقي في نفسك شيئا يسخط الله به عليك>>[647].

9- وصايا للعسكر: العسكر هم حماة الوطن، وبصلاحهم تصلح جميع دواليب الحكم،فكان عمر يحثّهم- وخاصة القادة منهم- على التزام طاعة الله عزوجل،لا سيما أثناء الحروب مع الأعداء، فكان من توجيهاته لقائد جيشه عمر بن قيس السكوني،حين توجّه إلى الروم:"أقبل من محسنهم، وتجاوز عن مسيئهم،ولا تكن في أوّلهم فتقتل ولا في آخرهم فتفشل،ولكن وسطا حيث يرى مكانك،ويسمع صوتك"، وقال لآخر يوصيه:"... ولا تكن من شيء من عداوة عدوّك،أشدّ احتراسا لنفسك ومن معك من معاصي الله،فإنّ الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم،وإنّما نعادي عدوّنا ونستنصر عليهم بمعصيتهم،ولولا ذلك لم تكن لنا قوّة بهم،لأنّ عددنا ليس كعددهم وقوتنا ليست كقوتهم"،والله تعالى يقول: (إن تنصروا الله ينصركم) [648]،ويقول :(وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى)[649]،وإن الله عزوجل لقدير على نصرة من يشاء من عباده،ولكنه جعل لذلك سننا فإن روعيت نزل النصر سريعا،وهي عين ما ذكره الخليفة الملهم عمر بن عبد العزيز في هذه الموعظة وفي غيرها من المواعظ[650].

---

[646] رواه البخاري في صحيحه،عن ابن عباس،ج5،ص2005،(كتاب النكاح-باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم)،رقم.4935

[647] سيرة ومناقب عمر،ابن الجوزي،ص.272

[648] سورة محمد/7.

[649] سورة الأنفال/17.

[650] المصدر السابق نفسه،ص267،تاريخ الخلفاء،السيوطي،ص194،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص87، 88.

3- توجيهات تربوية للأمة:

قال الله تعالى:(الذين إن مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) [651].فقه عمر بن عبد العزيز عن ربه معنى هذه الآية فهما عميقا،فالتزمه عمليا في نفسه وفي محيطه الأسري والاجتماعي، فكان بحقّ داعية حكيما ومربيا شفيقا وأبا عطوفا،ينصح رعيته في رفق وقوة،وفي صرامة وحكمة، ويجمع بين الإدارة والتذكير وبين النّذارة والتبشير،وهذا شأن الحاكم المطلوب في الإسلام.

لقد دأب عمر يعظ ويرشد الناس إلى ما يزكّي أخلاقهم ويوجّه أفكارهم إلى معالي الأمور،في شتّى مناحي الحياة ودروبها،مستغلاّ في ذلك كل فرصة ومناسبة، يريد بذلك رضى الله والجنة،وقد انتقيت قليلا -من كثير- من تلك التّوجيهات الجليلة،عسى أن ينفع الله بها:

- أدب الكلام: نهى القرآن عن رفع الصوت أمام النبي صلى الله عليه وسلم فقال تعالى:(.. لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض..) [652], توجيه ضمني إلى التزام هذا الأدب مع العلماء والحكام والآباء ومن لهم شأن، وهذا ما أراد أن يشير إليه عمر بن عبد العزيز حين دخل عليه رجل فرفع صوته، فقال عمر: "مه، حسب المرء ما أسمع به جليسه من كلامه"،ولم يعنّفه بسبّ أو ضرب، إذا لم أقل بحبس أو قتل، شأن من سبقه من الخلفاء والولاة الظلمة[653].

- النهي عن الخمر: كان الخمر مشتهرا في العهد الأموي، شربه الحكام والمحكومون، وساعدهم على ذلك غير المسلمين من اليهود والنصارى نكاية فيهم وحقدا على الإسلام، وقد فطن عمر لذلك فقال:"ما يشرب أولئك شرابهم إلا من تحت أيدي النصارى الذين يهون عليهم زيغ المسلمين عن دينهم، ودخولهم في ما لا يحلّ لهم، مع الذي يجمع نفاق سلعهم، ويسارة المؤونة عليهم"،وكان ابن سيرين إذا سئل عن الطّلاء -أي الخمر- قال:"نهى عنه إمام الهدى":يعني عمر بن عبد العزيز[654].

---

[651] سورة الحج/41.

[652]سورة الحجرات/2.

[653]سيرة ومناقب عمر ، ابن الجوزي، ص96.

[654]رجال الفكر والدعوة،الندوي،ج1،ص125،تاريخ الخلفاء،السيوطي،ص187.

-الرفق بالحيوان: يعدّ هذا الخلق من تعاليم الإسلام، وقد دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا تركتها تقتات من أرض الله الواسعة، كما ورد بذلك الحديث الشريف ونصه:
<<دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض>>[655].
كان لعمر بن عبد العزيز بغل يعمل له عليه بالحمّالة غلام، وكان (يأتيه بدرهم كل يوم، فجاءه يوما بدرهم ونصف،فقال أتعبت البغل،أجمّه-أرحه-ثلاثة أيام) [656]،وقد سبق عمر بهديه هذا جمعيّات الرفق بالحيوان اليوم، بعدة قرون.
-التسليم لقضاء الله : يعتبر من أركان الإيمان وأساسياته، ثم إنّ الجزع والقلق لا يغيّر من إرادة الله النافذة، فكان للتسليم لها فائدتان عظيمتان: أولهما الشعور بالسكينة والطمأنينة، فربّ جزع أفقد وعيا وورّث عللا مستديمة، وثانيهما حصول الثواب والأجر من الله تعالى:(ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون)[657].
كان لعمر بن عبد العزيز أحد الأصدقاء الأعزّاء، وقد بلغه موته، فجاء إلى أهله ليعزّيهم فيه، فلمّا استقبلهم صرخوا في وجهه بالبكاء عليه، فاستغل عمر الفرصة ليذكرهم بالله والدّار الآخرة فقال: "مه، إن صاحبكم لم يكن يرزقكم، وإن الذي يرزقكم حي لا يموت، وإن صاحبكم هذا لم يسدّ شيئا من حفركم وإنما سدّ حفرة نفسه، ألا وإنّ لكل امرئ منكم حفرة لابد والله أن يسدها، وإن الله عز وجل لما خلق الدنيا حكم عليها بالخراب، وعلى أهلها بالفناء، وما امتلأت دار خبرة إلا امتلأت عبرة، ولا اجتمعوا إلا تفرقوا، حتى يكون الله هو الذي يرث الأرض ومن عليها، فمن كان منكم باكيا فليبك على نفسه، فإن الذي صار إليه صاحبكم، كل الناس يصيرون إليه غدا".
وخطب الناس يوما -يذكرهم بالعقيدة الصحيحة في الرزق-: "اتقوا الله أيها الناس، وأجملوا في الطلب، فإنه إن كان لأحدكم رزق في رأس جبل أو حضيض أرض يأته"[658].
-النهي عن البدع: إن حالة المجتمع التي تستوجب تجديدا في الدين , تقتضي أن يكون الناس فيها بعيدين كل البعد عن جادّة الصواب:عقائديا وسلوكيا,وهذا الذي وجد عمر بن عبد العزيز رعيته

---

[655] رواه البخاري في صحيحه عن ابن عمر،ج 3 ص1205،(كتاب بدء الخلق-باب خمس من الدواب يقتلن في الحرم)، رقم 3140.

[656] سيرة ومناقب عمر، ابن الجوزي، ص118.

[657] سورة يوسف/57.

[658] الموسوعة الميسرة،السرجاني،ج1،ص200، البداية والنهاية،ابن كثير،ج9،ص167.

عليه, فقد كثرت فيها الفتن والبدع و الخرافات,التي ورثوها عن الأمم غير الإسلامية,التي اختلطوا معها بالفتوحات الإسلامية,أو استحيوها من أيام الجاهلية التي جاء الإسلام فقضى عليها,ومنها:

* النياحة : فقد نهى عمر عنها الناس,وكتب إلى شرطته بمراقبتها وقال:"فإن الله قد أمر المؤمنين عند مصائبهم بخير الآمرين في الدنيا والآخرة, فقال:(الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا إليه راجعون , أولئك عليهم صلوات من ربهم و رحمة وأولئك هم المهتدون)"[659].

*التصوير: ذلك أنه مرّ بحمّام عليه صورة, أمر بها فطمست وحكّت,ثم قال :"لو علمت من عمل هذا لأوجعته ضربا)[660].

* زخرفة المساجد: كان ينهى عن ذلك لئلاّ يشتغل الناس بها عن الخشوع في الصّلاة,ولذلك عزم على نزع ما في مسجد دمشق من الرّخام والفسيفساء والذهب,وقال:"إنّ الناس يشتغلون بالنظر إليه عن صلاتهم".

وكان يخطب الناس،فيقول:"لولا سنة أحييها,أو بدعة أميتها لما باليت أن لا أعيش فواقا".

وكان رياح بن حيان يحدّث عنه فيقول:" ما قدم علينا بريد لعمر بن عبد العزيز بالشام إلا بإحياء سنة أو أمر فيه خير"[661].حتى تركها بعد موته بيضاء نقية,على هدي السلف الأول.

– فضل الدعاء وأدبه:الدعاء أفضل العبادة ومخّها ،كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: << الدعاء مخّ العبادة>> [662]،ولقد ندبنا القرآن والسنّة كلاهما لطلب ماعند الله من ثواب الدنيا والآخرة،والاستعاذة بالله من كل شرّ.قال تعالى:(و قال ربّكم ادعوني استجب لكم) [663] ، فينبغي للعبد قبل الدعاء أن يستجمع النية والفكر،فلا يدعو وهو لاه أو على معصية.

---

[659] سورة البقرة/156.

[660] سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ابن الجوزي، ص 118، 119،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص 109، 110، وقد اختلف فقهاء الإسلام قديما وحديثا حول موضوع التصوير والتماثيل، راجع ذلك في كتاب : (الحلال والحرام في الإسلام)، يوسف القرضاوي ، مكتبة رحاب،الجزائر،ط20، 1408هـ–1988م، ص96 وما بعدها.

[661] خلفاء الرسول، خالد محمد خالد، ص306، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ابن الجوزي، ص.113

[662] رواه الترمذي في سننه ،عن أنس بن مالك،ج 5،ص456،(كتاب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم–باب ما جاء في فضل الدعاء)،رقم.3371

[663]سورة غافر/60.

رأى عمر أحد أصحابه وهو مهموم فقال له:"ما لي أراك مهموما"،فأجابه أبو حازم:"لدين عليه"،فقال عمر:" ففتح لك فيه الدعاء؟"،قال:"نعم"،قال:"فقد بارك الله لك فيه>> [664]،وهو يشير هنا إلى الحديث الشريف الذي رواه جابر بن عبد الله،قال:قال رسول الله عليه الصلاة و السلام: << لقد بارك الله لرجل في حاجة أكثر الدعاء فيها،أعطيها أو منعها>> [665].

وحينما رأى رجلا بيده حصاة يعبث بها ويقول: " اللهمّ زوّجني من الحور العين"، قال له:"بئس الخاطب أنت، ألا ألقيت الحصاة وأخلصت إلى الله الدعاء"[666].

-وجوب تدبّر القرآن الكريم: أمرنا الله عزوجل بأن نتدبّر ما نتلوه من آيات كتابه الكريم، ففيها العبر والمواعظ التي إن عملنا بمقتضاها نلنا رضاه وجنّته،فقال تعالى:(أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها)[667] ،وقال:(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)[668]،وقد نعى النبي صلى الله عليه وسلم على أقوام يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم،وقد ورد الحديث بذلك في ذمّ الخوارج كما سبق،لكنّ معناه عام ويصحّ على من لم يتدبّر القرآن حين تلاوته أو سماعه.

قرأ رجل عند عمر بن عبد العزيز بعضا من كتاب الله تعالى،فقال له مسلمة بن عبد الملك:"لحنت"،فقال له عمر:"ما شغلك معناها عن لحنه ؟!"[669].

لقد كانت هذه المواعظ الجليلة تعمل عملها في قلوب الناس،حتى لم تتصرم مدّة ولايته القصيرة،إلا وقد شاع في الناس خلق الزهد والأخوّة وتقوى الله عزوجل،وشعر أهل الصّلاح كأنّهم يعيشون عهد الصحابة،وأنّ عمر بن الخطاب قد بعث من جديد،فلقد كان نسخة مصغّرة وطبق الأصل-إن صحّ هذا التعبير-عن جدّه الفاروق،وفي ختام هذا الفرع الطيب آثرت أن أسوق مقطعا من آخر خطبة له،خطبها في الناس،وكان بخناصرة، ثم لم يلبث بعدها إلاّ يسيرا حتى التحق بالرفيق الأعلى رحمه الله،وكانت خطبة تفيض بالزّهد والنّصح الصّادق لأمّة الإسلام،التي وهبها روحه وجسده معا،فكان بحقّ كالشمعة تحرق نفسها لتضيئ غيرها،فبعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله،قال:"أيّها الناس،إنّكم لم تخلقوا عبثا،ولم تتركوا سدى،وإنّ لكم معادا يحكم الله بينكم فيه،فخاب

---

664 سيرة ومناقب عمر،ابن الجوزي،ص.303.

665 ضعيف الجامع ،ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي،بيروت،ط2، 1408هـ ،رقم4702.

666 المصدر السابق نفسه،ص98.

667 سورة محمد/24.

668 سورة القمر/17.

669 المصدر السابق نفسه، ص253.

وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء،وحرم جنّة عرضها السماوات والأرض، واعلمو أنّ الأمان غدا لمن يخاف اليوم،و باع قليلا بكثير،وفانيا بباق،ألا ترون أنّكم في أصلاب الهالكين،وسيخلّفها من بعدكم الباقون،حتى تردّوا إلى خير الوارثين،ثمّ إنّكم في كلّ يوم تشيّعون غاديا ورائحا إلى الله،قد قضى نحبه،وبلغ أجله،ثم تغيّبونه في صدع من الأرض،ثم تدعونه غير موسّد ولا ممهّد،قد خلع الأسباب،وفارق الأحباب، وواجه الحساب،غنيّا عمّا ترك،فقيرا إلى ما قدّم،وأيم الله، إنّي لا أقول لكم هذه المقالة،وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر ممّا عندي،فأستغفر الله لي ولكم ثمّ بكى،فتلقىّ دموع عينيه بردائه ونزل[670].وهذا غيض من فيض ما نضح به سرّه المقدّس–رضي الله عنه–.

وبعد :

إنّ الانقلاب الذي أحدثه عمر بن عبد العزيز،في هذه الفترة القصيرة،في حياة الناس وأهدافهم واهتماماتهم، وفي ميادين العمل جميعا:سياسة وحربا،إدارة واجتماعا واقتصادا،وتربية وتثقيفا،والنجاح العظيم الذي حقّقه هذا الانقلاب في شتى أبعاده،في مواجهة ظروف وأحوال متشابكة وعسيرة،وركام عقود من السنين طويلة، انحرفت بكثير من المفاهيم والقيم والموازين القسط،وأحدثت انفصاما نكدا وثنائية خطيرة بين فكر الإسلام وشريعته و بين الواقع الذي يحياه الناس ...إن هذا النجاح وهذا التوفيق يشير بوضوح إلى إمكانية تنفيذ المشروع الإسلامي وتطبيق أحكامه وتنظيماته على واقع الحياة،في أيّ فترة يمكن أن يتسلّم فيها الحكم رجال يمتلكون الفهم الصحيح مع الحزم والمرونة والعمل الدؤوب،إلى جانب الإيمان العميق والتّقوى الصادقة،التي تشدّ أعينهم دوما إلى المثل العليا التي جاؤوا لتحقيقها،وإلى المخاطر والعقبات الكؤود التي تهدّد هذه المثل والغايات...التّقوى التي تقضي على الرّغبات الشخصية والمطامع الذاتيـــة،وتوجّه طاقاتهم الفكرية والرّوحية والجسمية كلّها إلى أن تصبّ في المحيط الواسع ،الذي يذيب كل الأوهاق والعقابيل،و يهدّم كل السدود والحواجز التي تسعى للوقوف إزاء العودة بالحياة والأحياء إلى طريق الله وهدي النبي و السلف الصّالح،مع الإفادة طبعا من روح العصر وما تفتّقت عنه العقول في شتى الميادين،بلا إفراط ولا تفريط،وجمعا بين الأصالة والمعاصرة...تلك هي الحقيقة الكبرى التي

---

[670] العقد الفريد، ج4، ص95،الخليفة العادل،ابن عبد الحكم،ص53، 54.

علّمتنا إيّاها الرّحلة عبر حياة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز،ذلك الذي قاد ثورة إسلامية ضد أوضاع شاذّة في مختلف الجبهات والصّعد،وتمكّن بذكائه ومرونته وحزمه وتقواه من إحراز النّصر العظيم .

إنّ ميزة هذا الرجل ليست في الزهادة والتّقشّف،فإنّ ذلك قد يشاركه فيه كثير من الناس،ولكن ميزته الكبرى والسّمة التي اتّسم بها،هو أنّ الدّافع إلى كل ذلك هو إيمانه القويّ بالآخرة،وخشية الله،والشّوق إلى الجنّة،فلم يعش هذه الحياة الزّاهدة إلاّ خوفا من الله وشوقا إلى الجنّة وإيثارا للآخرة على الدنيا،وإيمانا بقوله تعالى:(و ما عند الله خير و أبقى) [671]،وإيمانا بقوله سبحانه:(إن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون) [672]، وتسليما لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:<<اللّهمّ لا عيش إلاّ عيش الآخرة>>[673].

إنّ هذه المدّة التي كانت أشبه بفصل الربيع في عالم الدين والأخلاق و في تاريخ الإنسانية،وكانت فلتة من فلتات الدّهر لم تطل ، جعلت من صاحبها معجزة من معجزات الإسلام ، وآية من آيات الله العظام ، في جلالة عمله وضخامة إنتاجه وبعد أثره ، وكان معجزة لأنّ كلّ ذلك قد تمّ في مدة قصيرة ، لم تعرف عن مصلح وعبقري وإداري ، سنتان وبضعة أشهر يحقّق فيها مالا تحقّقه الحكومات والمنظمات في عقود من السنين، ويغيّر اتّجاه أمّة ومجتمع بأسره ، إنّ هاتين السنتين لترجحان على الأعمار الطويلة ، وإنّ عصرنا الحالي ، الذي تكالبت فيه الأمم على أمّة الإسلام ، فمزّقت أراضيها ، وطمع فيها القاصي والدّاني ، بسبب بعدها عن منهج الله تعالى ، شعوبا وحكومات وأفرادا ، لهي في أمسّ الحاجة إلى رجل من طراز عمر بن عبد العزيز ، وقد خلت القرون والأجيال ولم يظهر مثله ، ولا يزال التّاريخ منشدا :

حلف الزّمان ليأتينّ بمثله   حنثت يمينك – يازمان – فكفّر[674]

---

[671] سورة القصص/60.

[672] سورة العنكبوت/64.

[673]رواه البخاري في صحيحه عن أنس،ج3،ص1081،(كتاب الجهاد والسير–باب البيعة في الحرب أن لا يفروا ،وقال بعضهم على الموت)،رقم.2801

[674] البيت للفقيه "عمارة اليمني "أنظر كتاب :(وفيات الأعيان)، ابن خلكان ، تحقيق إحسان عباس،دار بولاق،مصر،ط 2، 1972م، ج3، ص1511..

الخاتـــــــمة:

يحسن بي وقد أتيت إلى نهاية البحث:(المصالحة السياسية والإصلاح الاجتماعي في خلافة عمر بن عبد العزيز– دراسة وصفية تحليلية–)،أن أعرض أبرز النتائج والدروس المستخلصة من خلال هذا العمل ، والتي أختصرها في العناصر التالية :

1ـ الكتابة في المصالحة السياسية في خلافة عمر بن عبد العزيز لم تفرد بمؤلّف خاص ، وإنّما ذكرت عرضا ، وبشكل متفرّق في المؤلّفات التي تناولت حياته بالبحث.

2ـ والأمر نفسه يتعلّق بالإصلاح الاجتماعي،فلم تقسّم مجالاته ، حتى يميّز القارئ بين الإداري منه والثقافي والمالي إلخ ...

3ـ لا يمكن نجاح أي مصالحة أو إصلاح إلاّ بصدق النيّة ومضاء العزم وتظافر الجهود من الجميع: أفرادا وشعوبا وحكومات.

4ـ هناك علاقة تلازميّة بين المصالحة والإصلاح ، فلا يمكن نجاح أحدهما إلاّ بنجاح الآخر.

5ـ يجب أن تعتمد مشاريع المصالحة والإصلاح على النصوص والضّوابط الشرعية ، مع مراعاة اجتهادات العلماء في ضوء الواقع ومتطلّبات العصر .

6ـ أهميّة الحوار وضرورته في عمليّة استمالة القلوب وإقناع العقول للوصول إلى كلمة سواء.

7ـ أهميّة وضرورة الصداقة والتّعايش السّلمي بين:

أ ــ أهل الإسلام وغيرهم من الأقلّيات العرقية والدّينيّة ، التي تعيش في البلاد الإسلامية.

ب ــ أهل الإسلام وغيرهم من الدول والشعوب غير الإسلامية.

8 ــ مراعاة التدرّج والمرحليّة في عملية الإصلاح .

9 ــ ضرورة وأهميّة العدل والإنفاق المالي في عملية جلب التــأييد والنصرة من لدن جماهير الأمّة .

التوصيـــــات : أقترح في هذا المضمار التّوصيات التالية:

1 ــ ضرورة تظافر الجهود لإنجاح كل مسعى يرمي إلى إصلاح ذات البين، وإصلاح كلّ فاسد ، إمّا بالعمل الفكري،كالذي قصدته من وراء بحثي المتواضع هذا،أو العمل السياسي والاجتماعي ...

2 ــ إدراج وحدة تعليميّة تخصّ هذا الموضوع في الجامعات والمعاهد والمدارس

3ـ تنظيم ملتقيات وندوات تظهر أهمية المصالحة والإصلاح في المجتمع الإسلامي خصوصا ، والعالم البشري عموما.

4ـ القيام بدراسات نفسية واجتماعية ودينية لمعالجة ظاهرة العنف والإرهاب ، للوقوف على الأسباب الخفيّة والظاهرة لهذه المشكلة ، وإعطاء الحلول الممكنة لها .

5-معالجة ظاهرة الفساد الإداري والمالي ، من خلال اختيار الأكفاء علما وصلاحا وتجربة.

6ـ العدالة هي أسّ وأساس الاستقرار السياسي والاجتماعي للأمة ، وعليه فلابدّ من إقامة العدل لأنه أساس الملك كما قيل.

7ـ تنوير الرأي العام العالمي بسماحة الإسلام ونبذه للعنف ، من خلال وسائل الإعلام وعقد الملتقيات والمؤتمرات العالمية.

وأخيرا:

فقد حاولت قدر ما أستطيع الإلمام بجهود الخليفة الرّاشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في عملية الإصلاح والمصالحة ، عسى الله أن ينفع بها. فإن أصبت فمن الله وحده ، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله ،وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أ/المصادر والمراجع :

القرآن الكريم.

1- أحكام أهل الذمة،ابن قيم الجوزية،تحقيق وتعليق طه عبد الرؤوف سعد،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1، 1415هـ-1995م.

2- الأحكام السلطانية والولايات الدينية،ابن حبيب الماوردي،تحقيق سمير مصطفى رباب،المكتبة العصرية،بيروت،لبنان،ط1، 1421هـ-2000م.

3- أربعون حديثا،علي بن الحسن بن هبة الله،تحقيق مصطفى عاشور،مكتبة القرآن،القاهرة،ط.1

4-الإسلام وأوضاعنا السياسية،عبد القادر عودة،دار الزيتونة للإعلام والنشر،باتنة،الجزائر.

5- الإصابة في تمييز الصحابة،ابن حجر العسقلاني،تحقيق علي محمد البجاوي،دار الجيل،بيروت،1412هـ-1992م.

6- أصول الدين،عبد القاهر البغدادي،،منشورات دار الآفاق الجديدة،بيروت،ط1، 1404هـ-1981م.

7-أطلس التاريخ العربي الإسلامي،شوقي أبو خليل،دار الفكر،دمشق،سورية،ط12، 1425ه-2005م.

8-أطلس الحديث النبوي من الكتب الصحاح(أماكن وأقوام)،شوقي أبوخليل،دار الفكر،دمشق،ط4، 1426هـ-2005م.

9- أطلس القرآن(أماكن،أقوام،أعلام)، شوقي أبوخليل،دار الفكر،دمشق،ط1، 1420هـ-2000م.

10- الأعلام" قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء،من العرب والمستعربين والمستشرقين"،خير الدين الزركلي،دار العلم للملايين،بيروت،ط7، 1986م.

11-الأغاني،الأصفهاني،تحقيق سمير جابر،دار الفكر،بيروت،ط2، .1993

12- الإمامة والسياسة،ابن قتيبة الدينوري،تعليق خليل المنصور،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1، 1418هـ-1997م.

13-الأنساب، عبد الكريم السمعاني،تقديم وتعليق عبد الله البارودي،مؤسسة الكتب الثقافية،دار الفكر،بيروت،ط1، 1419هـ-1998م.

14- الإنسان العربي والتاريخ،أنور الرفاعي،دار الفكر،بيروت،1971م.

15–أهل الذمة في الحضارة الإسلامية،حسن الممي،دار الغرب الإسلامي،بيروت،ط1، 1998م.
16–البحر الرائق،زين بن إبراهيم،دار المعرفة،بيروت،ط.1
17– بدائع الصنائع،الكاساني،دار الكتاب العربي،بيروت،ط2، 1982م.
18– البداية والنهاية،عماد الدين إسماعيل بن كثير،خرج أحاديثه أحمد بن شعبان بن أحمد ومحمد بن عيادي بن عبد الحليم،مكتبة الصفاء،القاهرة،ط1، 1423هـ–2003م.
19– البيعة في الفكر السياسي الإسلامي،محمود الخالدي،شركة الشهاب،باتنة،1988م.
20– تاريخ الأمم والملوك،محمد بن جرير الطبري،دار الكتب العلمية،بيروت،1417هـ–1997م.
21– تاريخ الخلفاء،جلال الدين السيوطي،دار الكتب العلمية،بيروت،ط.1
22– تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي،حسن إبراهيم حسن،دار الأندلس،بيروت،ط7، 1964م.
23– التاريخ الإسلامي،محمود شاكر،المكتب الإسلامي،دمشق،ط7، 1411هـ–1991م.
24– تاريخ الشعوب الإسلامية،كارل بروكلمان،ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي،دار العلم للملايين،بيروت،ط13، 1988م.
25– تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية،محمد أبو زهرة،دار الفكر العربي،القاهرة.
26– تاريخ المغرب الإسلامي،موسى لقبال،دار هومة،الجزائر،2002م.
27– تاريخ المغرب وحضارته،حسين مؤنس،دار العصر الحديث للنشر والتوزيع،بيروت،ط1، 1412هـ–1992م.
28– تاريخ اليعقوبي،أحمد بن أبي يعقوب،دار صادر بيروت.
29– تحفة الفقهاء،السمرقندي،دار المعرفة العلمية،بيروت،ط1، 1405هـ.
30– تدريب الراوي،السيوطي،تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف،مكتبة الرياض الحديثة،الرياض.
31– التشريع والفقه في الإسلام"تاريخا ومنهجا"،مناع القطان،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط6، 1406هـ–1985م.
32– التعاريف،المناوي،تحقيق محمد رضوان الداية،دار الفكر،بيروت،ط1، 1410هـ.

33- التفكير الفلسفي في الإسلام،عبد الحليم محمود،دار الكتاب اللبناني،بيروت،1402هـ-1982م.
34- تهذيب التهذيب،ابن حجر العسقلاني،دار الفكر،بيروت،ط1، 1404هـ-1984م.
35- تهذيب الكمال،المزي،تحقيق بشار عواد معروف،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط1، 1400هـ-1980م.
36- تهذيب سيرة ابن هشام،عبد السلام هارون،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط24، 1417هـ-1996م.
37- الجامع لأحكام القرآن،القرطبي،تحقيق أحمد عبد العليم البردوني،دار الشعب،القاهرة،ط2، 1372ه.
38- جواهر العقود،الأسيوطي،تحقيق مسعد عبد الحميد محمد السعدني،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1 ،1417هـ-1996م.
39- حاشية ابن عابدين،تحقيق محمد أمين،دار الفكر،بيروت،ط2، 1386هـ.
40- الحلال والحرام في الإسلام،يوسف القرضاوي،مكتبة رحاب،الجزائر،ط20، 1408هـ-1988م.
41- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب،عبد القادر البغدادي،تحقيق عبد السلام هارون،مطبعة بولاق،مصر،ط1، 1304هـ.
42- الخلافة الأموية،عبد المنعم الهاشمي،دار ابن حزم،بيروت،ط1، 1423هـ-2002م.
43- الخلافة والملك،أبو الأعلى المودودي،تعريب أحمد إدريس،شركة الشهاب،باتنة،1988م.
44- خلفاء الرسول،خالد محمد خالد،دار الكتب العلمية،بيروت،ط2، 1394هـ-1974م.
45- الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز"خامس الخلفاء الراشدين"،أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم،دار الهدى،عين مليلة،الجزائر،1996م.
46- دراسات تاريخية،عماد الدين خليل،المكتب الإسلامي،دمشق،ط1، 1403هـ-1983م.
47- دراسات في تاريخ العرب "تاريخ الدولة العربية"،السيد عبد العزيز سالم،نشر مؤسسة شباب الجامعة،القاهرة.
48- رجال الفكر والدعوة،أبو الحسن علي الحسني الندوي،دار القلم،دمشق،ط1، 1423هـ-2003م.

49- رياض الصالحين،النووي،قدم له وراجعه حسن تميم،نشر دار مكتبة الحياة،بيروت.
50- الزهد الكبير،البيهقي،تحقيق عامر أحمد حيدر،مؤسسة الكتب الثقافية،بيروت،ط3، 1996م.
51- سنن ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر ، بيروت ،ط2.
52- سنن أبي داود ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،دار الفكر،بيروت،ط3.
53- سنن الترمذي ،تحقيق أحمد محمد شاكر،دار إحياء التراث العربي،بيروت،ط2.
54- السنن الكبرى،البيهقي،تحقيق محمد عبد القادر عطا،مكتبة دار الباز،مكة المكرمة،ط1، 1414هـ-1994م.
55-سير أعلام النبلاء،شمس الدين الذهبي،تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط9، 1413هـ.
56- السيرة النبوية،ابن هشام،تحقيق طه عبد الرؤوف سعد،دار الجيل،بيروت،ط1، 1411ه.
57-السيرة النبوية"دروس وعبر"،الدكتور مصطفى السباعي،المكتب الإسلامي،دمشق،سورية.
58-سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز،الخليفة الزاهد،دراسة-تحقيق وتعليق الدكتور السيد الجميلي،دار مكتبة الهلال،بيروت،لبنان،.2003
59- الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام،عبد الكريم زيدان،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط2، 1408هـ-1988م.
60-شعب الإيمان،البيهقي،تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1، 1410ه.
61- الشعر والشعراء،ابن قتيبة الدينوري،تحقيق دي جويه،ليدن،ط2، 1902م.
62- شفاء العليل،ابن قيم الجوزية، تحقيق أبو فراس النعساني،دار الفكر،بيروت،ط1998،1م.
63- صحيح ابن حبان،تحقيق شعيب الأرنؤوط،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط2، 1414هـ-1993م.
64- صحيح البخاري،تحقيق مصطفى ديب البغا،دار ابن كثير،اليمامة،بيروت،ط3، 1407هـ-1987م.
65- صحيح مسلم،تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي،دار إحياء التراث العربي،بيروت،ط3.
66-صفة الصفوة،ابن الجوزي،صنع فهرسه عبد السلام هارون،مؤسسة الكتاب الثقافية،بيروت،ط2، 1413هـ-1992م.
67- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي،علي محمد محمد الصلابي،دار الإيمان،الإسكندرية،مصر،2003م.

68- ضعيف الجامع،الألباني،المكتب الإسلامي،بيروت،ط2، 1408هـ.
69- الطبقات الكبرى،محمد بن سعد،مراجعة وتعليق سهيل كيالي،دار الفكر،بيروت،ط3، 1413هـ-1992م.
70- ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي،سفر بن عبد الرحمان الحوالي،رسالة دكتوراة،إشراف محمد قطب،1446هـ-1986م
71- العفو ومدى سلطان الدولة في تطبيقه، في جرائم الإرهاب ـ الجزائر نموذجا ـ دراسة فكرية، شرعية، قانونية"، للطالب محمد يعيش،التي نوقشت بكلية العلوم الإسلامية،يوم الأحد 12 صفر 1427هـ الموافق لـ 12 مارس 2006م.
72- العقد الفريد،محمد بن عبد ربه،شرح وضبط وتصحيح أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري،دار الكتاب العربي،بيروت،1403هـ-1983م.
73- العلاقات الدولية في الإسلام"مقارنة بالقانون الدولي"،وهبة الزحيلي،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط4، 1417هـ-1997م.
74- عمر بن عبد العزيز "الراشد المجدد"،يوسف القرضاوي،مكتبة وهبة،القاهرة،ط1، 1422هـ-2001م.
75- غير المسلمين في المجتمع الإسلامي،يوسف القرضاوي،نشر مكتبة وهبة،القاهرة ،ط3، 1413هـ-1992م.
76- الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي،من الفتح العربي حتى اليوم،ألفرد بل،ترجمة عبد الرحمان بدوي،دار الغرب الإسلامي،بيروت،ط3، 1987م.
77-الفرق بين الفرق،عبد القاهر البغدادي،تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،دار المعرفة،بيروت،لبنان.
78- في التاريخ الإسلامي،شوقي أبو خليل،دار الفكر،دمشق،ط2، 1999م.
79- في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية،أحمد مختار العبادي،دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية.
80- الفصل في الملل والأهواء والنحل،ابن حزم،دار المعرفة،بيروت،1403هـ-1983م.
81- في التاريخ العباسي والفاطمي،أحمد مختار العبادي،نشر مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية.
82- في التاريخ الإسلامي"فصول في المنهج والتحليل"،عماد الدين خليل،المكتب الإسلامي،دمشق،ط2، 1401هـ-1981م.
83- قادة الفتح الإسلامي"قادة فتح المغرب العربي"،محمود شيث خطاب،دار الفكر،دمشق،ط7، 1404هـ-1984م.
84- القاموس المحيط،الفيروز آبادي،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط2، 1993م.

85- الكامل في التاريخ،عز الدين بن الأثير،دار صادر،بيروت.
86- الكامل في اللغة والأدب،أبو العباس محمد بن يزيد،المعروف بالمبرد النحوي،تحقيق تغاريد بيضون ونعيم زرزور،دار الكتب العلمية،بيروت،1416هـ-1996م.
87- لسان العرب،ابن منظور،دار إحياء التراث العربي،بيروت.
88- لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني،دار الفكر،بيروت.
89- مبادئ الاقتصاد وعوامل التنمية في الإسلام،رشيد حيمران،دار،هومة،الجزائر،2003م.
90- المبسوط،السرخسي،دار المعرفة،بيروت،ط2، 1406هـ.
91- مجمع الزوائد،الهيثمي،دار الكتاب العربي،بيروت،ط1، 1407هـ.
92- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية"الدولة الأموية"،محمد الخضري بك،دار المعرفة،بيروت.
93- مختصر تفسير ابن كثير،محمد علي الصابوني،شركة الشهاب،باتنة،1411هـ-1990م.
94- مروج الذهب ومعادن الجوهر،أبو الحسين بن علي المسعودي،دار موفم للنشر،الجزائر،1989م.
95- المستدرك،الحاكم،تحقيق مصطفى عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1، 1411هـ-.1990
96- مسند أحمد،مؤسسة قرطبة،مصر،ط.2
97- مسند الربيع،تحقيق محمد إدريس وعاشور بن يوسف،دار الحكمة،بيروت،ط1، 1415هـ.
98- مسند الشهاب،القضاعي،تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط2، 1407هـ-1986م.
99- مصنف ابن أبي شيبة،تحقيق كمال يوسف الحوت،مكتبة الرشد،الرياض،ط1، 1409هـ.
100-معاوية بن أبي سفيان،بسام العسلي،دار النفائس،بيروت،ط6، 1406هـ-1986م.
101-معجم الأدباء،ياقوت الحموي،تحقيق إحسان عباس،دار الجيل،بيروت،ط2، 1993م.
102-معجم الأدباء،ياقوت الحموي،تحقيق إحسان عباس،دار الجيل،بيروت،لبنان،ط2، 1993م.
103- معجم البلدان،ياقوت الحموي،دار صادر،بيروت،ط1، 1986م.
104- معجم الشعراء،المرزباني،تحقيق عبد الستار فراج،دار التراث العربي،بيروت،ط1، 1960م.
105- المعجم العربي الأساسي"لاروس"،تأليف وإعداد مجموعة من كبار اللغويين العرب،نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،1989م.

106- المعجم الكبير،الطبراني،تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي،مكتبة العلوم والحكم،الموصل،العراق،ط2، 1404هـ-1983م.
107- معرفة الثقات،العجلي،تحقيق عبد العليم البستوي،مكتبة الدار،المدينة المنورة،ط1، 1405هـ-1985م.
108- مقالات الإسلاميين، أبو الحسن علي الأشعري،تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،دار الحداثة،ط2، 1405هـ-1985م.
109- المقدمة،عبد الرحمان بن خلدون،دراسة أحمد الزغبي،دار الأرقم،بيروت.
110- الملل والنحل،أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني،دار المعرفة،بيروت،1403هـ-1983م.
111- من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة،عبد الله العقيل ،دار التوزيع والنشر الإسلامية،القاهرة،ط1، 1423هـ-2002م.
112- من توجيهات الإسلام،محمود شلتوت،دار الشروق،بيروت،ط7، 1403هـ-1983م.
113- المنجد في اللغة والأعلام،دار المشرق،بيروت،ط1.
114- مواطنون لا ذميون،فهمي هويدي،دار الشروق،بيروت،ط1، 1405هـ-1985م.
115- الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي،اعداد فريق البحوث الإسلامية،تقديم راغب السرجاني،مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة،القاهرة،ط1، 1426هـ-2006م.
116- نظام الحكم في الإسلام،محمد يوسف موسى،دار العصر الحديث للنشر والتوزيع،بيروت،ط3، 1408هـ-1988م.
117- النظام المالي في الإسلام، جمال لعمارة،دار النبأ،الجزائر،1996م.
118- نقد المنقول"في الأحاديث الباطلة"،الزرعي،تحقيق حسن السماعي سويدان،دار القادري،بيروت،ط1، 1411هـ،1990م.
119-نهج البلاغة،الشريف الرضي،شرح وتعليق محمد عبده،إشراف عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع،مؤسسة المعارف،بيروت،1416هـ-1996م.
120- الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمالي افريقية "دراسة ونصوص"،محمد ماهر حمادة،مؤسسة الرسالة،ط2، 1406هـ-1986م.
121- وفيات الأعيان،ابن خلكان،تحقيق إحسان عباس،دار بولاق،مصر،ط1972،2م.

ب/الدوريات:

1-مجلة إسلامية المعرفة،إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فيرجينيا ، واشنطن، السنة السادسة،1421هــ-2000م،العدد.22.

2- كتاب الأصالة"محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي"،بجاية،الجزائر،1405هــ-1985م.

3- مجلة البصيرة للبحوث والدراسات الإنسانية،دار الخلدونية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 2004م،العدد.8.

4- مجلة الصراط،كلية العلوم الإسلامية،الجزائر،السنة الثانية،1421هــ-2000م،العدد.3.

5- مجلة الصراط،كلية العلوم الإسلامية،الجزائر،السنة الثالثة،1423هــ-2002م،العدد.6.

6- مجلة الصراط،كلية العلوم الإسلامية،الجزائر،السنة الرابعة،1424هــ-2003م،العدد.7.

7- مجلة الصراط،كلية العلوم الإسلامية،الجزائر،السنة الخامسة،1425هــ-2004م،العدد.10.

8- مجلة العربي،وزارة الإعلام،الكويت،1424هــ-2003م،العدد.540.

9- مجلة كلية الآداب في جامعة البصرة،مطبعة النعمان،النجف الأشرف،العراق،السنة التاسعة،1396هــ-1976م،العدد10.

ت/المواقع الالكترونية:

1- http//www.geocities/com."24/04/2005".

2- http//www.anr.nu."nov2005".

3- أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين,د.عبد السلام الترمانيني:
http://www.uae4ever.com/ara/modules.

فهرس الآيات القرآنية

135	(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط..)	النساء	133
54	(ذلك فضل الله.....)	المائدة	18
08	(ولا يجرمنكم شنآن....)	المائدة	133
87	(ولا تعتدوا....)	المائدة	98
90	(أولئك الذين هدى الله.....)	الأنعام	101
148	(سيقول الذين أشركوا....)	الأنعام	64
152	(وإذا قلتم فاعدلوا.....)	الأنعام	133
164	(ولاتزر وازرة....)	الأنعام	95
28	(ولو ردوا لعادوا....)	الأنعام	108
27	يا ليتنا نرد.......)	الأنعام	109
96	(ولو أن أهل القرى.....)	الأعراف	148
47	(الذين خرجوا من ديارهم...)	الأنفال	97
17	(وما رميت إذ رميت....)	الأنفال	157
06	(وإن أحد من المشركين استجارك)	التوبة	49، 118
105	(وقل اعملوا.....)	التوبة	87
60	(والمؤلفة قلوبهم...)	التوبة	115
15	(إني أخاف إن عصيت....)	يونس	91
101	(قل انظروا ماذا في السموات...)	يونس	62
104	(ولكن أعبد الله......)	يونس	87
88	(إن أريد إلا الإصلاح....)	هود	87
85	(ولا تبخسوا الناس......)	هود	147
57	(ولأجر الآخرة خير.....)	يوسف	159
36	(فمن تبعني فإنه مني....)	ابراهيم	101
85	(فاصفح الصفح الجميل...)	الحجر	22

88	(واخفض جناحك للمؤمنين....)	الحجر	24
125	(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة....)	النحل	97
90	(إن الله يأمر بالعدل.......)	النحل	103
23	(وقضى ربك ألا تعبدوا.....)	الإسراء	66، 87
49	(لا يغادر صغيرة........)	الكهف	134
59	(أضاعوا الصلاة....)	مريم	156
111	(وإن أدري لعله فتنة....)	الأنبياء	37
39، 40، 41	(أذن للذين يقاتلون......)	الحج	59، 158
55	(وعد الله الذين آمنوا منكم....)	النور	31، 224
224	(والشعراء يتبعهم الغاوون.....)	الشعراء	140
64	(هاتوا برهانكم.........)	النمل	148
83	(تلك الدار الآخرة.......)	القصص	24، 28
60	(وما عند الله خير وأبقى.....)	القصص	163
64	(إن الدار الآخرة لهي الحيوان.....)	العنكبوت	163
46	(ولا تجادلوا أهل الكتاب......)	العنكبوت	88
41	(ظهر الفساد في البر.......)	الروم	م(أ)
18	(ولا تصعر خدك.......)	لقمان	24
27	(ذلك ظن الذين كفروا.....)	ص	66
60	(وقال ربكم ادعوني.....)	غافر	160
53	(سنريهم آياتنا........)	فصلت	63
15	(إنا كاشفوا العذاب......)	الدخان	108

24	(أفلا يتدبرون القرآن.....)	محمد	161
07	(إن تنصروا الله ينصركم....)	محمد	157
13	(إن أكرمكم عند الله......)	الحجرات	70
10	(إنما المؤمنون إخوة.....)	الحجرات	70، 82، 83، 93
07	(حبب إليكم الإيمان.....)	الحجرات	109
02	(لا ترفعوا أصواتكم ....)	الحجرات	158
09	(وإن طائفتان من المؤمنين....)	الحجرات	77، 83
13	(يآ أيها الناس إنا خلقناكم...)	الحجرات	70، 112
17	(ولقد يسرنا القرآن للذكر......)	القمر	161
07	(وأنفقوا مما جعلكم............)	الحديد	145
10	(ربنا اغفر لنا ولإخواننا.......)	الحشر	104
08	(لا ينهاكم الله عن الذين........)	الممتحنة	112
10	(فإذا قضيت الصلاة.....)	الجمعة	144
28	(لمن شاء منكم أن يستقيم.....)	التكوير	109
29	(وما تشاؤون إلا أن يشاء الله....)	التكوير	109
01، 02، 03	(قل يآ أيها الكافرون.....)	الكافرون	88

فهـــرس الأحـــاديث النبـــــوية

فهـــــــــرس الأعـــــــلام

فهرس الأماكن والبلدان

فهرس المحتويات :

ملخص عام لمضمون المذكرة الموسومة بـــ:

(المصالحة السياسية والإصلاح الاجتماعي في خلافة عمر بن عبد العزيز):

الإسلام دين العدالة والمصالحة والوئام،يدعو أتباعه خاصة،والبشرية عامة،إلى التواصل والتعارف والتعاون، بغض النظر عن التوجه الثقافي أو الديني و بعيدا عن اعتبار العرق واللون و اللسان و ذلك بغرض تعمير الأرض بكل نافع ومفيد،في جميع الميادين والصعد: الثقافية ، والدينية،والسياسية،والاجتماعية.....،ويؤكد ديننا الحنيف في ذلك على موضوع الحوار والتسامح ، ويجعلهما قاعدة للانطلاق،في كل ما يهم الناس،في معاشهم ومعادهم على السواء.

وقد علمنا كتاب ربنا عز و جل و سنة نبينا صلى الله عليه و سلم كيف نتعامل مع المخالفين لنا في المعتقد و الفكر ، و ذلك في كثير من النصوص الشرعية النظرية والعملية ، و أظهرها محاورة الله سبحانه و تعالى لإبليس اللعين ، حين خالف و عصى أمره .وقد وجهنا القرآن الكريم إلى مناظرة و جدال أصحاب الأديان السابقة ، كاليهود والنصارى بالتي هي أحسن وبعيدا عن الصراع و التقاتل ، قصد الوصول إلى كلمة سواء ، و هذا يدل على سماحة الإسلام و رحابة صدور أتباعه ، فهم لا يضيقون ذرعا بالمخالفين ، بل يرحبون بكل خلاف قد يفضي إلى تصحيح خطأ أو إرشاد إلى خير.

ولما كان من طبائع النفوس:الاختلاف والتنازع،والتنافس في الاستئثار بمقدرات وثروات الحياة،الأمر الذي يفضي في كثير من الأحيان إلى التحاقد والتقاتل،فإن الإسلام جاء بمشروع المصالحة والوئام.وإن المتأمل في النصوص القرآنية والسيرة

المحمدية:القولية والعملية يجدها ناطقة بذلك في كثير من المواضع والمحطات.

ولما جاء الإسلام وجد العرب قبائل متناحرة فعمل على توحيدها وصنع من الإخوة الأعداء مجتمعا مثاليا ، تسوده معاني المحبة والإيثار،فعز نظيره في تاريخ البشرية كله.

غير أنه بمجرد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم،حتى برزت إلى الواقع لوثات الجاهلية المتعصبة للعرق و القبيلة و اللون والموغلة في الانتصار للنفس ، ولوعلى حساب الحق والمنطق و يبدو أن الكثير من المسلمين حينذاك ، وعلى وجه الخصوص حديثي عهد به منهم لم يتخلصوا منها ، فراحوا يستحيون أيام الجاهلية الأولى ، فوقعت بسبب ذلك صدامات عدة كان من أظهرها : حروب الردة ، وصفين ، والجمل ، التي مثلت انحرافا خطيرا عن مبادئ الإسلام و ثوابته المتمثلة في المحبة والجدال بالتي هي أحسن ، ثم ما تلاها من مواجهات دامية بين الأمويين ومنافسيهم من الشيعة والخوارج وآل الزبير ،الذين رفضوا الانصياع لحكمهم باعتبار أنهم اغتصبوا الحكم من أصحابه الشرعيين،ولم يكتفوا بذلك بل جعلوه ملكيا وراثيا ، فحدث شرخ كبير في نسيج المجتمع الإسلامي آنذاك ، ولا تزال آثاره السيئة إلى زماننا هذا.

إن جل الحكام الأمويين – وللأسف الشديد– واجهوا خصومهم بالعداوة ولم يتركوا لهم فرصة للحوار وعرض الأفكار،بل ذهبوا بعيدا في سياسة الاستئصال والمواجهة اللتين ورثتا مجتمعا مترنحا ومتهلهلا، وكذلك تفعل الفتن والصراعات بالأفراد والمجتمعات إلا ما ندر والواقع المحلي والدولي يشهد على ذلك.

لقد ورث عمر بن عبد العزيز تركة ثقيلة عمل طيلة أيامه المعدودة–بدأب وإخلاص– على المصالحة والوئام بين المتعاديين والمتقاتلين،وإصلاح ما أفسده سابقوه في شتى

المناحي.وقد نجح في مهمته تلك نجاحا منقطع النظير،ساعده على ذلك ما ذكرته في مضمون البحث:من الصدق والعزيمة ، واتخاذ البطانة الصالحة من أهل الصلاح والعلم ، بالإضافة إلى اختياره الأصلح من القادة والولاة، فجاءت أيامه بردا وسلاما وخيرا عم المجتمع الإسلامي،بل والإنساني حينذاك.

إن الرحلة في بحث المصالحة والإصلاح في خلافة عمر بن عبد العزيز علمتنا دروسا كثيرة ،لو اعتمدناها أفرادا ومجتمعات وحكاما لصلح الحال وانتظم الأمر،فما أشبه الليلة بالبارحة-كما قيل-.

وإن أظهر العبر والدروس التي يمكن الاستفادة منها :

- قيمة الإخلاص لله عز وجل،والصدق مع الرعية.

-قيمة العدل والمساواة بين الناس.

-قيمة الحوار والاستماع إلى الرأي الآخر.

-قيمة العمل والمثابرة والمضاء بكل عزم في إنجاز المشاريع،وتطبيق الإصلاحات،مع المراقبة والمتابعة الدائمتين،ثم المحاسبة الدقيقة للولاة والمنفذين.

-قيمة التعايش السلمي،وضرورة التواصل بين المسلمين وغيرهم من الشعوب.

إن هذه القيم وغيرها قد تجسدت فعلا في حياة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز بعد أن يئس الكثيرون من الإصلاح والعودة إلى عهد الراشدين،وإن كان ذلك أقرب إلى المعجزة، باعتبار الزمن الذي تم فيه،وبالنظر إلى حجم الكارثة التي كان المجتمع يتخبط فيها،إلا أنه يمكن تحقيق ما حدث أو أقرب إليه إن صدقت النوايا وتظافرت جهود الجميع.والدليل أن كثيرا من الأمم تعافت من مشاكلها التي عاشتها دهرا طويلا وراحت

بعد منطلقة في مشاريع الإنماء والتنمية والعدالة،وخير دليل على ذلك :ماليزيا،فمنذ سنوات قليلة خلت كانت بلدا متخلفا على كل المستويات،وهاهي الآن تنافس أكبر الدول الصناعية والتكنولوجية،مع استقرار في الأوضاع وسلم عام ورغد في العيش،وهاهي دول الخليج عموما تسير في الخط ذاته،وربما لو حدثنا أجدادنا إلى عهد قريب بما نعيشه من ثورة صناعية وتكنولوجية لعدوا ذلك ضربا من المعجزة والخيال، وإنه بالأمل والعمل يمكن تحقيق ما سيكون حلما لأجيال اليوم،وما ذلك على الله بعزيز ،وإن غدا لناظره لقريب،والحمد لله أولا وآخرا.

memorandum marked : General summary of the contents of the (political reconciliation and social reform in a succession of Omar Bin Abdul Aziz)

Islam is a religion of justice, love and harmony, calling his followers in particular, and humanity in general, networking and collaboration, for the reconstruction of the earth all useful and beneficial in all fields and levels : cultural, religious, political, social ... It stresses that the issue of dialogue and tolerance, and makes them a start in each people intersting, livelihood and their appointment alike. Since Naturally souls : difference and conflict, and competition to grab the riches of life and destiny, This often leads to Althaqd and fighting, Islam is a project of reconciliation and harmony.Watching the Koranic texts, biography Mohammedan : anecdotes, and practical, find - speaking, in many places and stations. When Islam came, it was found antagonistic Arab tribes, and has worked on the standardization, and making enemies of a community ideal of brotherhood, dominated the meanings of love and altruism, we can t saw this counterpart in the history of mankind as a whole. However, once the death of the Prophet P.B.U.HH even came into effect pollute ignorance as common sense, it seems that a lot of Muslims at the time, In particular : the new ones, not eliminate, causing Esthion days of ignorance as common sense first occurs because so many clashes, it was demonstrated : the wars of apostasy, and grades, and sentences, Then the ensuing bloody confrontations between Alamoiin and competitors of the Shiite and outsiders and the Zubayr. left a rift in the fabric of our great Islamic society at the

time, The effects were still bad times to the present. The rulers Alamoiin-as a whole, unfortunately-and their opponents have faced hostility, and not leave them with the opportunity for dialogue, and the presentation of ideas, even went so far as to the policy of confrontation and eradication, which surrendered, the money to the lives of vice and crime and degradation, as well as do the rifts and conflicts of individuals and communities, but they rarely, Indeed, domestic and international attests to that. He has inherited Omar Bin Abdul Aziz, leaving heavy Throughout the few days of work-hard and sincerity - reconciliation and harmony among the warring sides, and reform. in various aspects. He has succeeded in his mission that was unrivalled success, aided by the contents of the search : honesty, determination, Liner and take good people and good science, in addition to the choice of the fittest leaders, governors, The cold days were peaceful and righteous dominated Muslim society, but also humanitarian, then.

The journey in search of reconciliation and rehabilitation in a succession of Omar Bin Abdul Aziz, has taught us many lessons. If adopted as individuals, communities and governors in favour of -as has been said-. It هthe case, took the matter, what is like night showed that the lessons that can be learned : - The value of loyalty to God almighty God, and honesty with the parish. - The value of justice and equality among the people. - The value of dialogue and listening to the opinion of others. - The value of work, perseverance and determination in the sunlit all the projects are completed, the application of the reforms, with observation and follow-up Permanent, Then accurate accounting wali and implementers.- The value of coexistence, and the need for

communication between Muslims and other peoples. These values and others have already been reflected in the life of the successor Rashid Omar bin Abdul Aziz, After that gave a lot of reform and a return to the era of adults. although closer to the miracle, as the time when, Given the magnitude of the disaster that had beset the society, but it could be achieved sooner, or what happened to him, The ratified intentions and efforts of everyone. The proof is that many of the United recovered from the problems experienced by long-consuming, It started after taking off in development projects, development and justice, and the best proof of that : Japan, Since a few years ago was a primitive fullest sense of the word, and is now competing biggest industrial and technological with the stabilization of the situation and acknowledged general, and live in affluence, the Gulf States and is generally moving in the same line. Perhaps our ancestors if we tell until recently, including the potential of industrial and technological revolution, they considered this is a miracle, imagination, and the hope that the work could be achieved would be a dream for generations today, and the loved God, and that tomorrow! father. Praise be to Allah first and foremost.